

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجْمَعُ الْمَلَائِكَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثَّعْثُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ
الآيَةُ 181 سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل عطائي

أساذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل التنزيل أصدق الحديث ليكون الضابطة العامة التي تنير سبل الهدى لأجيال الناس المتعاقبة ومن يهده الله فلا مضل له .
قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

الحمد لله نور السماوات والأرض الذي جعل حمد العبد له سبيلاً لزيادة فضله وإنعامه عليه ومناسبة لإحسانه لذريته وأهل دويرته .
الحمد لله الذي خلق السموات والأرض بالكاف والنون ، ومن غير تعب أو كلل وحمل الناس طوعاً وقهراً على التسليم بأنه سبحانه هو الخالق العليم ، ليكون هذا التسليم العام عوناً ومدداً للأنبياء في تبليغ رسالاتهم ، قال تعالى ﴿وَكُنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على البشير النذير ، والسراج المنير محمد وعلى آله وسلم الذي جعل الله عز وجل أتباع العباد له شاهداً على

(١) سورة المائدة ١٥-١٦ .

(٢) سورة لقمان ٢٥ .

حبه لله عز وجل ، وهو وسيلة لقربهم من رحمته وقطف الثمار من لطفه ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١) .

(عن ابن عباس قال : وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام ،

وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بعض النعام وجعلوا في آذانها السيوف وهم يسجدون لها. فقال : يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملّة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ،

ولقد كانا على الإسلام. فقالت له قريش : يا محمد إنا نعبدها حباً لله ، ليقربونا إلى الله زلفى ،

فقال الله تعالى : قل يا محمد إن كنتم تحبون الله وتعبدون الأصنام ليقربوكم إليه فاتبعوني يحببكم الله ،

وأنا رسوله إليكم وحثه عليكم وأنا أولى بالتعظيم من الأصنام. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : إن اليهود لما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أنزل الله هذه الآية)^(٢) .

الحمد لله الذي جعل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد صفة عبوديته لله ، ويتفاخر بهذه الصفة لمنع غلو المسلمين بشخصه ، وليبان قانون وهو أن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواء كانت عقلية أو حسية إنما هي آيات وفضل من الله عز وجل ، ويحتاج المسلم في الدنيا والآخرة الإقرار بعبودية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لله ، وتفضل الله ببعثه بالرسالة إلى الناس جميعاً ، (عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا وضع الميت في قبره ، وتولى

(١) سورة آل عمران ٣١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٥٨/٢.

عنه أصحابه ، وإنه ليسمع خفق نعالهم ، أناه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل .

يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعا^(١) .

الحمد لله الذي أنزل القرآن وتفضل بأمور :

الأول : وصول القرآن كاملاً إلى النبي بواسطة جبرئيل وهو من سادات الملائكة ، وقد أثنى الله عز وجل على أمانته والإجماع على أنه الروح الأمين في قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢) .

ومن الإعجاز في هذه الآية والآيات التي تحكي نزول جبرئيل بالقرآن كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٣) أجيال المسلمين المتعاقبة القرآن بالتسليم بأنه كلام الله ليس فيه تحريف أو تبديل أو تغيير .

الثاني : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة آيات القرآن على المسلمين حال نزولها ، وبعثه على بعض كتاب الوحي لتدوين الآية أو الآيات التي نزلت عليه .

الثالث : تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين آيات وسور القرآن في الصلاة .

ولقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على أداء الصلاة جماعة في المسجد النبوي في الفرائض اليومية الخمسة ليستمتع أصحابه للقرآن ، ويحفظوا في قلوبهم آيات القرآن ويكتبوها في الصحف

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٣٠٠/١٥ .

(٢) سورة الشعراء ١٩٣ .

(٣) سورة الشعراء ١٩٢ - ١٩٣ .

وعلى السعف والعظام ونحوها ، وتستمتع لها الوفود التي تأتي للمدينة لمعرفة معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو الذين يأتون للتسوق والتجارة وزيارة ذي القربى .

وكانت في المدينة طوائف من اليهود ، وهم كل من :

الأولى : بنو قريظة .

الثانية : بنو النضير .

الثالثة : بنو قينقاع .

وهم يتبعون التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، فكانت مناسبة لمقارنة العرب وعامة الناس بين القرآن والتوراة ، والوقائع والأحداث أيام نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبار النبي موسى عليه السلام .

ومن الإعجاز أن موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء الذي وردت قصص وأخبار بخصوصه في القرآن لجذب المسلمين والناس لهذه المقارنة ، ومنع التحريف في قصة وأخبار موسى إلى يوم القيامة ، لأن هذا المنع مقدمة وشاهد على قانون إتحاد سنخية النبوة والتنزيل .

الرابع : معارضة وتدارس جبرئيل آيات وسور القرآن النازلة كل عام مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا كانت السنة التي انتقل فيها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى تدارسه معه مرتين فعلم النبي أنه عام الرحيل والمغادرة إلى جنان الخلد .

(قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، عليها السلام، أسر إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي) ^(١).

وعندما كان الصحابة يكتبون القرآن يكتبونه من غير تنقيط على الحروف لوضوح المعنى ، نعم كتبوا (مائة) بالألف كما في قوله تعالى ﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ^(١)﴾.

وقد ورد لفظ ﴿مائة﴾ سبع مرات في القرآن مرتين منها في الآية أعلاه وتقرأ ﴿مائة﴾ من غير ألف أي ﴿مئة﴾ ولكن أضيف لها الألف للفصل والتمييز بينها وبين ﴿منه﴾ إذا لم تنقط ، وأول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي .

(وقال يحيى بن أبي كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر الآية، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم)^(٢).

(والذي يحكى : أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة ، فقال له رجل : من المتوفي - بكسر الفاء ، فقال الله تعالى . وكان أحد الأسباب الباعثة لعلي عليه السلام على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو)^(٣). أن تنقيط القرآن في أيام الصحابة شاهد على سلامته من التحريف لموضوعية النقطة فوق حرف النون والذال والزاي والفاء ، وتحت حرف الباء ، والنقطتين فوق التاء والقاف ، وتحت الياء ، وثلاث نقاط فوق الثاء والشين .

وليس من ثلاث نقاط تحت أحد الحروف .

(١) سورة البقرة ٢٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٠/١.

(٣) الكشف ٢٠٩/١.

ومن فضل الله عز وجل وسعة رحمته كتابتي أجزاء هذا التفسير ومراجعتها وتصحيحها بمفردي ، وكذا كتبي الفقهية والأصولية ، بتوفيق وإعانة ولطف ومدد من عند الله عز وجل ، قال سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

وكما ذكرت آية البحث سماع الله للقول الخبيث بقوله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) ، فإن الله عز وجل يسمع المؤمن في دعائه ومسألته ، ليكون من معاني آية البحث حث المؤمنين على القول الطيب وعلى التسبيح والتهليل والدعاء وسؤال الحاجات ، وكأن الآية تقول للمسلمين : يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا الكلام الذي يصعد إلى الله من الخبثاء الذي يمتنعون عن الإمثال للأوامر الإلهية باقامة الصلاة وأداء الزكاة عالياً أو كثيراً فاجتهدوا بذكر الله وتلاوة القرآن والله يسمع الدعاء ويفرج الهم ، ويقضي الحوائج ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣).

وأسأله تعالى أن يمن عليّ بتوالي صدور أجزاء هذا التفسير بعلوم مستحدثة من مضامين الآيات ، ومسائل مستنبطة ينتفع الناس منها ، وتدل على قانون وهو أن علوم القرآن من اللامتناهي ، وأنه يدعو العلماء والناس جميعاً للنهل منه ، وإتخاذ سنته منهاجاً وصراطاً ، ومن قصصه وأمثاله موعظة وعبرة .

(١) سورة الطلاق ٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الطلاق ٢.

وقد صدر الجزء التاسع والثمانون بعد المائة في تفسير الآية (١٨٠) من سورة آل عمران .

ثم جاء هذا الجزء وهو التسعون بعد المائة ويقع في تفسير الآية (١٨١) من سورة آل عمران.

ثم أطل على الأرض الجزء الواحد التسعون بعد المائة ويقع في الصلة بين آية (١٨١) والآية (١٨٠) وهو علم جديد يلزم العناية به من قبل العلماء.

الحمد لله الذي أمر بهبوط آدم وحواء إلى الأرض لقانون من الإرادة التكوينية وهو ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) لتبدأ رحلة الخلافة وتستمر إلى يوم القيامة ، وتتجدد معالم الإيمان بالبراهين والحجج الكونية المصاحبة لوجود الإنسان في الأرض ، ولم يرض الله عز وجل بإكتفاء الناس بالإيمان بربوبيته وأنه خالق كل شئ بالتدبر بالآيات الكونية ، إنما بعث الأنبياء والرسل بآيات الأحكام وسنن العبادة وما فيه الرشاد لذا حالما يصل المسلم والمسلمة سن البلوغ يجب عليهما تلاوة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) من وجوه:

الأول : صيغة القرآنية .

الثاني : تلاوة الآية أعلاه حال الوقوف بين يدي الله عز وجل وبعد تكبيرة الإحرام (الله أكبر) التي تعني عدم جواز اتيان ما هو خارج الصلاة من القول والفعل .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

الثالث: تلاوة آية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) مع آيات سورة الفاتحة الأخرى ، وقد تقدم في الجزء السابق الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدني ما سأل . فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدني عبدي . فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثني علي عبدي فإذا قال العبد (مالك يوم الدين) قال مجدني عبدي . وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما سأل فإذا . قال (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخره قال هذا لعبدي ولعبدني ما سأل^{(٢)(٣)} .

الرابع: قراءة آية ﴿اهْدِنَا﴾ بحال خشوع وخضوع .
الخامس: قراءة كل مسلم مسلمة ﴿اهْدِنَا﴾ سبع عشرة مرة كل يوم .
السادس: تلاوة الآية بصيغة الدعاء والمسألة ، وليس من تعارض بينها وبين قصد القرآنية .
السابع: وجوب تلاوة آية ﴿اهْدِنَا﴾ على كل مسلم ومسلمة بلحاظ جزئيتها من الصلاة .
الثامن: تدبر قارئ سورة الفاتحة في مضامينها وهو في الصلاة بحال الخشوع والسكينة للتحلي أثناء الصلاة بالإنقطاع الذهني عن مشاغل الدنيا.

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) الأحاديث القدسية ٥٢/.

(٣) أنظر الجزء السادس والثمانين بعد المائة من هذا السفر والذي جاء خاصاً بتفسير الآية ص ١٦ .

التاسع : صيغة الإيمان التي يتصف بها أوان أداء الصلاة ، وقيامه بالركوع والسجود .

ومن خصائص التقيد بأركان وأجزاء الصلاة التنزه عن الدنيا وزينتها ، وكأن الصلاة سياحة في عالم الملكوت ، ويمكن القول بقانون وهو كل أداء لصلاة الفريضة خطوة أو خطوات إلى الجنة الأخروية ، والتباين في عدد الخطوات بلحاظ أمور :

الأول : حسن النية .

الثاني : الإنقطاع إلى الله وفي التنزيل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١).

الثالث : حسن واسباغ الوضوء (عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من صلى الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، خرجت وهي بيضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولا سجودها ، خرجت وهي سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتني . حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ثم يضرب بها وجهه)^(٢).

الرابع : إتقان الصلاة (عن الشعبي قال : أخبرني كعب بن عجرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن سبعة نفر : أربعة من موالينا وثلاثة من عربنا ، مسندين ظهورنا إلى مسجده ، فقال : ما

(١) سورة النحل ٩٨ .

(٢) الدر المنثور ٩٦/٢ .

أجلسكم ؟ قلنا : جلسنا ننتظر الصلاة . قال : فأرم قليلا ، ثم أقبل علينا ، فقال : هل تدرون ما يقول ربكم ؟ قلنا : لا .

قال : فإن ربكم يقول : من صلى الصلاة لوقتها ، وحافظ عليها ، ولم يضيعها استخفافا بحقها ، فله علي عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ، ولم يحافظ عليها ، وضيعها استخفافا بحقها ، فلا عهد له علي ، إن شئت عذبتة ، وإن شئت غفرت له ^(١) .

الخامس : التلاوة الصحيحة .

السادس : التنزه عن الرياء .

وهل يترتب أثر ونفع على هذه التلاوة ، الجواب نعم ، من وجوه :
الأول : كل حرف من كلمات سورة الفاتحة بعشر حسنة ، وعدد حروفها هو مائة وتسعة وثلاثون حرفاً .

الثاني : الثواب الذي يترتب على التلاوة بقصد القربة ، بلحاظ أن الصلاة عبادة تتقوم بذات القصد .

الثالث : تأتي تلاوة آية سورة الفاتحة كجزء من الصلاة الواجبة والمندوبة .

لقد أنزل الله عز وجل آيات القرآن بالأمر بالزكاة ، ولم يكن هذا الأمر ابتدائياً في الأرض ، بل هو قانون صاحب الأنبياء والشرائع السماوية ، وهو من أسباب ضلالة الذين كفروا وقيامهم بقتل الأنبياء ، فلذا ذكرت الآية التي جاء هذا الجزء بتفسيرها ، وهي الآية (١٨١) من آل عمران هذا القتل بقوله تعالى ﴿ سَكَبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ لبيان غلبة النفس الغضبية على الجاحدين حينما يتوجه إليهم الأمر بالزكاة ، ويدعون إلى الصدقة ، ولا يبالون حتى ولو قتلوا النبي الذي جاء بفريضة الزكاة .

ليكون من معاني آية البحث تحذير للمشركين من السعي لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، خاصة مع موضوعية هذا السعي والقصد في تجهيزهم الجيوش الكبيرة لقتاله وأصحابه ، فقد كان مشركوا قريش أثناء الإعداد والتجهيز لمعركة أحد يجاهرون بارادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو رأس الدعوة إلى الله عز وجل ، فنزلت آية البحث لنهي الناس عن إعانة المشركين في هجومهم على المدينة ، ومكرهم الظاهر والخفي ، قال تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(١).

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يأمر بجمع الأموال له وعندما جاءت الغنائم لم يأخذ منها شيئاً ، إنما كان يوزع سهم الأتقال ونحوه على المسلمين .

ونزلت آية الصدقات ووجوب الزكاة ليقوم الأغنياء باخراجها من أموالهم وإعطائها إلى الفقراء ليكون فيه شاهداً على صدق نبوته وأنه لم يطمع في دنيا ولا ملك ولم يدخر الأموال ، ولتكون فريضة الزكاة حصناً وتنزيهاً للعلماء ودعوة لهم وللحكام والسلاطين المسلمين باجتنب الاستحواذ على الأموال العامة والإثراء منها ، وفي هذا الإجتنب دعوة إلى الله عز وجل وحرب على الإرهاب .

الحمد لله الذي يسمع كل صوت ، ويكتب هذه الأصوات ليكون الذكر والتلاوة والقول الحسن باباً للأجر والثواب في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (أطب الكلام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام)^(٣).

(١) سورة فاطر ٤٠.

(٢) سورة فاطر ١٠.

(٣) جمع الجوامع ١/٣٨٨٥.

الحمد لله الذي أنزل آية البحث ليستحضر الناس سماع الله عز وجل لأقوالهم وكلامهم في المنتديات والبيوت والمجالس الخاصة ، ويدرك الإنسان أن الله عز وجل يسمع كلامه مع أبيه وأمه ، ومع أخيه وابنه .
وفي آية البحث دعوة للمسلمين للشكر لله عز وجل من وجوه :
الأول : الشكر لله عز وجل على السلامة من قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ﴾ .
الثاني : الإقرار بأن الله عز وجل هو الغني ، من التقوى والخشية من الله سبحانه .

الثالث : التفقه في الدين ومعرفة أن الله عز وجل حينما يقول ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(١) يراد منه البعث على إعانة الفقراء (وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال : اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة).

وفي قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ﴾ حث للمسلمين والناس جميعاً على القول الحسن وعمل الصالحات فان الله عز وجل يكتب كل قول وكل فعل ، فمن فضل الله عز وجل على المسلمين والناس حثهم على التقوى التي هي واقية من الظلم والتعدي في القول والفعل ، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

حرر في الرابع عشر من شهر محرم الحرام ١٤٤١

٢٠١٩/٩/١٤

(١) سورة الحديد ١١.

(٢) سورة المائدة ٢.

قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ آل عمران الآية ١٨١

الإعراب واللغة

أنفرد حمزة من بين القراء بأن قرأ (سيكتب) على بناء الفعل للمجهول وقرأ وقتلهم برفع اللام ، وكأنه من نائب الفاعل ، وفيه مسألة وهي أن الذي يكتب ما قال الجاحدون الله أو الملائكة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١).

وتكون اللام في الحالات الآتية :

الأولى : دخول اللام على (إن) الشرطية ، وتدمج معها في الكتابة كما في قصة ولدي آدم في التنزيل ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثانية : إذا دخلت على الحرف قد كما في آية البحث .

الثالثة : إذا دخلت اللام على الحرف (سوف) كما قوله تعالى ﴿وَكَسُوفَ

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٣).

(١) سورة ق ١٨.

(٢) سورة المائدة ٢٨.

(٣) سورة الضحى ٥.

الرابعة : مع المبتدأ (عمر) كما في قوله تعالى لعمرك ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١) ولم يرد لفظ ﴿لَعَمْرُكَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وفيه إكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن هذه اللام تتضمن معنى القسم .

وبدل (نقول) قرأ حمزة (يقول)^(٢) ، بينما المرسوم في المصاحف (نقول) بالنون.

وتحتمل وجوهاً :

الأول : إنها نون الجمع.

الثاني : إنها نون العظمة.

الثالث : الجامع للوجهين أعلاه .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية ، والصحيح في القراءة هو المرسوم في المصاحف.

وقال الكسائي : ومن قراءة عبد الله بن مسعود (ويقال ذوقوا)^(٣).

وحكى الداني عن طلحة بن مصرف : ستكتب ما قالوا^(٤).

ونقلوا عن أبي معاذ النحوي أن في حرف ابن مسعود سنكتب ما يقولون ونقول لهم ذوقوا) أي مع إضافة الجار والمجرور (لهم).

اللام في لقد : قيل إنها لام القسم وتسمى أيضاً اللام الموطئة للقسم ، واللام المؤذنة للقسم ، والمختار أنها لام الإبتداء التي تكون في صدارة الكلام ، وتفيد تأكيد الكلام ، وتثيت معناه لذا قيل أن لام القسم هذه

(١) سورة الحجر ٧٢.

(٢) ابن عطية المحاربي (٤٨١-٥٤٢ هجرية) / المحرر الوجيز ٥١/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٢ ، الكشف والبيان ٣٠٣/٣.

(٤) تفسير البحر المحيط ٤٨١/٣.

بالأصل هي لام الإبتداء ولكنها تتصف بكونها أمانة وعلامة على قَسَمٍ مقدر يضمنر في سياقها.

قد : حرف تحقيق ، سمع : فعل ماض مبني على الفتح .

لفظ الجلالة (الله) فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره .

قول . مفعول به منصوب بالفتحة .

الذين : اسم موصول مبني في محل جر مضاف إليه .

قالوا : فعل ماض ، والواو فاعل .

إن الله : إن حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد .

لفظ الجلالة (الله) اسم إن منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة

على آخره .

فقير : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

ونحن: الواو حرف عطف ، نحن ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ.

أغنياء : خبر مرفوع بالضمة وامتنع عن التنوين لأنه ملحق بالأسماء

المؤنثة الممدودة .

سنكتب : السين حرف استقبال ، ويستعمل في الغالب للمستقبل

القريب ، وفي التنزيل ﴿إِنَّهُمْ يُرَوُّهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا﴾ ^(١).

ولم يرد لفظ ﴿يُرَوُّهُ﴾ ولفظ ﴿رَأَاهُ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

نكتب : فعل مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (نحن)

للتعظيم .

ما قالوا : ما حرف مصدر ي .

والمصدر المؤول (ما قالوا) في محل نصب مفعول به لفعل الكتابة .

قالوا: فعل ماض مبني على الضم ، والواو فاعل .

وقتلهم الأنبياء : الواو : حرف عطف .
 قتل : معطوف على المصدر المؤول منصوب بالفتحة ، وهو مضاف ،
 والضمير (هم) ضمير مضاف إليه .
 الأنبياء : مفعول به للمصدر قتل منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره .
 بغير حق : جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في قتلهم .
 حق : مضاف إليه مجرور .
 ونقول : الواو حرف عطف ، نقول : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه
 الضمة الظاهرة على آخره .
 ذوقوا : فعل أمر مبني على حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة
 والواو فاعل .
 عذاب : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على
 آخره .
 الحريق : مضاف إليه مجرور ، وعلامة جره الكسرة تحت آخره ، وجملة
 ﴿إِنَّ اللَّهَ فَاعٍ﴾ في محل نصب مفعول القول .
 وكذا جملة ﴿ذُوقُوا﴾ .
 وتحتمل الكتابة في قوله تعالى ﴿سَنَكْبُ﴾ وجوهاً :
الأول : التدوين وكتابة الله لأقوال الكفار ، ومنها قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ
فَاعٍ﴾ .

الثاني : إرادة المجاز والمقصود إحصاء الأقوال .
الثالث : كتابة الملائكة لأقوال الناس ، قال تعالى ﴿إِذْ يَتَلَقَّى
الْمَلَكَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(١) .

والمختار الوجه الأول والثاني أعلاه ، ويكون الثالث في طولهما ، وفي وصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن مسعود منها : يا ابن مسعود لا تتكلم إلا بالعلم بشئ سمعته ورأيته فان الله تعالى يقول : ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ، وقال : ستكتب شهادتهم ويسئلون ، وقال : إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وقال : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد^(١).

في سياق الآيات^(٢)

صلة آية البحث بالآيات المجاورة على شعبتين :
الشعبة الأولى : صلة آية البحث بالآيات المجاورة السابقة ، وفيها وجوه:

الوجه الأول : الصلة بين آية البحث والآية قبل السابقة ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمُونَا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : جاءت كل من آية البحث وآية السياق بصيغة الجملة الخبرية ، وكل آية منها تتضمن قوانين متعددة ، أما آية السياق فتتضمن القوانين التالية :

الأول : قانون لا يترك الله الناس سدى .

(١) البحار ١٠٥/٧٤.

(٢) قد تقدم الجزء السابق وهو السادس والثمانون بعد المائة مختصا بصلة آية البحث بالآية السابقة لها .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

الثاني : قانون التمييز بين المؤمنين والذين كفروا ، بلحاظ الصفات .

الثالث : قانون إنفراد الله عز وجل بعلوم الغيب ، وفي التنزيل ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(١).

الرابع : قانون إجتباء الله للرسل والأنبياء ، وفي التنزيل ﴿وَلَكِنَّا اللَّهُ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) .

الخامس : قانون وجوب الإيمان بالله ورسله .

السادس : قانون التقوى سبيل للأجر والثواب .

السابع : قانون الأجر العظيم على الإلتصاف بالإيمان والتقوى .

أما القوانين في آية البحث فهي من وجوه :

الأول : قانون سماع الله لكلام الناس .

الثاني : قانون سماع الله لقول الجاحدين إن الله فقير .

الثالث : قانون سماع الله لقول الجاحدين نحن أغنياء .

الرابع : قانون كتابة الله لأقوال البشر .

الخامس : قانون الوعيد لقتلة الأنبياء بغير حق .

السادس : قانون ذوق الكافرين عذاب الحريق .

المسألة الثانية : أخبرت آية السياق عن الفصل بين المؤمنين والذين

وصفتهم الآية بـ ﴿الطيب﴾ وبين الكفار والمنافقين الذين وصفتهم آية

السياق بـ ﴿الخبيث﴾ وهناك مسألتان :

الأولى : هل هذا الفصل معجزة .

الثانية : ما هي صيغ وكيفية هذا الفصل .

(١) سورة الجن ٢٦.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

أما المسألة الأولى فالجواب نعم ، فهو معجزة عقلية حسية ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، لأن هذا الفصل فعل ظاهر يركز على أسباب نفسية خفية لا يعلمها إلا الله .

وأما المسألة الثانية فتتعدد صيغ وكيفيات هذا الفعل باللطف بالمؤمنين ، وبازاحة الذين كفروا عن منازل المدح ونحوه ، ومن هذا الفضل آية البحث إذ تذم الذين يخلون بالزكاة ، ويمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله ، ويتعدون على مقام الربوبية ، مع استهجان المؤمنين لسوء فعلهم ، وقبيح قولهم ، وتلاوة كل من آية السياق والبحث من هذا الإستهجان ، وفي هذه التلاوة عصمة من محاكاتهم وتحذير الناس منه .

وعن ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية { يحول بين المرء وقلبه }^(١) قال : يحول بين المؤمن والكفر ، ويحول بين الكافر وبين الهدى^(٢) .

المسألة الثالثة : لقد ذكرت آية السياق المؤمنين بالصفة ، والمراد المهاجرون والأنصار ، وهو مما إذا ورد قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ وصحيح أن الجملة متصلة بما بعدها ، ولكن هذا الشرط من الآية من إعجاز القرآن ، فلن يترك الله الصحابة وحدهم ، إنما يمدهم بأسباب التمكين وصيغ العون .

وهل فيه إشارة إلى نصرتهم في معركة بدر وأحد والخندق ، الجواب نعم ، ومن باب الأولوية القطعية ، فإذا كان الله عز وجل يصف المؤمنين بفصلهم عن الذين كفروا فانه سبحانه يبتلي الكافرين ، ولم يتعظ الذين

(١) سورة الأنفال ٢٤ .

(٢) الدر المنثور ٤/٤٣٥ .

كفروا من إنذارات القرآن ، قال تعالى ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾^(١) ، وهل تشمل الآية المؤمنات أم تختص بالرجال من المؤمنين ، الجواب هو الأول ، ليكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : ما كان الله ليميز المؤمنين والمؤمنات على ما أنتم عليه حتى يميز المنافق من المؤمن ، والمنافقة من المؤمنة .

الثاني : وما كان الله ليذر المؤمنات على ما أنتم عليه ، حتى يميز الكافرة من المؤمنة .

الثالث : وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز المنافقة من المؤمنة .

فان قلت كيف يكون التمييز بين المؤمنين والمؤمنات من جهة وبين الكافرين والكافرات والمنافقين والمنافقات من جهة أخرى ، الجواب من الشواهد على هذا التمييز بأن فصح الله الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) وهذا القول من الخبيث الذي يتنزه عنه المؤمنون .

وهل تلاوة آية البحث من هذا التمييز والفصل ، الجواب نعم ، فمن إعجاز القرآن أن كل آية منه تمييز بين المؤمنين والمنافقين .

لقد جعل الله الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار ، وهو من اللطف الإلهي بالناس في تقريبتهم إلى منازل الطاعة والصلاح .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٣) وقد أنعم الله عز وجل على الناس ببعثة الأنبياء وأنزل الكتب

(١) سورة القمر ٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة القيامة ٣٦.

السماءية ، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(١) لبيان قانون من البشارة بلحاظ آية السياق وهو : الثناء على الطيب .
ومن الإنذار وجوب إجتناّب الخبيث الذي تذكره آية السياق ، ومن خصال الأنبياء أن كل نبي جاهد من أجل التمييز بين الطيب والخبيث ، والتمييز بين الناس بلحاظ أفعالهم وأقوالهم .
ومن الشواهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام وجوه :

الأول : كل آية من القرآن هي تمييز بين الطيب والخبيث .
الثاني : بقاء الآية القرآنية بين الناس إلى يوم القيامة ، وهي تمييز وفصل الخبيث عن مجتمع الإيمان والتقوى .
الثالث : تلاوة المسلمين للقرآن في كل ركعة من الصلاة تمييز وفصل للخبيث عن الطيب ، وهل ذات التلاوة شاهد على أن الذي يتعاهدها من الطيب الذي تذكره آية السياق ، الجواب نعم ، كما أن سماعها تمييز وفصل بين المؤمن والكافر ، قال تعالى ﴿وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزُقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(٢) .

وهو من أسرار قراءة القرآن في الصلاة بصورة جهرية في كل من :

الأول : صلاة الصبح وهي ركعتان .
الثاني : صلاة المغرب وهي ثلاث ركعات .
الثالث : صلاة العشاء وهي أربع ركعات ، يقرأ مسلم ومسلمة في كل ركعة منها سورة الفاتحة مع سورة أو عدد من آيات من سورة من سور القرآن ، وهل يكتب لقارئ القرآن في الصلاة أنه يحفظ القرآن في الأرض .

(١) سورة الأنعام ٤٨ .

(٢) سورة ن ٥١ .

ويجعل آياته تركة للأجيال اللاحقة .

الجواب نعم ، وهو من مصاديق استحقاق قارئ القرآن أنه طيب وينمي الطيب والصلاح في المجتمعات.

لقد تضمنت آية البحث ذم الذين ﴿قَالُوا إِنْ إِلَهُ الْفَقِيرِ﴾ وتدل تلاوة المسلم والمسلمة للقرآن على تنزههما من هذا القول حتى الذي لا يدفع الزكاة سهواً ونسياناً أو عمداً ، ففي تلاوة القرآن دليل على شهادة القارئ المؤمن بأن الله هو الغني ، وغناه مطلق ، وفي التنزيل ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكْدًا سُجْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

المسألة الرابعة : ذكرت آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل اختص لنفسه بعلم الغيب ثم تفضل وأنزل الكتب السماوية وفيها بعض علوم الغيب ، ، وأخبر رسوله عما يقوله الجاحدون الظالمون لأنفسهم ﴿إِنْ إِلَهُ الْفَقِيرِ﴾^(٢) والله الذي أحاط بعلم الغيب هو الغني .

ومن علوم الغيب التي يعلمها الله وأخبر الله بها النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخبر الله بها النبي ليكون هذا الإخبار من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

ولقد اختار الله عز وجل النبي محمداً ليأمر بدفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، فامتنع قوم عن دفعها ، وظنوا أن هذا الإمتناع ينفعهم ، والذي

(١) سورة يونس ٦٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

تذكره الآية السابقة ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(١).

وقام جماعة منهم بالتعدي وعدم الإكتفاء بعدم دفع الزكاة إذ قالوا كيف يأمر الله أن نتصدق وأنه يفيض الصدقات إذن هو فقير ، فأخبر الله رسوله بقرآن عن هذا القول ، ليكون إخباراً لأجيال المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة ليتخذوا من موضوعه سلاحاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وتدعو الآية إلى أمور :

الأول : العناية بقانون وهو غنى الله المطلق .

الثاني : تفسير معاني ودلالات الأسماء الحسنى ، وكيف أنها باب للهداية ، وحرب على مفاهيم الضلالة.

الثالث : تنمية ملكة تسليم الناس بفقرهم ، وحاجتهم إلى رحمة الله لاستدامة وتوالي الرزق .

الرابع : تأليف العلماء الكتب عن غنى الله استقراءً من وجوه :

أولاً : القرآن وآياته المباركة .

ثانياً : السنة النبوية .

ثالثاً : الآيات الكونية.

رابعاً : الشواهد في خلق الناس وأحوالهم اليومية ، قال تعالى

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

خامساً : التذكير بعالم الآخرة : وإختصاص الله عز وجل وحده بالملك ، فليس من مالك لشيء دق أو كبير إلا الله عز وجل انما يقف الناس بين يدي الله للحساب من وجوه :

الأول : أوان ومواطن الحساب .

الثاني : ذات المحاسبة ، وما فيها من السؤال والجواب ، والحجة والبيان والإحتجاج والعدر.

الثالث : موضوع المحاسبة .

الرابع : المحاسب بالفتح ، والذي يخضع للحساب.

الخامس : الميزان والرجحان بين الحسنات والسيئات .

السادس : نتيجة الحساب .

ومن بديع صنع الله عمارة الناس الأرض على نحو تعاقب الأجيال والأمم ، أما بالنسبة للحساب الأخروي فان الناس جميعاً من لدن آدم والى آخر جيل من الناس يحاسبون في آن واحد ، وهو شاهد على غنى الله عز وجل .

ويقف الجد والابن والحفيد ، والغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ، في موضع واحد للحساب ، ليكون من أسرار أداء المسلمين الصلاة مقدمة ونوع طريق لنجاتهم من مواطن الحساب إذ يقف المسلمون على إختلاف مراتبهم وشأنهم في صف واحد بخضوع وخشوع بين يدي الله ، وهذا الخشوع سبيل للنجاة من الخوف والفرع ساعات الحساب ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

المسألة الخامسة : إبتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾^(١)، ترى ما المراد من المخاطبين (أنتم) في الآية أعلاه ، يحتمل الجواب وجوهاً :

الأول : المراد عموم الناس جميعاً ، وتقدير الآية : وما كان الله ليذر المؤمنين على ما عليه الناس.

الثاني : إرادة المسلمين والمسلمات ويدخل معهم المنافقون ، والمنافقات ، وتقدير الآية : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الإسلام الظاهري حتى يميز المؤمن من المنافق ، والمؤمنة من المنافقة .

الثالث : المراد خصوص المؤمنين ، وتقدير الآية : وما كان الله ليذركم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه .

وفي الآية السابقة قرائن تدل على تعيين المراد من الآية الكريمة ، وتجلت في لغة الخطاب في آية البحث ، حتى مع إمكان القول بأن موضوع آخر الآية أعم من أولها .

والمختار هو الوجه الثاني أعلاه ، إذ أن التمييز بين المؤمنين والكافرين تم بنطق المسلمين بالشهادتين ، وحضورهم الصلاة ، بل تجلّى بالحرب والقتال في معركة بدر ثم معركة أحد ثم الخندق ، وقد ورد قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ﴾^(٢)، ثلاث مرات في القرآن ، وتتعلق بمعركة بدر ومعركة أحد .

ويمكن تقديره بلحاظ آية البحث ، يوم التقى الجمعان جمع طيب وهم المؤمنون وجمع خبيث وهم المشركون.

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة الأنفال ٤١.

وفي واقعة الأحزاب عندما اجتاز عمر بن ود العامري الخندق ، ورد
 عن ابن إسحاق من غير رواية البكائي أن عمرا لما نادى بطلب من ييارزه
 قام علي عليه السلام وهو مقنع في الحديد فقال : أنا له يا نبي الله .
 فقال له : اجلس إنه عمرو ثم كرر عمرو النداء وجعل يؤنبهم ويقول
 : أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون لي
 رجلا ، فقام علي فقال : أنا يا رسول الله فقال : اجلس إنه عمرو ثم نادى
 الثالثة وقال :

(ولقد بحثت من النداء ... بجمعكم هل من مبارز)
 (ووقفت إذ جبن المشجع ... وقفة الرجل المناجز)
 (وكذاك أني لم أزل ... متسرعا قبل الهزاهز)
 (إن الشجاعة في الفتى ... والجواد من خير الغرائر)
 فقام علي عليه السلام فقال : أنا يا رسول الله فقال : إنه عمرو فقال :
 وإن كان عمرا فأذن له رسول الله عليه الصلاة والسلام فمشى إليه علي و
 هو يقول :

(لا تعجلن فقد أتا ... ك مجيب صوتك غير عاجز)
 (ذونية و بصيرة ... والصدق منجى كل فائز)
 (إنني لأرجو أن أقي ... معليك نائحة الجنائز)
 (من ضربة نجلاء يب ... قى ذكرها عند الهزاهز)
 فقال عمرو : من أنت ؟ قال : أنا علي قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا
 علي بن أبي طالب فقال : غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن
 منك .

ابن هشام فإني أكره أن أهريق دمك .
 فقال علي : لكني والله ما أكره أن أهريق دمك

فغضب^(١) ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضبا و يقال : إنه كان على فرسه .

فقال له علي : كيف أقاتلك و أنت على فرسك ؟ ولكن انزل معي فنزل عن فرسه ثم أقبل نحوه فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه فضربه علي على حبل العاتق فسقط و ثار العجاج و سمع رسول الله عليه الصلاة والسلام التكبير فعرف أن عليا قد قتله^(٢) .

وتبين آية السياق حقيقة وهي أن الفصل والتمييز بين المؤمنين والكفار مستمر ومتجدد بمسائل وبعد الفصل والتمييز بين المؤمنين والذين كفروا بالتصديق الظاهري بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء التمييز بين المؤمنين والمنافقين بكشف ما تنطوي عليه السرائر ويظهر في عالم الأفعال ، وقد يقال إن الله لا يؤاخذ على السرائر ، والجواب نعم ، ولكن تلك النوايا والإعتقاد يظهران في عالم الأفعال .

فحينما كان المشركون يهجمون على المدينة يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يبادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم للخروج للدفاع ، أما المنافقون فانهم يظهرون الخوف والشك والريب ، وإذا استشهد بعض المؤمنين في معارك الدفاع أظهر المنافقون الشماتة واللوم ، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٣) .

(١) أي غضب عمرو بن ود .

(٢) عيون الأثر ٨٤/٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٦ .

ولا ينحصر موضوع وغايات هذا اللوم بذات الواقعة والشهادة إنما كان المنافقون يقصدون صدّ عامة الأنصار أنه الدفاع من شرائط وفروع بيعة العقبة الأولى والثانية.

وموضوع هذا الدفاع عن كل من :

الأول : شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : النبوة والرسالة إذ أن النبي محمداً خاتم النبيين ، قال تعالى ﴿مَا

كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(١).

الثالث : التنزيل وهذا الدفاع من جهات :

الأولى : تعاهد السور المكية وبقاؤها بين الناس ، إذ أراد المشركون الإجهاز على الإسلام لينسى الناس مع تعاقب الأيام هذه السور ، ليكون من إعجاز القرآن أن جمعه بين دفتين وسيلة مباركة لحفظ كل كلمة وآية منه من الضياع والتحريف.

الثانية : الدفاع عن آيات القرآن التي نزلت في طريق الهجرة وفي بدايات إقامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة .

الثالثة : الدفاع عن نزول آيات القرآن المتوالي ، وهل كان المشركون يعجلون بمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لمنع توالي نزول القرآن .

الجواب نعم ، وهو من الشواهد على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يغز أحداً ، وأن غزو المشركين للمدينة كانت له غايات خبيثة منها قطع وايقاف نزول القرآن ، وإذ أبى الله عز وجل إلا نزول كامل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع تبليغه للناس ،

وتلاوته في الصلاة فلا بد أن يرجع كيد المشركين إلى نحورهم ولو بنزول الملائكة لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، لأن هذه النصرة هي نصرة للقرآن وتوالي نزول آياته وحفظ المسلمين لها.

الرابعة : الدفاع عن تفسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن ، وبيانه أحكامه ومضامينه القدسية ، خاصة وأن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

الرابع : الذب والدفع عن السنة النبوية. لقد أدرك المشركون أن قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحول دون بيان سنته القولية والفعلية وانتفاع الناس منها ، بما يثبت معالم الإيمان في الأرض.

الخامس : الدفاع عن كلمة التوحيد والتصديق بالملائكة والإيمان باليوم الآخر ، فجاءت آية السياق للحث على الدفاع عن بيضة الإسلام ، وهو من مصاديق الإيمان والتقيد بسنن التقوى والخشية من الله والسعي لإكتناز الحسنات رجاء الفوز بالأجر والثواب العظيم الذي أختتمت به آية السياق.

وأخبرت آية البحث عن سماع الله عز وجل لقول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) وهل هذا السماع والإخبار في القرآن عنه من تمييز الخبيث من الطيب الذي ذكرته آية السياق .

المسألة السادسة : لما أخبرت آية السياق بأن الله لا يترك المؤمنين في حال اختلاط وتداخل مع المشركين والمنافقين الذين يضمرون الكفر

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

ويظهرون الإيمان ، جاءت آية البحث بمصداق من مصاديق الفصل والتميز بينهم من جهات :

الأولى : توثيق قول قبيح ، قالته طائفة من الجاحدين .

الثانية : الفصل بأن أرباب الأموال من الجاحدين ينكرون الزكاة ، ويمتنعون عن دفع الزكاة ، ويقرنون هذا الإمتناع بالتعدي على مقام الربوبية ، فيقولون إن الله فقير ، أما المؤمنون الذين ذكرتهم آية السياق فهم يمثلون لأمر الله ، ويقومون بدفع الزكاة وينفقون في حال السعة والضيق ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (١) .

الثالثة : يسمع الله عز وجل الذكر والتسبيح والتهليل من قبل المؤمنين ، وتلاوتهم في صلاتهم اليومية الآيات والسور التي أنزلها الله عز وجل على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وتقدير أول آية البحث : قد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير فسخط عليهم وسمع لهج المؤمنين بالذكر والتسبيح والتهليل ، فيمهل الله عز وجل الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ (٢) وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنَكْبُ﴾ (٣) لبيان مسألة وهي أن إرجاء العذاب والعقاب عن الذين كفروا إنما هو ببركة ذكر المؤمنين لله وامثالهم للأمر الإلهي بدفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٤) فمن معاني الرحمة للناس كافة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمور :

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٤) سورة آل عمران ١٠٧ .

الأول : نزول الأحكام والأوامر والنواهي من عند الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات الأحكام على المسلمين حال نزولها ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

الثالث : تلقي المسلمين آيات الأحكام وآيات التنزيل مطلقاً بالقبول والغبطة والعمل ، ليكون منهاج وعمل المسلمين هو القرآن ، لذا يتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

الرابع : تغشي الآفاق بأصوات المسلمين وهم يتلون آيات القرآن لتغطي البركة أصقاع الأرض ، فيمهل الله الجاحدين والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣).

المسألة السابعة : ذكرت آية السياق قانوناً وهو عدم إطلاع الله الناس على الغيب ولكنه سبحانه يختار رسلاً من بين الناس ، وفيه وجوه :

الأول : إختصاص الله وحده بالعلم بالغيب .

الثاني : تفضل الله عز وجل باختيار أنبياء ورسل من بين البشر وإخبارهم بما يشاء من علوم الغيب .

(١) سورة المائدة ٦٧ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

(٣) سورة الحج ٤٠ .

الثالث : انتفاع أمم وأتباع الأنبياء من علوم الغيب التي يخبر بها الله عز وجل الأنبياء ، قال تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

وهل يمكن الاستدلال بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) على إنحصار الخلافة في الأرض والواردة في قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣) الجواب لا دليل على كفاية هذه الآية للاستدلال بانحصار الخلافة في الأرض بالأنبياء والعلم عند الله .

لأن الله عز وجل يجتبيهم ويختارهم من بين الناس لأموار وأطاف منها:

الأول : تلقي الوحي وتبليغ الرسالات والأحكام .

الثاني : دعوة الناس للإيمان وتوارث سنن التوحيد ، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) .

الثالث : الإطلاع على ما أذن الله به من الغيب ، وهل يخبر الأنبياء أنصارهم بكل ما يخبر به الله من علوم الغيب أم يختصون ببعضه ، المختار هو الأول ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ

(١) سورة هود ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة الأنبياء ٢٥ .

لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

الرابع : عبادة الناس لله والإخلاص في هذه العبادة ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢).

الخامس : البشارة والإنذار ، قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٣).

المسألة الثامنة : لقد ذكرت آية السياق قانون إجتباء الله للرسول ، لبيان مسألة وهي أن اختيار الأنبياء والرسول حكم من عند الله ، ورحمة بالناس ، ولا إختيار لهم فيه ، إنما يصلح الله عز وجل بعض عباده لأسمى مرتبة في الحياة الدنيا ، وابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ (٤).

وهل القول منهم بعد أن نزلت فريضة الزكاة وأخبر الله عز وجل أنه هو الذي يقبض بيده الصدقات ، الجواب نعم ، إذ فرضت الزكاة في السنة الثانية للهجرة ، فهل جاء الرسل السابقون بالأمر بالزكاة ، الجواب فيه وجوه :

الأول : جاء كل نبي وكل رسول بالأمر بالزكاة ، وبين الأنبياء والرسول عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول هو نبي ، وليس العكس .
الثاني : إختصاص الرسل بالمجيئ بالأمر بالزكاة .

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) سورة النحل ٣٦.

(٣) سورة النساء ١٦٥.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

الثالث : جاء بعض الرسل بالأمر بالزكاة دون بعضهم الآخر.

والمختار هو الأول فمن سنن النبوة في الأرض فرض الزكاة ، وفي عيسى عليه السلام وورد في التنزيل ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(١) ، فكل نبي من الأنبياء هو بر بوالديه ، وليس بجبار وذكر عيسى والدته على نحو الحصر لتأكيد ولادته بمعجزة ومن غير أب .

ولم يرد لفظ (والدتي) أو (بوالدتي) في القرآن إلا مرة واحدة في الآية أعلاه ، وفيه دلالة على انفراد عيسى عليه السلام من بين بني آدم بالولادة من غير أب ، وذكرها بهذا الخصوص في القرآن لبيان موضوعية هذه الولادة المعجزة في تعاهد صرح الإيمان في الأرض.

وورد لفظ (شقياً) في القرآن ثلاث مرات كلها في حال نفي للشقاوة عن الأنبياء ، وفي دعائهم للعصمة والسلامة من الشقاوة إذ ورد حكاية عن زكريا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾^(٢) ، وورد بخصوص إبراهيم وإعراضه عن ملة الكفر التي كان عليها قومه ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^(٣) .

كما ورد لفظ (شقي) بصيغة الرفع مرة واحدة بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾^(٤) ، لبيان إخبار آية البحث عن حال

(١) سورة مريم ٣١-٣٢.

(٢) سورة مريم ٤.

(٣) سورة مريم ٤٨.

(٤) سورة هود ١٠٥.

الشقاء والبؤس التي سوف يكون عليها ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ويتجلى البيان في قوله تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٢)، وعن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت {فمنهم شقي وسعيد} قلت: يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ، قال : بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له^(٣).

المسألة التاسعة : من معاني صلة قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي

مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) نزول آية البحث التي تتضمن الإخبار عن سماع الله عز وجل لقول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ لأنه سبحانه ندب أرباب الأموال لإعانة الفقراء والمساكين ، وفيه وجوه :

الأول : دلالة آية البحث بالدلالة التضمنية على فرض الزكاة ، والأمر إلى الناس باعانة الفقراء لأن الله عز وجل ، جعل الزكاة وأحكامها شاهداً على حبه تعالى للأغنياء والفقراء .

الثاني : لولا رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت آية البحث .

الثالث : إختيار وبعث الرسل رحمة للناس ، وتقدير آية السياق : ولكن الله اجتبي من رسله محمداً فانزل عليه القرآن .

(١) سورة الشورى ٧.

(٢) الدر المنثور ٣٤٥/٥.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

ورد قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) في آية السياق^(٢) وهو الأصل الذي ترتكز عليه حياة الناس والعمود الذي تستديم فيه أطناب الحياة الدنيا ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) دعوة آية السياق للناس للإيمان بالله ، وليس لهم التأخير والإبطاء في هذا الإيمان . وتقدير الآية : يا أيها الناس عجلوا بالإيمان بالله أي آمنوا بالله إلهاً وخالقاً ورباً لذا يتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) وهو سور الموجبة الكلية الذي تلتقي فيه أجيال المسلمين المتعاقبة ، ويسلم كل جيل لواء الحمد لله إلى الجيل اللاحق مع التداخل بين الأجيال وإلى يوم القيامة .

صلة آية السياق مع الفاتحة

يمكن الجمع بين آية السياق وكل آية من القرآن ، فمثلاً مع سورة الفاتحة من وجوه :

الأول : ولكن الله اجتبى من رسله محمداً فانزل عليه البسملة ، فان قلت قد نزلت على انبياء من قبل كما في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٥) ولا يضر بمعنى النزول مجيؤها على لسان سليمان لأنه اتخذها قانوناً في فاتحة الخطاب وهداية الملوك خاصة والناس عامة إلى الإيمان وابتدأ آدم كتابة وصيته إلى ذريته بالبسملة .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٤) سورة الفاتحة ٢.

(٥) سورة النمل ٣٠.

(وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن الأشج صاحب كعب الأحمار ، أن ذا القرنين كان رجلاً طوافاً صالحاً ، فلما وقف على جبل آدم الذي هبط عليه ونظر إلى أثره هاله .

فقال له الخضر : - وكان صاحب لوائه الأكبر - ما لك أيها الملك؟ قال : هذا أثر الآدميين . . . أرى موضع الكفين والقدمين وهذه القرحة ، وأرى هذه الأشجار حوله قائمة يابسة يسيل منها ماء أحمر ، إن لها لشأناً . فقال له الخضر : - وكان قد أعطي العلم والفهم - أيها الملك ، ألا ترى الورقة المعلقة من النخلة الكبيرة قال : بلى .

قال : فهي تخبرك بشأن هذا الموضع . - وكان الخضر يقرأ كل كتاب - فقال : أيها الملك ، أرى كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من آدم أبي البشر ، أوصيكم ذريتي وبناتي أن تحذروا عدوي وعدوكم إبليس الذي كان يلين كلامه وفجور أمنيته ، أنزلني من الفردوس إلى تربة الدنيا ، وألقيت على موضعي هذا لا يلتفت إليّ مائتي سنة بخطيئة واحدة ، حتى درست في الأرض وهذا أثري وهذه الأشجار من دموع عيني فعلي في هذه التربة أنزلت التوبة .

فتوبوا من قبل أن تندموا وبادروا من قبل أن يبادر بكم وقدموا من قبل أن يقدم بكم .^(١)

وقيل كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يكتب (باسمك اللهم) إلى أن نزلت ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) وهو لا يتعارض مع نزول سورة الفاتحة في بداية البعثة النبوية في مكة وكون البسملة آية منها .

(١) الدر المنثور ٦/٤٠٢.

(٢) سورة النمل ٣٠.

وبها إبتدأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كتبه إلى ملوك عصره بعد رجوعه من المدينة مثل قيصر وكسرى والنجاشي وإلى المقوقس صاحب الأسكندرية وإلى ملوك عمان وملك البحرين وملك اليمامة بعد فمثلاً أرسل عبد الله بن حذافة (إلى كسرى وبعث معه كتاباً مختوماً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أدعوك بداعية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس).

قال عبد الله بن حذافة فأنتهيت به إلى بابه فطلبت الأذن عليه حتى وصلت إليه فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرئ عليه فأخذه ومزقه فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مزق ملكه (١).

ونزلت الكتب السماوية بالبسملة ، وهو لا يتعارض مع إجتباء واختيار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لنزول آية البسملة الكريمة لذا وردت الآية بصيغة الجمع ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾.

الثاني : ولكن الله اجتبى رسوله محمداً فأنزل عليه آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، ليتلوها كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم على نحو الوجوب العيني عدا قراءتهم لسورة الفاتحة وآيات وسور القرآن الأخرى نافلة في الليل والنهار.

(١) عيون الأثر ٢/٣٢٧.

(٢) سورة الفاتحة ٢.

الثالث : ولكن الله اجتبى رسوله محمداً فانزل آية ﴿الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ﴾^(١).

الرابع : ولكن الله اجتبى من رسله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

فانزل آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢).

الخامس : ولكن الله اجتبى الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

فانزل عليه آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣).

السادس : ولكن الله اجتبى من رسله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

فانزل عليه آية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٤).

السابع : ولكن الله اجتبى من رسله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

فانزل عليه آية ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٥).

وهل نزلت آية الحمد على الرسل السابقين الجواب نعم لأنها شاهد

على الإقرار بالربوبية والمالكية المطلقة لله عز وجل على الخلائق كلها ،

وهو دليل على التسليم بالتوحيد والعدل والإعتراف بالعبودية لله عز وجل

، والأنبياء والرسل أئمة الناس في هذا الإقرار والتسليم ، وآية الحمد نعمة

من عند الله ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٦).

(١) سورة الفاتحة ٣.

(٢) سورة الفاتحة ٤.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

(٥) سورة الفاتحة ٧.

(٦) سورة النساء ٦٩.

المسألة العاشرة : تقدير قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ

يَشَاءُ﴾ على وجوه :

الأول : والله يجتبي من رسله من يشاء لتبليغ الأحكام السماوية ، فلا بد من رسول أو نبي يقوم بتبليغ الناس في كل زمان .

الثاني : والله يجتبي من رسله من يشاء لطرده الغفلة والجهالة عن الناس .

الثالث : والله يجتبي من يشاء من رسله لقوانين خلافة الإنسان في الأرض ، وتفيد (من) التبويض أي اختيار الله رسولاً أو رسلاً متعددين من بين عموم الأنبياء والرسل .

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) إختيار الرسل من عند الله ، لأن كل رسول هو خليفة ، كما ورد في داود قوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢) .

الثالثة : والله يجتبي من رسله من يشاء لفضح المقالات الباطلة ، ومنها ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتَرٌ﴾ .

الرابع : والله يجتبي من رسله من يشاء ، ليكونوا مبشرين ومنذرين .

الخامس : والله يجتبي من رسله من يشاء لتتري عليهم المعجزات .

السادس : والله يجتبي من رسله من يشاء لمنع الفساد في الأرض

وعندما أخبر الله الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) ،

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة ص ٢٥ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

احتجوا وقالوا أن شطراً من الناس يفسدون في الأرض وآخرين يقومون بقتل غيرهم وجرحهم واصابتهم .

وقد يجتمع الفساد والقتل والجرح الوارد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١) في غزو قريش للمسلمين كما في معركة بدر وأحد والخندق ، فكل مرة يهجم فيها المشركون هو فساد في الأرض ، ويقومون بقتل طائفة من المهاجرين والأنصار ، فيتحقق سفك الدماء أيضاً ليكون في ذكر عز وجل لإحتجاج الملائكة في القرآن إنذاراً لعامة الناس وإصلاحهم لأمر :

الأول : إجتنب ارتكاب المعاصي ، إذ أنها من الفساد.

الثاني : الإحتراز من مفاهيم الكفر والشرك والضلالة.

الثالث : مصاحبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرابع : إجتنب مقدمات القتل والمعارك والحروب.

الخامس : التوقي من غلبة النفس الغضبية.

السادس : التفقه في أمور الدين والحياة العامة ، والإمتناع من قصص

الماضين وعامة الناس ، فلا تجلب المعارك إلا الدمار والخسارة وتعطيل

الأعمال ، قال تعالى ﴿كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

السابع : إجتنب الإرهاب والعنف ، والإحتراز من جعله مقدمة ونوع

طريق لتحقيق الغايات.

الثامن : لزوم تسالم الناس على قانون وهو قبح سفك الدماء والقتل.

التاسع : تنمية الخشية من الله في النفوس واستحضار مواطن يوم

القيامة وعرصات الحساب على الفساد والقتل.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة يوسف ١١١.

وليس من معركة اختص فيها القتل بخصوص المهاجرين وحدهم أو الأنصار وحدهم ، وكأنه من رشحات قانون المؤاخاة إذ آخى النبي بين المهاجرين والأنصار بأن تختلط دماؤهم بسبب إصرار مشركي قريش على الهجوم وسل السيوف

وهل كان الملائكة يوم احتجاجهم يعلمون بوقوع معارك الإسلام الأولى ، وهل هي من ضمن موضوع احتجاجهم ، المختار نعم ، فلقد أراد الملائكة تلقي جميع الناس لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول آيات القرآن بالقبول والتصديق ، فأجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) ومن علم الله عز وجل تفضله باجتباء الرسل من بين الناس ، وقيام الرسل السابقين بالبشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليزداد عدد المؤمنين برسائله ويضعف جانب المشركين .

لذا تضمنت آية السياق الأمر بالإيمان بالله ورسله بعد الإخبار عن إختبار الله للرسل بقوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٢) .

وورد لفظ يجتبي في القرآن مرتين والأخرى ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) فأخبرت آية السياق عن إجتباء مركب ، كما ورد لفظ يجتبيك في خطاب إلى يوسف عليه السلام ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة يوسف ٦.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ وهو يشمل النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم والرسل من قبله

ومن إعجاز القرآن أنه يفسر بعضه بعضاً ، لقد أخبرت آية السياق عن إختيار واجتباء الله عز وجل بعض الرسل من بين مجموعهم ، ليكون قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) على وجوه :

الأول : المراد من الإجتباء في آية السياق خصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانه المجتبي .

الثاني : إرادة إختيار عدد من الرسل من بينهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما لو كان المقصود الأنبياء أولي العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : المراد إختيار الرسل من بين الأنبياء وعدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر ، فان قلت قد ذكرت الآية وقوع الإختيار من عموم الرسل لقوله تعالى ﴿يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ﴾ والجواب من وجوه :

الأول : تحتل ﴿من﴾ بيان الجنس مما يدل على إرادة مجموع الرسل ، وتقدير الآية : يجتبي رسله .

الثاني : إفادة (من) التبويض ، ويحتل إختيار عدد من أكبر الأنبياء .

الثالث : التفصيل ووقوع الإجتباء والاختيار المتعدد بلحاظ الزمان أو موضوع الغيب ، وأسرار التنزيل والتأويل .

الرابع : المراد إطلاع الرسل بعلوم من الغيب ، وهم يقومون بنقلها إلى الأنبياء الذين يبعثون على شريعتهم بلحاظ أن الرسول صاحب شريعة مبتدأة في الجملة ، ويكون الأنبياء الذين يأتون بعده على نهجه وشريعته إلى

(١) سورة يوسف ٦.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

أن يبعث الله عز وجل رسولا بشريعة أخرى في طول تلك الشريعة أو ناسخة لها ، قال تعالى ﴿ مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ^(١).

ولا تعارض بين الوجوه أعلاه وكلها من مصاديق آية السياق .

المسألة الحادية عشرة : ولكن الله يجتبي من يشاء فيأمرهم بأمر الناس بدفع الزكاة ، ولا يعلم المسلمون ماذا سيكون الرد من أرباب الأموال ، ولكن المتبادر إلى أذهانهم استجابة الناس للأمر الإلهي ، وإذا بعضهم يقول ﴿ إِنْ أَلَّهَ فَقِيرٌ ﴾ ^(٢) كما في آية البحث ، فهذا القول من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

ولا يعلم المسلمون سوء عاقبة الذين نسبوا إلى الله الفقر إلى أن نزل قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا ذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ وهذه العاقبة من علم الغيب من جهات :

الأولى : الإخبار عن أحوال الناس يوم القيامة ، فاذا كان الذي يمتنع عن الزكاة ويقول ﴿ إِنْ أَلَّهَ فَقِيرٌ ﴾ ^(٣) يلقي عذاب الحريق فمن باب الأولوية شمول العذاب الكافر والذي يحارب النبوة والتزليل يلقي ذات العذاب .

الثانية : تأكيد المعاد ولزوم التصديق به ، فصحيح أن خاتمة الآية تتعلق بعذاب الذين كفروا إلا أنها تدل بالدلالة التضمنية على وجوب الإيمان باليوم الآخر وأنه عالم الحساب والجزاء .

(١) سورة البقرة ١٠٦.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

الثالثة : من علم الغيب الذي أخبرت عنه آية البحث قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ﴾^(١) من جهات :

الأولى : يكتب الله عز وجل الأعمال .

الثانية : يسمع ويرى الله عز وجل ما يقوله ويفعله العباد ، وفي التنزيل ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٢) .

الثالثة : لا يكتب الله عز وجل إلا ما هو حق وصدق ، ولا يحتاج إلى شهود وبينة ، نعم تحضر الجوارح والشهود يوم القيامة ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣) ويكون كلام الجوارح هذا موافقاً لما كتبه الله عز وجل عليهم في الدنيا . فيصييهم الفزع ويملاً صدورهم الخوف والحزن ، بينما ترى المؤمنين قد كتب الله لهم دفع زكاة أموالهم والحقوق الشرعية ، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٤) .

المسألة الثانية عشرة : ورد في آية السياق قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٥) ويحتمل الخطاب في جهته وجوهاً :

الأول : المقصود المؤمنون إذ ذكرتهم الآية في أولها بقوله تعالى ﴿مَا كَانِ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) .

(١) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٢) سورة الحاقة ١٨ .

(٣) سورة يس ٦٥ .

(٤) سورة مريم ٦٢ .

(٥) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٦) سورة آل عمران ١٧٩ .

الثاني : المراد عموم الذين نطقوا بالشهادتين ، وآمنوا ظاهراً بدعوة
ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم المنافقون .
الثالث : إرادة الناس جميعاً .

والمختار هو الأخير لوجوب هذا الإيمان على الناس ذكرهم وأنثاهم ،
برهم وفاجرهم ، وفيه خير ورحمة للناس وهو سبيل لتوالي الرزق الكريم
، والفوز باللبث في دار النعيم .

ويأتي مع الإيمان الإطلاع على علوم من الغيب بواسطة التنزيل ، وما
أوحاه إلى الرسل إذا انقطع هذا الوحي إلا الوحي الذي يأتي إلى النبي
محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو خاتم النبيين .

والوحي للرسل والأنبياء وبما يثبت الإيمان في النفوس ، وبينما ذكرت
آية السياق إجتباء واختيار الله عز وجل لطائفة من الرسل فانه سبحانه دعا
المسلمين والناس للإيمان بالرسول ، وفيه وجوه :

الأول : إرادة الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمجئ
صيغة الجمع ودلالاتها على المفرد للتفخيم والإكرام .

الثاني : المراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه جاء بعلوم من
الغيب في القرآن والسنة .

الثالث : المراد خصوص الرسل أولي العزم وهم :

أولاً : نوح .

ثانياً : إبراهيم .

ثالثاً : موسى .

رابعاً : عيسى .

خامساً : محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتقدير الآية : فأمنوا بالله

ورسله أولي العزم ، قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾^(١) .

الرابع : المقصود خصوص الرسل من بين عموم الأنبياء .

الخامس : المقصود بالآية عموم الأنبياء والرسل .

والمختار هو الأخير أعلاه ، وصحيح هناك فارق رتبي بين الرسول والنبي وأن الرسول أكبر رتبة ودرجة من النبي إلا أنه قد يرد لفظ الرسل ويراد الفرد الجامع للأنبياء ، بلحاظ أن كل نبي مرسل من عند الله ويأتيه الوحي وإن تباينت صيغة الوحي على وجوه :

الأول : مجئ الوحي للنبي بالرؤيا بما يدل على أنه وحي من عند الله عز وجل ، وفي قصة إبراهيم ورد في التنزيل ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(١) .

الثاني : سماع النبي لكلام الملك في حال اليقظة من غير أن يراه .

الثالث : رؤية الرسول للملك وسماع صوته وهو أمر يختص به الرسل من بين عموم الأنبياء ، وتدل آية السياق على وجوب إيمان الناس بالأنبياء جميعاً لصدق نزول الوحي عليهم ، ويصح القول : فأمنوا بالله ورسله والوحي والتنزيل الذي جاءهم من عند الله عز وجل .

ومن الشواهد على صدق نزول القرآن من عند الله عز وجل تضمنه لآيات تدل على وجوب الإيمان بكل الأنبياء ، وصحيح أنه لم يرد في القرآن إلا ذكر أسماء خمسة وعشرين نبياً إلا أنه وردت السنة النبوية بوجوب الإيمان بكل الأنبياء والرسل مع ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعدد منهم .

وعن أبي ذر قلت (يا رسول الله كم الأنبياء؟

قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قال : قلت : يا رسول الله كم

المرسلون منهم؟

قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر وبقيتهم أنبياء قلت : أكان آدم نبياً؟

قال : نعم كلمه الله سبحانه وخلقه بيده،

يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب : هود وصالح وشعيب ونيك. قلت :

يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟

قال : مائة وأربع كتب،

منها على آدم عشر صحف،

وعلى شيث خمسين صحيفة،

وعلى أخنوخ،

وهو إدريس ثلاثين صحيفة،

وهو أول من خط بالقلم،

وعلى إبراهيم عشر صحائف،

والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان. (١).

ومن معاني ودلالات الإيمان بالرسول التسليم بأن الله عز وجل هو

الغني ، فهو الذي بعث الأنبياء والرسول ، ولا يقدر على هذا البعث إلا

الغني ، ويترشح الغنى على الناس من بعثة الأنبياء فهؤلاء الذين ﴿قَالُوا

إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (٢) انما صاروا أغنياء ببعثة الأنبياء وإيمان شطر

من الناس بهم.

المسألة الثالثة عشرة : لقد تضمنت آية السياق الأمر من الله بالإيمان

وعلى نحو الوجوب والنص الجلي ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٣)، وتفيد الفاء في

الآية أعلاه الفورية أي لا بد من الإيمان بالله ، وهل يشمل الخطاب والأمر

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٨٠/١٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

الوارد في المؤمنين أم أنهم خارجون بالتخصيص لأنهم قد سبق منهم الإيمان.

الجواب هو الأول والمطلوب منهم تجديد الإيمان ، ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية تجدد الإيمان خمس مرات في اليوم بأداء الصلاة اليومية ، إذ تبدأ بتكبيرة الإحرام (الله أكبر) ثم تلاوة القرآن والركوع والسجود وما فيه من الخشوع والتطامن والمسكنة.

ومن الثوابت في الإسلام ركنية السجود في الصلاة عدم جواز السجود لغير الله عز وجل ، وعندما آمنت ثقيف سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بين ما سأله أن يعفيهم من الصلاة لما فيها من الضبط والتقييد والسجود ورفع العجيزة فيه فقال لهم قانوناً باقياً الى يوم القيامة (لا خير في دينٍ لا صلاة فيه)^(١) ، ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية سرعة استجابة وفد ثقيف لهذا القانون.

ومن مصاديق الإيمان بالله الذي ورد في آية السياق التسليم بأن الله عز وجل هو الغني الذي لا يحتاج أحداً ، والخلاق كلها محتاجة إليه ، فمن الناس من يكون غنياً ذا مال كثير ، ولكن الناس غير محتاجين إليه وإلى ماله باستثناء حق الله الذي جعله في ماله ، وهذا الإنسان الغني محتاج إلى الله عز وجل في صحته وبقائه على قيد الحياة والحفاظ على ماله ونمائه ، وعدم تعرضه للنقصان أو التلف .

وتدل آية السياق على قانون وهو أن الإيمان بالله عصمة من القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) ومن التفاخر بجمع المال والظن بالملكية المطلقة له ، ومن كان في الدنيا غنياً لأبد وأن يصبح فقيراً محتاجاً إلى رحمة الله ، إذ يغادر الدنيا وليس معه إلا الكفن ، ولا يستطيع التصرف فيه لأنه جثة

(١) مغازي الواقدي ٩٦٨/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

هامدة وعاجز عن الحركة ، ومن الإيمان بالله بلحاظ آية البحث التساوي بين الناس في حال الفقر والفاقة يوم القيامة ، وفيهم من ثقل ميزانه باكتناز الصالحات ، أما الذي ظلم نفسه وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ، فانه يلقي العذاب الأليم.

المسألة الرابعة عشرة : صلة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾^(٢) بآية البحث إذ جاءت آية السياق بصيغة الجهة الشرطية ، وتعقب الأمر بالتقوى الأمر بالإيمان.

ترى لماذا لم تقل الآية (وأن تتقوا وتؤمنوا) الجواب بينهما عموم وخصوص مطلق فالتقوى أخص وهي فرع الإيمان ، وأعلى منه مرتبة ، وكل من هو مؤمن متق وليس العكس ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣) ، لبيان أن الإيمان اعتقاد قلبي وإظهار للشهادتين باللسان ، وأن التقوى تنبسط على أعمال الإنسان في العبادات والمعاملات .

ومن الإيمان والتقوى بلحاظ آية البحث وجوه :

الأول : الإقرار بأن الله عز وجل يسمع كل كلام .

الثاني : الحرص على قول الحق والصدق .

الثالث : المواظبة على تلاوة التنزيل .

الرابع : اتيان الفرائض في أوقاتها .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران ١٠٢.

الخامس : من أظهر معاني التعدي الخشية من الله عز وجل بالغيب ، وهي سور العمل الكلية ، إذ تتعلق بأداء الواجبات وإجتنب النواهي والمحرمات في القول والعمل.

السادس : الحرص على الإبتعاد عن الغفلة ، وعن التهاون في الصغائر من الذنوب بالقول والفعل.

السابع : تعاهد ذكر الله عز وجل.

الثامن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، من أين نتصدق وليس لنا أموال ؟ .

قال : أن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله واستغفر الله ، وتأمّر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوك عن طريق الناس ، والعظم والحجر ، وتهدي الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك في جماعك زوجتك أجر ، قال أبو ذر : كيف يكون لي أجر في شهوتي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت لو كان لك ولد فأدرك فرجوت أجره فمات أكنت تحتسب به ، قلت : نعم . قال : فأنت خلقتة ؟ .

قلت : بل الله خلقه .

قال : فأنت هديته ؟ قلت : بل الله هداه . قال : فأنت كنت ترزقه ، قلت : بل الله كان يرزقه . قال : فكذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه وإن شاء أماته ولك أجر^(١).

التاسع : التفقه في الدين.

وابتدأت آية البحث بذم الذين كفروا والجاحدين والمنافقين في أقوالهم التي هي خلاف الشرع والعقل ، إذ يحكم الشرع ، ويدرك العقل أن الله عز وجل هو الغني لتقوم الحجة في الدنيا والآخرة على الذين كفروا. ومن خصائص يوم القيامة شهادة الأعضاء والجوارح على الإنسان لقوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْجُلُودُ مِنْهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) وتحتمل الشهادة بخصوص العقل جهات:

الأولى : شهادة العقل على الإنسان بما يعتقد به مما يعلنه أو يضمره وموضوعية العقل فيه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال تعالى : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أكبر علي منك ، بك ائيب وبك اعاقب ، وبك آخذ وبك اعطي^(٣).

الثانية : المراد من العقل بخصوص الشهادة هو القلب ، وهو العضو الصنوبري الشكل في الجانب الأيسر من صدر الإنسان ذكراً كان أو أنثى. الثالثة : القدر المتيقن من شهادة الأعضاء هو الحواس والجوارح التي زاولت الأفعال .

والمختار هو الثالثة ، وفيه تخفيف ورحمة للناس في الدنيا والآخرة ، وعدم مؤاخذتهم على ما في القلوب ، إذ يكون الحساب على القول والفعل الصادر من العبد ، وهو من مصاديق سعة رحمة الله عز وجل

(١) سورة فصلت ٢١.

(٢) سورة يس ٦٥.

(٣) البحار ٩٧/١.

بالعباد في الآخرة ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعلموا خيراً : مكتوب بين أعينهم عتقاء الله^(١).

وَعَنْ سَلْمَانَ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، قَالَ: إِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ عَظِيمَتَيْنِ: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَوْ جَعَلَ مِائَةَ رَحْمَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَوَضَعَ بَيْنَهُمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، وَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، قَالَ: فِيهَا يَتَرَأَّحُونَ، وَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَبَاذَلُونَ، وَبِهَا يَتَزَاوَرُونَ، وَبِهَا تَحْنُ النَّاقَةُ، وَبِهَا تُتَبَّجُ الْبَقَرَةُ، وَبِهَا تَنْفُو الشَّاةُ، وَبِهَا تَتَابَعُ الطَّيْرُ، وَبِهَا تَتَابَعُ الْحَيَّاتَانِ فِي الْبَحْرِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، جَمَعَ اللَّهُ تِلْكَ الرَّحْمَةَ إِلَى مَا عِنْدَهُ، وَرَحْمَتُهُ أَفْضَلُ وَأَوْسَعُ^(٢).

ويدل قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ على صدور قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ عن عقل واختيار منهم ، وفيه تمام الحجة عليهم ، وسبحان الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٣).

وتقدير قوله تعالى ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ على وجوه :
الأول : فآمنوا بالله الغني الحميد ، وهذا الإيمان خير رد على الجاحدين.

الثاني : فآمنوا بالله الذي خلقكم وأنشأكم في الأرض .

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٩٦ .

(٣) سورة غافر ١٩ .

الثالث : فآمنوا بالله رب العالمين الذي آمنت به الملائكة والخلائق كلها.

الرابع : فآمنوا بالله ففي هذا الإيمان نجاتكم ، ونفعكم في الدنيا والآخرة .

الخامس : فآمنوا بالله وهو الإله في الأرض ، والإله في السموات

سبحانه لا إله إلا هو سبحانه في الدنيا والآخرة ، وفي التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي

فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

السادس : فآمنوا بالله لأن الإيمان به واجب وجوباً عينياً على كل

مكلف .

السابع : فآمنوا بالله الرؤوف الرحيم .

الثامن : آمنوا بالله الذي بعث النبيين مبشرين ومنذرين .

التاسع : فآمنوا بالله الذي بعث النبي محمداً خاتم النبيين ، وعن

عرباض بن سارية قال سمعت رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

"إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طَيْتِهِ،

وَسَأَخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَارَةُ عِيسَى بِي، وَالرُّؤْيَا الَّتِي

رَأَتْ أُمِّي، وَكَذَلِكَ أُمّهَاتُ النَّبِيِّينَ، يَرِينَ أَنَّهَا رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَنِي أَنَّهُ خَرَجَ

مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ" (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ) ^(٢) يقول: فلما

جاءهم أحمد بالبينات، وهي الدلالات التي آتاه الله حججاً على نبوته

(قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) يقول : ما أتى به غير أنني ساحر^(٣).

العاشر : فآمنوا بالله الذي أنزل القرآن .

الحادي عشر : فآمنوا بالله الذي له ملك السموات والأرض .

الثاني عشر : فآمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى .

(١) سورة الزخرف ٨٤.

(٢) سورة الصف ٦.

(٣) تفسير الطبري ٣٥٩/٢٣.

الثالث عشر : فآمنوا بالله الذي أحياكم ويرزقكم ويميتكم لتقفوا بين يديه للحساب.

الرابع عشر : فآمنوا بالله عالم الغيب الذي لا يحيط بالغيب غيره سبحانه .

الخامس عشر : فآمنوا بالله الذي يسمع كل قول .

السادس عشر : فآمنوا بالله ولا تشركوا به شيئاً .

السابع عشر : فآمنوا بالله وأقيموا الصلاة واتوا الزكاة .

الثامن عشر : فآمنوا بالله واثبتوا على الإيمان .

التاسع عشر : فآمنوا بالله وأتوا ما أمر به واجتنبوا ما نهى عنه .

العشرون : فآمنوا بالله الذي له ميراث السموات والأرض .

الحادي والعشرون : فآمنوا بالله الذي بما تعملون خبير .

الثاني والعشرون : فآمنوا بالله الذي خلق الجنة لعباده الصالحين ،

وخلق النار للذين كفروا ومنهم الذين ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ فَاقِرٌ وَخَشِيَ أُغْنِيَاءُ﴾ .

الثالث والعشرون : فآمنوا بالله الذي يضاعف للمحسنين الأجر والثواب في الدنيا والآخرة .

الرابع والعشرون : فآمنوا بالله الذي يتوكل المؤمنون ، وفي

التنزيل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الخامس والعشرون : فآمنوا بالله الذي أكرمكم وجعلكم خلفاء

الأرض ، وفي التنزيل ﴿أَمْنِ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

(١) سورة التوبة ٥١.

(٢) سورة النمل ٦٢.

السادس والعشرون : فآمنوا بالله الذي يرزقكم من السماء والأرض .
السابع والعشرون : فآمنوا بالله ربكم ورب الخلائق كلها ، ومن سنن
 الكمال في شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تلاوة كل مسلم
 ومسلمة قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) سبع عشرة في اليوم ،
 ولهذا التلاوة موضوعية في استدامة الإيمان في الأرض إلى يوم القيامة .
الثامن والعشرون : فآمنوا بالله الذي اليه مرجعكم ، قال تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٢) .

التاسع والعشرون : فآمنوا بالله ربكم ورب آبائكم الأولين .
الثلاثون : فآمنوا بالله وأصبروا فان الإيمان يتقوم بالصبر ، وعن
 الإمام علي عليه السلام قال (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ،
 إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له .) ^(٣) .
الحادي والثلاثون : فآمنوا بالله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، لبيان
 مسألة وهي حاجة كل إنسان لاستدامة إيمانه ، وتقدير الآية على وجوه :
أولاً : آمنوا بالله واثبتوا على الإيمان .
ثانياً : فآمنوا بالله ولا ترتدوا عن دينكم .
ثالثاً : فآمنوا بالله واصبروا على أذى المشركين .
الثاني والثلاثون : فآمنوا بالله وادعوا إليه سبحانه ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
 الْحَسَنَةِ ﴾ ^(٤) .

الثالث والثلاثون : فآمنوا بالله ودافعوا عن بيضة الإسلام .

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة البقرة ٢٤٥.

(٣) الدر المنثور ١/١٠٧.

(٤) سورة النحل ١٢٥.

الرابع والثلاثون : فآمنوا بالله الذي ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعْدَهُ أَمَّ الْكِتَابِ﴾^(١).

الخامس والثلاثون : فآمنوا بالله الذي جعل يوم القيامة مناسبة لجزاء الناس على أفعالهم في الدنيا .

السادس والثلاثون : فآمنوا بالله الذي يقبل شفاعة الرسل .

السابع والثلاثون : فآمنوا بالله الذي أنزل القرآن على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَأَبَا مَسْحَاهَا مَائِنِي تَقْشَعْرُمْنُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾^(٢).

الثامن والثلاثون : فآمنوا بالله الذي أنزل ألف ملك لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار في معركة بدر واخبر عن هذا المدد بآية قرآنية ليزداد المسلمون إيماناً ، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٣) وفي قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ دعوة للمسلمين والمسلمات للإستغاثة بالله عز وجل عند الملمات وطرو الشدة والبأساء .

لقد أمر الله عز وجل الناس جميعاً بالإيمان به إلهاً وخالقاً ورباً ، فتلقى شطر من الناس هذا الأمر بالإمتثال فنالوا مرتبة الإيمان ، وتزينوا في النشاطين بصفة المؤمنين ، وامتنع شطر من الناس عن القبول والإمتثال ، فنالوا صفة القبيح إذ سماهم الله بأسماء وهي :

الأول : الذين كفروا .

(١) سورة الرعد ٣٩ .

(٢) سورة الزمر ٢٣ .

(٣) سورة الأنفال ٩ .

الثاني : الكافرون .

الثالث : المنافقون والذين نافقوا ، وهم الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

الرابع : الفاسقون .

الخامس : الظالمون ، وإن كانت النسبة بين الظلم والكفر هي العموم والخصوص المطلق ، فكل كافر هو ظالم ، وليس العكس ، ويدل قوله تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) على أن الكفر أشد مراتب الظلم قبلاً .

السادس : المعتدون ، قال تعالى في ذم الكافرين ﴿لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَادَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾^(٢) ولم يرد لفظ ﴿الْمُعْتَدُونَ﴾ في القرآن بصيغة الرفع إلا في الآية أعلاه .
فذكرت آية البحث صفحة من الكفر المقيت يخص الذين تلقوا الأمر بالزكاة والخمس بالإمتناع .

ومن صفات الله ﴿اللطيف﴾ فتفضل وأخبر الناس بانه هو الذي يقبض الصدقات لترغيب الناس بأداء الزكاة الواجبة والخمس والصدقة المستحبة ، ولكن طائفة من الجاحدين والكافرين أمتنعوا عن دفع الحقوق الشرعية ، كما أخبرت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣) وأخبر الله عز وجل بأنهم سيطوقون يوم القيامة وهم في النار بالمال الذي بخلوه .

(١) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٢) سورة التوبة ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

ونزلت آية البحث بالإخبار عن قول رهط من الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
وَحَنُوءٌ﴾ وأخبرت الآية عن نوع العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة
وهو دخولهم النار ، وذوقهم لعذاب الحريق .

والمختار أن النسبة بين الذين ذكرتهم الآية السابقة وآية البحث العموم
والخصوص المطلق ، فالذين ذكرتهم آية البحث امتنعوا عن دفع الزكاة
والحقوق الشرعية ، ولم يكتفوا بهذا الإمتناع إنما جادلوا بمغالطة إذ قالوا
كيف يطلب منا الله أن نقرضه قرضاً إذن هو فقير محتاج ، فغضب الله عز
وجل من هذا القول وأنزل آية البحث .

وتحتمل عقوبة هؤلاء في الآخرة وجوهاً :

الأول : خصوص العذاب الذي ذكرته آية البحث في خاتمتها بقوله
تعالى ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

الثاني : تطويق أعناق الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ يوم القيامة بشعابين
وهو موضوع الآية السابقة .

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (ما من ذي رحم
يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم
القيامة شجاع أقرع من الناس يتلمظ حتى يتوقه)^(١) .

الثالث : العقاب الجامع لما ورد في الآية السابقة وآية البحث بخصوص
الذين يبخلون بالحقوق الشرعية ، وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُوءٌ﴾ .
فالتطويق بشجاع على البخل بالزكاة والإمتناع عن دفع الحقوق
الشرعية ، وعذاب الحريق على القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ أي أن الذي يمتنع

عن دفع الحقوق يكون عذابه أقل شدة من عذاب الذي يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ .

ويحتمل أوان تطويق الذين ييخلون بالحقوق الشرعية بالأفاعي في أعناقهم وجوهاً :

الأول : في عالم البرزخ .

الثاني : خصوص الحساب الابتدائي في عالم البرزخ عندما يأتي منكر ونكير للميت (وأخرج الطبراني وابن منده ، عن أبي أمامة ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا مات أحد من اخوانكم فسويتم التراب عليه ، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل : يا فلان ، ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولا يجيب ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يستوي قاعداً ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : ارشدنا رحمك الله ، ولكن لا يشعرون .

فليقل : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ، وبالقرآن إماماً . فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول : انطلق بنا ما يقعدنا عند من لقن حجته ، فيكون حجيجه دونهما .

قال رجل : يا رسول الله ، فإن لم يعرف أمه قال : ينسبه إلى حواء ، يا فلان ابن حواء^(١) .

الثالث : حال البعث من القبور .

الرابع : في بعض مواطن يوم القيامة .

الخامس : في جميع مواطن يوم القيامة .

السادس : عند دخول الكافر النار ، وهو على جهات :

الأولى : عند السوق إلى النار ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾^(١) .

الثانية : في بدايات الدخول إلى النار .

الثالثة : حال دخول النار وقيل (أنه طوق من نار)^(٢) .

الرابعة : بقاء واستدامة تطويق الممتنعين عن دفع الزكاة بالأفاعي ما داموا في النار .

أن تقييد الآية السابقة أو أن التطويق بأنه يوم القيامة يخرج الوجه الأول والثاني اعلاه .

والمختار أن التطويق بشجاع في بعض مواطن يوم القيامة وفي النار ، مع التباين في درجة الضرر منه ، ففي النار يلدغ الشجاع رأس الذي يخل في زكاته ، وقال (إن الله فقير وأنا غني) .

ومن معاني الجمع بين الآيتين ما يترتب على هذا القول من العقوبة الشديدة ، وبعث النفرة في النفوس من الإمتناع عن دفع الزكاة ، إذ يدرك صاحب المال أن حبس الزكاة يكلفه العذاب الأليم ، بالإضافة إلى مجي الآيات بنماء المال الذي تخرج منه زكاته وخمسه ، وأخبرت الآية السابقة عائدة ما في السموات والأرض كله لله عز وجل بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) .

(١) سورة الزمر ٧١ .

(٢) النكت والعيون ٢٦٥/١ .

(٣) سورة الزمر ٧١ .

وأخبر القرآن عن ميراث المؤمنين للجنة كما في قوله تعالى ﴿أَنْ تُلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وهو لا يتعارض مع ميراث الله للسموات والأرض الذي ذكرته الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣).

ويرث المؤمنون الجنة بفضل وإنعام من عند الله تعالى ، ومن معاني ميراثهم الجنة أي استيلاؤهم وميراثهم لما كان مخصصاً من منازل لأهل النار في الجنة ولكنهم حرموا أنفسهم منها .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله { وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون }^(٤).

وهل يختص هذا الميراث بخصوص انقطاع الحياة الدنيا الجواب إنما يشمل كل أيام الدنيا كلها ، ففي كل يوم هناك ميراث لله عز وجل وذات اليوم من ميراث الله إذ يحل على الأرض مرة واحدة ثم لا يعود إلى يوم القيامة إذ يأتي كفرد مستقل من أفراد الزمان ليشهد على أهله الذين كانوا

(١) سورة الأعراف ٤٣.

(٢) سورة الزخرف ٧٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) الدر المنثور ١١٠/٩.

على الأرض من طلوع الفجر إلى مغيب الشمس ، كما تأتي ليلته لتشهد على الناس ، لذا يستحب الإجهاد في العبادة سرّاً وعلانية ، وفي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (قال مقاتل والكلبي : نزلت هذه الآية في شأن علي بن أبي طالب ، كانت له أربعة دراهم لم يملك غيرها ، فلما نزل التحريض على الصدقة تصدق بدرهم بالليل ، وبدرهم بالنهار ، وبدرهم في السر ، وبدرهم في العلانية) ^(١) ، ومن أسمائه تعالى ﴿الوارث﴾ .

وهو لا يتعارض مع وصف المؤمنين بأنهم الوارثون للجنان كما في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ^(٢) فهم يرثون خصوص الفردوس لأنه تعالى هو وارثها والذي يورثها المؤمنون الذين يعملون الصالحات .
المسألة الخامسة عشرة : لقد أختتمت آية السياق بقانون ورد بصيغة الجملة الشرطية ﴿وَإِنْ تُمْنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٣) ومن التقوى بلحاظ آية البحث وجوه:

الأول : التصديق بنزول آية البحث من عند الله عز وجل .

الثاني : تلاوة آية البحث .

الثالث : إنكار قول الذين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الرابع : المبادرة إلى إخراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله فمن المقاصد السامية من نزول آية البحث ندب المسلمين إلى إخراج الحقوق الشرعية ، ومن التقوى عدم إرجاء دفعها أو حبسها .

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٢٢٧/١ .

(٢) سورة المؤمنون ١٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٩ .

الخامس : القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب الزكاة
ودفع الحقوق الشرعية .

السادس : المناجاة باخراج الزكاة .

لقد ذكرت آية البحث كتابة الله عز وجل لقول الذين كفروا ﴿إِنَّ

اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وهو سبحانه الذي يكتب طاعة المؤمنين لله عز وجل باقامة الصلاة
ودفع الزكاة وهم يقرون بأن الله عز وجل هو الغني الذي يرزق بغير
حساب وأمتحن طائفة من الناس بكثرة الأموال وتعلق الزكاة بها فدفعها
المؤمنون ، وهذا الدفع من التقوى التي ذكرتها آية البحث ، وفي التنزيل
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(١) ، ومن
التقوى والزهد أداء الفرائض العبادية والتوجه إلى الله بالدعاء وسؤال
النجاة من عذاب الحريق الذي تختتم به آية البحث .

ومن منافع هذا الدعاء الهداية والتوفيق لأداء الزكاة والخمس
والحقوق الشرعية .

المسألة السادسة عشرة : من معاني الجمع بين خاتمتي الآيتين التضاد
بين أجر وثواب المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وعذاب الذين امتنعوا
عن دفع الحقوق الشرعية يوم القيامة .

ومن الإعجاز في المقام مجئ خاتمة آية السياق بالأجر والثواب مطلقة
لكل من آمن واتقى ، وفيها ندب للناس للتحلي بالتقوى وإخلاص العبادة
، وتقدير خاتمة آية السياق : يا أيها الناس ان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر
عظيم .

وهل يشمل هذا النداء الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ أم أنهم
خارجون عنه بالتخصيص لتلبسهم بالكفر والتعدي على مقام الربوبية ،

الجواب هو الأول ، وهو من أسرار فتح باب التوبة للناس جميعاً ، فمن دلائل آية البحث دعوة الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ للتدرك بدفع الزكاة والإستغفار والإقرار بالعبودية لله عز وجل وأنه سبحانه هو الغني ، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ غَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١)(٢).

ومن اللطف الإلهي مجئ آية السياق بالوعد الكريم بالثواب والأجر وبصيغة الخطاب ، بينما جاءت آية البحث بصيغة الغائب ولغة الذم والوعيد ، وفيه دعوة للمسلمين لأداء الزكاة والتصرف والإنفاق في سبيل الله ، وزجر عامة الناس عن الظلم والتعدي على مقام الربوبية وعلى النبوة والتنزيل .

ويمكن انشاء قانون وهو : الآية القرآنية إصلاح للمجتمعات ، ومن معاني الجمع بين خاتمتي الآيتين بيان قانون وهو : أن المعاد حق وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الله يبعث من في القبور للحساب ، فليس من فرصة أخرى للعمل بعد الموت ، وفي التنزيل ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣).

المسألة السابعة عشرة : من معاني الجمع بين الآيتين توجيه البشارة والإنذار إلى الذين امتنعوا عن دفع الزكاة مع تعليق البشارة ، فان تابوا إلى الله عز وجل وأخرجوا زكاة أموالهم فلهم أجر عظيم .

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) أنظر الجزء الرابع والتسعين من هذا التفسير .

(٣) سورة المؤمنون ٩٩-١٠٠.

وإن أصرروا على الإمتناع عن دفعها ، وعلى الجحود والصدود فإن عذاب النار ينتظرهم في الآخرة ، وفي هذا البلاغ والإنذار لطف ورحمة من الله عز وجل بالناس جميعاً ، وبيان لقانون وهو هداية الإنسان إلى الإيمان خير من بقاءه على الكفر والضلالة ، وأن الله عز وجل هو الكريم الذي أنزل القرآن رافة بالناس ويمكن انشاء قانون وهو من وجهين :

الأول : قانون كل آية من القرآن تقرب العباد إلى اللبث الدائم في النعيم ، وهو من عمومات ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

الثاني : قانون كل آية قرآنية تبعد الناس عن دخول النار . وهو من أسرار بقاء القرآن سالماً من التحريف والتبديل والتغيير إلى يوم القيامة ، لتكون هذه السلامة وتعاهدها من مصاديق الصراط في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

فان قلت قد جاءت آيات في ذم الذين كفروا والإخبار عن ارتكاب معصية كبيرة في الزمن السابق كما في قوله تعالى في آية البحث ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾^(٣) الجواب نعم لما فيها من الزجر عن قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن التعدي عليه ، وسيأتي مزيد كلام في باب التفسير .

المسألة الثامنة عشرة : ورد في آية السياق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) إذ يتوجه هذا الخطاب إلى الناس جميعاً السيد

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨٢.

(٤) سورة آل عمران ١٧٩.

والعبد ، والأب والابن ، والغني والفقير ، ومن تقوى الأغنياء دفع الزكاة واخراج حق الله الذي جعله في أموالهم ، وتقدير الآية على وجوه :
الأول : الخطاب للمذكر المفرد : يا أيها الرجل إن تؤمن وتتق الله فلك أجر عظيم .

الثاني : يا أيها الرجل إن تؤمن وتتق الله فلوالديك وذويك نفع عظيم .
الثالث : الخطاب للمؤمنة المفردة : يا أيتها المرأة إن آمنت واطقت الله فلك أجر عظيم .

ليبان نكتة عقائدية من فضل الله وهي أن الآية وردت بصيغة الجمع في الخطاب بواو الجماعة في قوله تعالى ﴿تُؤْمِنُوا﴾ و﴿تَتَّقُوا﴾ ويقابلها الأجر العظيم ، ولكنه لا يختص بالجماعة ، بل كل فرد من الناس إن آمن وأتقى يأتيه أجر عظيم ، فالنداء عام أما الأجر وعظمته وكثرته فهو خاص لكل فرد من غير أن ينقص من أجر الآخرين .

وهو من الشواهد على أن الله عز وجل هو الغني الذي لا تنفذ خزائنه ، وهل هناك أجر عظيم يشترك به المؤمنون كافة إلى جانب الأجر العظيم لكل منهم ، الجواب نعم ، ومنه في الدنيا صلح الحديبية ، ووقف القتال بين المسلمين والمشركين ، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١) فوصف الله عز وجل الفتح بأنه عظيم ووصف الأجر بأنه عظيم .

وصحيح أن الآية وردت بصيغة جمع المذكر بلحاظ واو الجماعة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾^(٢) إلا أنها شاملة للرجال والنساء ، إنما ورد التذكير للفرد الغالب ، كما يقال القمران والمراد الشمس والقمر مع أن القمر يقتبس نوره من الشمس .

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

الرابع : الخطاب للمثنى المذكور ، إن تؤمنا وتتقيا فلكل واحد منكما أجر عظيم .

الخامس : الخطاب للمثنى الجامع لفرد مذكر وآخر مؤنث إن تؤمنا وتتقيا فلكما أجر عظيم ، ويشمل هذا المعنى الزوجين ، وبعثهما على الأمر بالإيمان والنهي عن الكفر فيما بينهما ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَعَاوُزُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١).

وهو من أسرار خلق حواء واقامتها مع آدم في الجنة واختلاطها مع الملائكة ، فلم ينحصر هذا الاختلاط بآدم عليه السلام وحده ، إنما كانت حواء تتحدث مع الملائكة وتسمع وتتعلم منهم ، ومن أسرار الزوجية إصلاح النفوس لسبل الهداية والتعاون بين الزوجين لتربية الأبناء ونشأتهم على سنن الإيمان والصلاح.

السادس : توجه الخطاب إلى المثنى المؤنثة وإن تؤمنا وتتقيا فلكما أجر عظيم .

السابع : الخطاب لجمع المذكر السالم ، كما في نص الآية القرآنية ﴿وَإِنْ تَوَافَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

ومن خصائص هذه الصيغة بعث الناس مجتمعين ومتفرقين للتعاون في سبل الخير والرشاد ، والمناجاة بفعل الصالحات وندب كل إنسان إلى الإيمان والخوف والخشية من الله عز وجل ، فما أن يؤمن الإنسان بالله والنبوة حتى يأتيه الأمر بالتقوى لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَافَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) فليس ثمة مدة وفترة بين الإيمان والتقوى ، إنما هما متلازمان بلحاظ الجمع بين

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

الإعتقاد والحق وبين أداء الواجبات العبادية ، وهذه الملازمة حاجة للإنسان في دنياه وآخرته.

الثامن : توجه الخطاب في الآية إلى جماعة الأناث ، وتقدير الآية : وإن تؤمن وتتقين فلكن أجر عظيم .

ومن خصائص الخطاب القرآني صيغة العموم العرضي والطولي ، أما العرضي فهو إرادة الناس جميعاً أيام التنزيل إلا ما ورد فيه التخصيص في الخطاب ، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي ورد في القرآن تسعاً وسبعين مرة فان خاص للمسلمين في لغة النداء وعام للناس جميعاً في الدعوة ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) .

ليكون من معاني نداء الإيمان أعلاه أنه بشارة للمؤمنين وإنذار للذين يتخلفون عن الإيمان .

فمن إعجاز القرآن أن يكون ذات النداء والخطاب القرآني بشارة وإنذاراً ودعوة للصالح ، وهل له موضوعية في آية البحث ، الجواب نعم ، فمن علامات الإيمان تلقي الأوامر الإلهية بالقبول ، ومنها أداء الصلاة ودفع الزكاة.

عن ابن عباس (قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال مرحبا بالوفد ليس بالخزايا ولا النادمين قالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركين وإنما لا نصلي إليك إلا في أشهر الحرم فحدثنا بأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا به من وراءنا قال أمركم بثلاث وأنهاكم عن أربع أمركم بالإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان بالله قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

وأن تعطوا من المغنم الخمس وأنهاكم عن أربع عما ينبذ في الدباء والنكير والخنتم والمزفت) ^(١).

وهل قامت النسوة في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإنفاق في سبيل الله ، ودفع الزكاة ، الجواب نعم ، وأول من أنفق في سبيل الله امرأة ، هي خديجة أم المؤمنين ، وهو من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أسلمت في ذات اليوم الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكانت ذات مال وتضارب به في التجارة مع الشام ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَا يَلَاكُ قَرْشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشَّاءِ وَالصِّيفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ^(٢). وقد تجلّى في انفاق خديجة أموالها التي جمعتها من التجارة في سبيل الله ليكون مصداقاً لقوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ^(٣) لتجمع خديجة الإيمان والصلاة بامامة النبي ومعها الإمام علي عليه السلام وذات الصلاة من مصاديق الإيمان ، وبانفاقها أموالها في سبيل الله ، حتى إذا فرضت قريش على بني هاشم الحصار في شعب بني هاشم لم يكن عند خديجة ما تتزود به لمؤونة يومها فانعم الله عز وجل عليها وعلى بني هاشم بأن صارت سبب فك الحصار إذ جاء ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد ومعه طعام يريد بها ، وهي بالشعب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلقيه أبو جهل فتعلق به (وقال : والله لا نبرح حتى افضحك) ^(٤).

(١) السنن الكبرى للنسائي ٢٣٥/٣.

(٢) سورة قريش ١-٣.

(٣) سورة قريش ١-٣.

(٤) الكامل في التاريخ ١٦٩/١ .

أي أنه كسر حصار قريش على بني هاشم ، أما حكيم فيظن أنه لم يكسر الحصار لأن عمته ليست من بني هاشم ، وهو لم يأخذ ويسوق لهم طعاماً كثيراً .

فجاء أبو البختری بن هشام وطلب من أبي جهل أن يخلي سبيله ولكن أبا جهل أبى ونال من ابن البختری الذي أخذ لحم عجل فضرب به أبا جهل فشجه ثم وطأه وكان حمزة ينظر إليهم ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مدة الحصار في شعب بني هاشم ، والذي يعد بضع مئات الأمتار من المسجد الحرام من الجهة الشرقية ما بين الصفا والمروة ، ويقع في مدخله البيت الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو معروف لدى المؤرخين من أيام مؤرخي مكة كابن إسحق ، والأزرقي ، والفاشي ، والغازي ، والكردي ، وابن فهد .

وإلى يومنا هذا إذ انشئت عليه مكتبة مكة العامة ، وكان هذا البيت وما حوله ملكاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبني هاشم ، وبعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي وحمزة استولى عقيل بن أبي طالب عليه وبقي في يده ، وقيل باعه إلى أن اشتراه محمد بن يوسف الثقفي وأدخله في داره المعروفة باسم (دار ابن يوسف) فلما قدمت الخيزران أم موسى وهارون الرشيد زوجة الخليفة العباسي المهدي الذي قام بتوسعة المسجد الحرام فاشتريت الخيزران هذه الدار سنة ١٧١ هجرية وجعلته مسجداً يصلي الناس فيه .

وقال الطبري (٢٢٤-٣٢٠) هجرية (حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال يزعمون فيما يتحدث الناس والله أعلم ان أمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تحدث أنها أتيت لما حملت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل لها انك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع بالارض فقولني :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام فلما وضعتة أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه وقد ولد لك غلام فأتته فانظر إليه فأتاه فنظر إليه وحدثه بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه^(١) ويدل الحديث على أن آمنة أم النبي من الموحدين .

وظل الخلفاء والولاة والحكام يتعاهدون هذا المسجد ، ويقومون بترميمه إلى أن صار آيلاً إلى السقوط في بدايات القرن العشرين ، فتم تحويله إلى مكتبة عامة .

وقال ابن جبير في رحلته الأولى (٥٧٩-٥٨١) هجرية فمن مشاهدها أي مشاهد مكة (التي عاينها قبة الوحي، وهي في دار خديجة أم المؤمنين، وبها كان ابتناء النبي، صلى الله عليه وسلم الله عليه وآله وسلم، بها، وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، وفيها أيضاً ولدت سيدي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين، رضي الله عنهما، وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها. ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر، بني عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به. والموضع المقدس الذي سقط فيه، صلى الله عليه وآله وسلم، ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين محفوف بالفضة. فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ومولد خير الأنام، صلى الله عليه وسلم الله عليه وعلى آله وأهله وأصحابه الكرام وسلم تسليماً. يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي، صلى الله عليه وسلم الله عليه

وسلم، وفي اليوم المذكور ولد، صلى الله عليه وآله ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها. وهو يوم مشهود بمكة دائماً).^(١)

وسبب رحلة ابن جبير من غرناطة أن أميرها ابا سعيد بن عبد المؤمن أمير الموحدين استدعاه ليكتب له كتاباً وهو على شرايه المسكر فناوله قدحاً من النبيذ فأبى ابن جبير تناوله من يد الأمير ، ولكن الأمير أقسم عليه يميناً مغلظة ليشربن من النبيذ سبعة أقداح فشربها صاغراً خائفاً على نفسه من السجن أو القتل عندئذ رد له أبو سعيد سبعة أقداح مملوءة بالدنانير الذهبية فتحققت الإستطاعة عند ابن جبير لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢) وأراد أن يكفر عن خطيئته ، فخرج من غرناطة قاصداً الحج يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ ومعه صديقه أحمد بن حسان لأداء فريضة الحج.

كما قامت بعض الأنصاريات بدفع الزكاة وتصدقن بأموالهن وحليهن قربة إلى الله (عن جابر قال شهدت الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم عيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة فلما قضى الصلاة قام فتوكأ على بلال فحمد الله وأثنى عليه فوعظ الناس وذكرهم وحثهم على طاعته ومضى إلى النساء ومعه بلال فأمرهن بتقوى الله ووعظهن وذكرهن وحمد الله وأثنى عليه ثم حثهن على طاعته ثم قال تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم فقالت امرأة من سفلة الناس سفعاء الخدين بم يا رسول الله قال بكثرتكن الشكاة وتكفرن العشير فجعلن يتتزعن حليهن قلائدهن وأقراطهن أو خواتيمهن يقذفنه في ثوب بلال يتصدقن به)^(٣).

(١) رحلة ابن جبير ٣٤/١.

(٢) سورة آل عمران ٧٩.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٤٥١/٣.

المسألة التاسعة عشرة : صلة ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا﴾ بآية البحث .

تقدير الجمع بين الآيتين : وان تؤمنوا ان الله سمع ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) فمن مصاديق الإيمان التسليم بنزول كل آية
قرآنية من عند الله عز وجل ، فهو سبحانه يسمع كلام الناس ، وينزل إليهم
كلامه ، ما أعظمها من صلة وأسباب لرحمة الخالق للمخلوقين ، والأصل
أن يسمع الله تسييح وتهليل الناس لله عز وجل ، وتلاوة كلامه الذي أنزله
، قال تعالى ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٢).

وجاءت نصوص كثيرة في فضل تلاوة القرآن ، والنفع العظيم فيها
ومنها ، لقد أحب الله عز وجل الناس فانزل كلامه ليبقى بين ظهرانيهم إلى
يوم القيامة ، وكل آية منه تندبهم إلى طاعة الله ، وتهديهم إلى الصراط
المستقيم ، وهي برزخ دون المعصية والفسوق .

لذا فمن إعجاز آية البحث إبتداؤها بذكر الله عز وجل وسماعه
لأقوال الناس ، فلم تبدأ بقول الجاحدين إنما بدأت بسماع الله عز وجل له
، وفيه مسائل :

الأولى : تجديد المسلمين إيمانهم بتلاوة آية البحث .

الثانية : تذكير الناس بوجوب ذكر الله عز وجل .

الثالثة : الإخبار بأن الله عز وجل قريب يسمع كلام الناس ، وفي

التنزيل ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ أَوْ أَرْبَاعَةٍ إِلَّا هُمْ سَادِسُهُمْ وَلَا

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

الرابعة : بعث الفزع والخوف في قلوب الكافرين ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ (٢) . فلا يختص موضوع الآية أعلاه بحال الحرب والقتال ، إنما يكون الرعب ملازماً للكفر والجحود ومنه الإمتناع عن دفاع الزكاة ، وقول الجاحد ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ف سبحانه الله الذي يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا ، وفيه دلالة على أن الله غني ليس بفقر .

الخامسة : ابتداء الآية بذكر الله مانع من افتتان الناس بقول الجاحدين إن الله فقير .

المسألة العشرون : صلة (وتتقوا) بآية البحث :

يبعث أول آية البحث على الخشية من الله عز وجل لأنها تخبر عن سماع الله عز وجل لكلام البشر ، وفيها دعوة ليحرص الإنسان على التلطف بما يرضي الله عز وجل ، وإجتنب ما يسخطه ، ومن مفاهيم الآية أن الله عز وجل يسمع تلاوة المسلمين القرآن في الصلاة . وتحتمل هذه التلاوة وجوهاً :

الأول : إنه من الإسلام لأداء كل مسلم ومسلمة الصلاة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (٣) .

الثاني : إنه من الإيمان في قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَمَّنَا﴾ .

(١) سورة المجادلة ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

(٣) سورة النساء ١٠٣.

الثالث : انه من التقوى التي وردت بقوله تعالى ﴿وَتَقُوا﴾.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، والتلاوة سور الموجبة الكلية الشامل
لخصال الإيمان ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ بتلاوة
آيات القرآن ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال تعالى ﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(١) ليكون الأجر العظيم بترتيل القرآن
(عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : يقال
لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن
منزلتك عند آخر آية تقرؤها)^(٢).

المسألة الحادية والعشرون : من التقوى إنكار قول الذي قال ﴿إِنْ
اللَّهُ فَقِيرٌ﴾.

وتقدير الآية : أيها الذين آمنوا ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) فلا تجعلوا أصحابه بطانة ووليجة لكم ، ليكون من
معاني ودلالات آية البحث إرادة الذين كفروا بقولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا
تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤) الإضرار
بالمؤمنين ، وبعث الشك في نفوسهم وترغيبهم بالإرتداد أنهم يدعون الغنى
مع كفرهم ، وفيه دعوة إلى النبذ العام والتلقائي لمفاهيم الشرك والضلالة ،

(١) سورة المزمل ٤.

(٢) الدر المنثور ١٠/١٢٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١١٨.

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾^(١).

المسألة الثانية والعشرون : ذكرت آية البحث قتل الأنبياء من قبل طائفة من الناس ، ومن التقوى الذب والدفاع عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وحضر في بيعة العقبة الثانية وفد من الأنصار مع مصعب بن عمير إلى مكة لأداء مناسك الحج ، وكان معهم في الحج مشركون من قومهم من الأوس والخزرج .

فكان الأنصار يحرصون على اللقاء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سرّاً وخفية عن قومهم وعن رؤساء قريش الذين كانوا لا يرضون باللقاء مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإستماع إلى آيات القرآن ، فخرج الأنصار من رحالهم بعد مضي ثلث الليل متسللين متوجهين إلى الشعب عند العقبة للقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتان هما :

(الأولى : نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ مِنْ نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ .
الثانية : أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ بْنِ نَابِيٍّ ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلَمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ)^(٢).

فجاءهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأطل عليهم بطلعته البهية ، وتحدث الأنصار مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتحاورا فيما بينهم بمسألة الأمر في دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يثرب وما يترتب عليها من احتمال الحرب والقتال .

(١) سورة النساء ٨٩.

(٢) الروض الأنف ٢/٢٦٥.

ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتكلم ، فشرع بتلاوة آيات من القرآن ودعا إلى عبادة الله ، وبيّن أنها واجب على كل مكلف ، ثم رغب في الإسلام وبشر بظهوره .

ثم قال (بل الدم الدم، والهدم الهدم ! أنتم منى وأنا منكم؛ أحارب من حاربتكم واسالم من سالمتم) ^(١).

وتخصيص الطبري بأن المراد من الناس في حديث الأنصار اليهود لا دليل عليه إنما المراد العهود بين الأوس والخزرج وقريش وعموم العرب واليهود أيضاً ، إذ لم تكن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام حرباً على اليهود .

وورد ذكر الأنبياء في آية السياق بالآلف واللام وتحتمل وجوهاً :

الأول : الأول إفادة العهد وأن المقصود أنبياء مخصوصين .

الثاني : إفادة الجنس وإرادة كل الأنبياء .

الثالث : المقصود عدد وجملة من الأنبياء ، وهذا المعنى وسط وبرزخ

بين لام العهد ولام الجنس .

والمختار هو الثالث ، فمن الأنبياء من مات في فراشه كما في آدم ونوح وهارون وموسى ومنهم من رفع كما في ادريس وعيسى عليهما السلام . وأكثر الأنبياء ماتوا في فراشهم ، ولم يكن أيام التنزيل من نبي غير النبي محمد ، وقد ثبت أن كفار قريش كانوا يسعون لقتله وجرت عدة محاولات لإغتياله قبل الهجرة وبعدها ، ولكن الله عز وجل ينجيه في كل مرة ليكون من دلالة آية البحث دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل .

فان قلت ما هي الصلة بين سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الإغتيال وبين استدامة التنزيل ، الجواب لإختصار نزول القرآن

(١) تأريخ الرسل والملوك ٤١٧/١.

بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم ولن ينزل على غيره من الناس ، وهل كان الصحابة يدركون موضوعية نزول القرآن نجوماً في عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل .

الجواب نعم ، وهو من الشواهد على صدق نبوته ، وهو مناسبة لتثبيت إيمان الصحابة وسبيل لهداية الناس ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿بَيَّنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١).

ترى ما هي الصلة ونوع الملازمة بين قول الجاحدين إن الله فقير ، وبين قتلهم الأنبياء ، الجواب إرادة فعل الأغنياء الجاحدين ، وتبين الآية اتحاد سنخية الكفر إذا صاحبه غنى وغرور وطغيان .

وجاءت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَتَقُوا﴾ ليكون عمل المسلمين بلحاظ

قول تعالى ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأنبياء﴾ على وجوه :

الأول : إخلاص العبادة لله .

الثاني : الإمتثال لأمر الله ورسوله .

الثالث : الإحتراز من الذين كفروا ومنع وصول أيديهم إلى النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا يتعارض هذا الإحتراز مع عمومات قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ

مِنَ النَّاسِ﴾^(٢) لبيان قانون تفضل الله عز وجل بتسخير المسلمين والناس

(١) سورة ابراهيم ٢٧.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

لحفظ شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستدامة التنزيل قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).

الرابع : الإيتاظ من قصص الأمم السابقة ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) ، وأيهما أشد قبحاً ومعصية كل من :
الأول : (قول إن الله فقير) لأنه سبحانه أمرهم باخراج حق الفقراء من أموالهم .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن مطعم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول شيئاً من الأرض أو وبرة من بعير فقال : والذي نفسي بيده مالي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم)^(٣).

الثاني : نسبة الغنى إلى أنفسهم بقولهم ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وذكر غناهم في مقابل قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ولو قالوا نحن أغنياء بفضل الله فهل فيه خير .

الجواب هو الأول فان قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤) كفر وجحود ، أرادوا به محاربة التنزيل ، والتصدي للفرائض ، ومنع إمثال المسلمين لها ، لذا تفضل الله عز وجل وذكر قولهم ليعرض الناس عن أقوالهم ذات المكر

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) سورة يوسف ١١١ .

(٣) الدر المنثور ٤/٤٥٤ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

والدهاء والخبث ، وقد ورد لفظ الأغنياء معرّفاً في القرآن مرة واحدة، قال تعالى ﴿دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ﴾^(١) وورد ثلاث مرات من غير تعريف .

ويتضمن قوله تعالى ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الثناء على المهاجرين والأنصار لصحبتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمنه منهم وعدم الخشية عليه من غدرهم.

ومع تعدد محاولات قريش لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانه لم يأمر باغتيال كبرائهم ولم ينتقم منهم أهل البيت والصحابة لان الإسلام دين السلام والأمن .

ومن خصائص المؤمنين الإبتعاد عن البطش والغدر ، لقد كان النبي والصحابة وأهل البيت متوكلين على الله ، مفوضين أمورهم له سبحانه ، ويدركون جميعاً قانوناً وهو : نجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الإغتيال كل مرة معجزة له.

وعن عكرمة قال: قال عثمان بن شيبة لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حنيناً فذكرت أبي وعمي، وقتل علي وحمزة إياهما فقلت: اليوم أدرك ثأري من محمد، فجئته من خلفه فدنوت منه حتى لم يبق إلا أن أسوره بالسيف إذ دفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه البرق، فنكصت القهقري، فالتفت إلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (يا شيبة، ادن مني) .

فوضع يده على صدري، واستخرج الله الشيطان من قلبي، فرفعت إليه بصري، وهو أحب إلي من سمعي وبصري)^(٢).

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سبل الهدى ٢٦١/١٠ .

كما حاول المنافقون اغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته من تبوك مع أنه لم تقع معركة فيها ، وعن أبي البخترى عن حذيفة قال: كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به ، وعمار يسوقه؛ أو قال عمار يقوده وأنا أسوقه؛ حتى ذا كنا بالعقبة، فإذا أنا بآثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصرخ بهم فولوا مدبرين.

فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل عرفتم القوم - قلنا: لا، قد كانوا ملثمين. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، أرادوا أن يزحموني في العقبة لأقع. قلنا: يا رسول الله، أولا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم .

قال : لا، أكره أن يتحدث العرب أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم فقتلهم. ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة ، قلنا : يا رسول الله ، وما الدبيلة قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدها فيهلك^(١).

صلة قوله تعالى ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بآية البحث

لقد تضمنت آية السياق الأمر بالإيمان بالله والرسول ، ولكنها قيدت الفوز بالأجر العظيم باقتران التقوى بالإيمان ، فلم تقل الآية (فآمنوا بالله ورسوله ولكم أجر عظيم).

إنما أمرت الآية المسلمين والناس بالإيمان بالله والتصديق بالأنبياء والرسول وأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين البشر ، ومع الإيمان لا بد من التحلي بالتقوى ، وتتجلى بعمل الصالحات واجتناب المعاصي والسيئات . ترى كيف تكون التقوى بلحاظ آية البحث ، الجواب من جهات :

الأولى: التسليم والإقرار بأن الله عز وجل يسمع كل صوت ، فسمع الله عز وجل للأصوات حضورها عنده سبحانه مع التباين بين حاسة

السمع والبصر عند الإنسان ، وتنزه الله عز وجل عن الحاسة ، فسماعه للأصوات من غير آلة لذا تفضل الله ونفي وجوه الشبه بينه وبين خلقه .
ثم ذكر صفة السمع والبصر بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

ولم يرد لفظ ﴿كَمِثْلِهِ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ببيان التنزيه التام لله عز وجل عن مشابهة صفات الخلق .
وهل يضر الإمتناع عن دفع الزكاة الإسلام وأحكام الشريعة ، الجواب لا ، لأن الله عز وجل أخزى الذين كفروا بآية البحث ، وأنذرهم قال تعالى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

الثانية : من منافع إخبار الله عز وجل للمسلمين والناس بأنه يسمع الأقوال دعوة الناس للصلاح ، وصرف الأذى عن المؤمنين .
وتقدير آية البحث : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ويسمع كل قول) ، ومنه قول الذين يتلون قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) إذ يتلو كل مسلم ومسلمة هذه الآية سبع عشرة مرة في اليوم وإلى يوم القيامة ، فلا أثر لجحود الكافرين بالزكاة والممتنعين عن الإنفاق في سبيل الله ﴿إِنْ إِلَٰهَ فَقِيرٌ﴾^(٤).

(١) سورة الشورى ١١.

(٢) سورة البقرة ١٣٧.

(٣) سورة الفاتحة ٢.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

الثالثة : الشهادة على نطق وقول الجاحدين (إن الله فقير ونحن أغنياء) فلو أنكروا القول ، فلا يلتفت المسلمون إلى إنكارهم هذا ، ولو قاموا بدفع الزكاة تغطية لقولهم وليس توبة ، فلا يكون هذا الدفع شاهداً أو شفيعاً لهم .

نعم لم تذكر آية البحث أسماء الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) وإن وردت بعض الأخبار في أسباب النزول بخصوصه ، وفي عدم الذكر هذا مندوحة للتوبة والإنابة ، بينما ورد ذكر أبي لهب بالاسم لشدة عداوته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿تَبْتَئِدًا أَبَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(٢).

الرابعة : حسن الإمتثال للأمر الإلهي بالزكاة والإنفاق في سبيل الله ، وهو من أفضل القربات ، والرد على الذين ظلموا أنفسهم بالقول (إن الله فقير ونحن أغنياء).

الخامسة : الشاء على الله عز وجل والحرص على التقوى والخشية منه لأنه سبحانه يكتب ويوثق كل قول أو فعل يصدر من الناس .

السادسة : من التقوى حرص المسلمين على سلامة شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذب عنه ونصرتة ، وإتيان ما أمر به ، قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة المسد ١-٥.

(٣) سورة النساء ٨٠.

السابعة : استهجان المسلمين للتعدي على حرمة الأنبياء ومحاربتهم ، وقتلهم ، قال تعالى ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .
إذ تدل الآية أعلاه بالدلالة التضمنية على محاربة الذين كفروا الأنبياء واستهجانها .

الثامنة : تلاوة المسلمين لآية البحث من مصاديق التقوى وقد تفضل الله عز وجل وجعل تلاوتهم للقرآن واجبة وجوباً عينياً خمس مرات في اليوم في الصلاة ، وحتى الذي يكون مأموماً في الصلاة يجب عليه يستمع ويصغي لقراءة الإمام في الصلاة الجبرية قال تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) .

التاسعة : من التقوى تعوذ المسلمين من النار ومن عذاب الحريق وشدته ، فلقد جعل الله عز وجل الإخبار القرآني تذكرة وموعظة للناس جميعاً ، ليتنفع منه المسلمون الإنتفاع الأمل ، وفي التنزيل ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وجاءت شواهد كثيرة في القرآن بلزوم إكرام المرأة ، والرفق بها ، والإحسان إليها ثم بين القرآن بوضوح سوء عاقبة الذين يثدنون البنات بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٣) سورة الأنعام ٩٠ .

(٤) سورة التكويد ٨-٩ .

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها لم تحصر السؤال والحساب يومئذ بالرجل ، لتشمل الآية الذين يتواطأون على الوأد ، ومن ضروب الوأد أن المرأة التي يأتيها المخاض تخرج بعيداً عن البيوت ، وتحفر لها حفرة فان جاءت بها بنتاً ، القتها في الحفرة ، وأهالت عليها التراب ، وعادت بحسرة خاوية إلى أهلها ، أما إذا كان المولود ذكراً حملته وجاءت به إلى بيتها وقومها .

ومن النساء من لا تلد إلا البنات ومنهن من تحب أن ترزق بنتاً فلا يعلم الأذى الذي يصيبها عند ولادة بنت والقائها في الحفرة إلا الله عز وجل .

فتفضل سبحانه ورأف بالنساء والناس جميعاً ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول حرمة وأد البنات وثبوت هذه الحرمة إلى يوم القيامة ، واستدامتها شاهد على كون نبوة محمد خاتمة للنبوات وبقاء أحكامها إلى يوم القيامة .

لقد كان الوأد ونصرته من الخبيث الذي ذكرته آية السياق ، وكذا مقدماته وأسبابه التي تتجلى بخشية العربي من سبي ابنته ، وصيرورتها عاراً عليه ، فبعث الله عز وجل النبي محمداً للقضاء على الغزو والغزو المقابل ، ولا يمكن أن يتم قطع نهج الغزو من المجتمعات العربية وغيرها إلا بالتنزيل ، إلى جانب آيات إكرام المرأة مطلقاً ، والمؤمنة خاصة .

ومن إعجاز آية السياق مجيؤها بصيغة الإطلاق في كل من الطيب والخبيث بقوله تعالى ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) ، أي يفصل الله ويعزل الخبيث عن الطيب ، ليكون من موضوع الآية على وجوه:

الأول : عزل القول الخبيث عن القول الطيب ، ومن الخبيث ما ورد في آية البحث (قالوا ان الله فقير).

الثاني : عزل الفعل الخبيث عن الطيب ، ومنه أفعال المنافقين عند سماع أخبار قدوم المشركين لغزو المدينة.

الثالث : عزل المفهوم الخبيث عن المفهوم الطيب ، والفصل بينهما في المجتمعات ، ومن معاني قوله تعالى ﴿حَتَّى يُمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) ، إبطال المفاهيم الخاطئة ، وإزاحة العادات المذمومة ، وتنزيه المجتمعات عن الرذائل واستحسان الظلم .

الرابع : كشف وتشخيص الخبيثين ، وحجبهم عن التأثير في المجتمعات .
الخامس : توجيه اللوم للمنافقين ، لإخفائهم الكفر مع إظهارهم حال الإيمان.

السادس : نبذ الأفعال التي تدل على النفاق ، وتحذير الناس عامة والمؤمنين منها ، فمن إعجاز القرآن أنه سبيل هداية حتى للكفار إذ تنفر نفوس الناس عامة من أفعال المنافقين وكأنهم يقولون للمنافقين : أما أن تؤمنوا حقاً وصدقاً ، وإما أن تبقوا على الكفر والضلالة .

المسألة الثانية والعشرون : لقد أختتمت آية السياق بالوعد الكريم بصيغة الخطاب ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وأختتمت آية البحث بالوعيد والإنذار وبصيغة الخطاب أيضاً ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٣) مع التباين في الجهة التي يتوجه لها الخطاب فجاء الوعد بالجزاء الحسن لأهل الإيمان والتقوى ، وجاء الوعيد بالعذاب بالنار للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

ومن الآيات أن أهل الوعد والجزاء لا يفارقون منازل الهدى والإيمان ، بينما تفتح كل من آية البحث والسياق باب التوبة والإنابة للذين كفروا والمجاهدين .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث القدسي (قال : إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره فقال الله : عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره .

فقال الله : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم إني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) ^(١).

قانون الأجر العظيم

أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا الوصف إجمالي ، ولو دار الأمر فيه بين الكثرة والقلة فالأصل هو الكثرة والعظمة من جهات :

الأولى : الكم في الأجر .

الثاني : كيف في الأجر .

الثالث : إستدامة الأجر .

الرابع : الإتصال بين أفراد الأجر .

الخامس : مضاعفة الأجر .

السادس : إنتفاء الحاجب والبرزخ دون الأجر والثواب .

لقد أخبر الله عز وجل بأنه الذين ينفقون أموالهم في سبيله والذين يحسنون إلى الناس ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدفع الزكاة وإعطاء الصدقة ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(١).

قانون كل آية قرآنية تميز وفصل للخبيث عن الطيب

لقد جعل الله عز وجل آيات القرآن كنوزاً من العلم تترشح عنها الدرر واللالئ لينهل منها الناس الأحكام والسنن ، ويرتقون بتلاوتها والتدبر في معانيها في سلم المعارف فقد أبى الله عز وجل إلا أن يجعل رزقه للناس ممدوداً ، وهذا الرزق أعم من أن يختص بالزاد والكسوة والنفقة إنما يشمل فيوضات العلم وهي لا تقدر بثمن من جهة نفاستها وعظيم نفعها وهي التي تأتي بالمكاسب والأموال.

وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، وهذا العذاب في يوم القيامة ، وتقدير الآية : ويقول مالك يوم الدين للجاحدين ذوقوا عذاب الحريق.

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : عليكم باصطناع المعروف فإنه يمنع مصارع السوء ، وعليكم بصدقة السر فإنها تطفئ غضب الله عز وجل^(٣).

ولما خلق الله عز وجل آدم وأخبر الملائكة انه سيكون ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) ، وأدركت الملائكة فوز الإنسان بمرتبة لم يبلغوها مع أنهم

(١) الدر المنثور ٢/٤٤٠.

(٢) سورة النحل ١٢٨.

(٣) الدر المنثور ٥/١١١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

مخلوقون قبل آدم بآلاف السنين ، ولم يحتج الملائكة على هذه الخلافة وعلى حرمانهم منها ، وليس لهم أن يحتجوا ، فهم يعلمون أن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، وهم يدركون إنحصار وظيفتهم بالتسبيح والتهليل والسجود والخشوع لله عز وجل ولكنهم تساءلوا طمعاً بفضل ورحمة الله على جنس البشر.

ومن وجوه تقدير الآية :

الثامن : لقد سمع الله قول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وهو سبحانه يعلم ما قالوا قبل أن يخلقهم ، ولكنه تفضل وجعل أسباباً ومناسبة لنزول آيات القرآن لتكون ذات الأسباب تفسيراً للآيات ، وشاهداً على صدق نزولها من عند الله ، وفيه تثبيت لكلمات ومضامين آيات القرآن في الوجود الذهني ، وتتصل الطراوة في تكرار تلاوة الآية القرآنية ، والسعي لإيجاد المصداق الخارجي والشواهد على إعجازها المتجدد.

التاسع : قد سمع الله (قول الذين قالوا إن الله فقير) وفيه دلالة على مسائل :

الأولى : قد سمع الله كل قول صدر من الذين كفروا.

الثانية : يسمع الله ما سيقول الذين كفروا .

الثالثة : قد سمع وبصر الله مقدمات قولهم (إن الله فقير).

الرابعة : حضور الله مع كل جماعة ، وهو اسمع السامعين.

الحادي عشر : يسمع الله مناجاة الكافرين والمنافقين بالصدود والإمتناع عن دفع الزكاة .

الثاني عشر : يسمع الله قول الذين يوالون الذين قالوا ان الله فقير ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُ الْآخِرَةَ كَمَا يَسْأَلُ الْكَفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾^(١).

الثالث عشر : يسمع الله توبة الذين قالوا أن الله فقير ، وتكون توبتهم بالإستغفار والعمل الصالح ، وعن عبد الله بن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢)، فقال : يا رسول الله ألي هذه؟ قال : هي لمن عمل بها من أمتي^(٣)، ولو ندم الممتنع عن الزكاة ، وقام باخراج الزكاة وسلم في قلبه بأن الله هو الغني فهل يحتسب له هذا توبة واستغفاراً أم لا بد أن يقول : استغفر الله ، الجواب هو الأول فاتيان الواجب بعد الإمتناع عند توبة.

عن عبد الله بن معقل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الندم توبة، قال : نعم. وقال مرة : نعم سمعته يقول : الندم توبة^(٤).

الرابع عشر : قد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير) ويسمع تكرارهم لهذا القول ، ليكون من معاني آية البحث زجر الكافرين والجاحدين عن مواصلة القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

(١) سورة الممتحنة ١٣.

(٢) سورة هود ١١٤.

(٣) الدر المنثور ٣٥١/٥.

(٤) تفسير ابن كثير ١٦٩/٨.

الخامس عشر : قد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ، وسمع الله قول الذين ﴿قَالُوا إِنْ إِلَهُ الْفُقَرَاءُ﴾ فذكر قولهم في القرآن وقال ﴿سَنَكْبُ مَا قَالُوا﴾ مما يدل على أن التوثيق في القرآن غير الكتابة ، وتدوين الأفعال من عند الله عز وجل فقد يكون موضوع الآية سابقاً لنزول القرآن كما في قصص الأنبياء .

وقد يكون مصاحباً لنزوله كما في آية البحث أو متأخراً عنها كما في أخبار آخر الزمان ، وعلوم الغيب .

قانون الآية فيصل بين الخبيث والطيب

ويكون من معاني آية السياق حتى يميز الخبيث ويظهر قبحه عند الناس جميعاً ، فان قلت لو أخذنا آيات سورة الفاتحة فهل فيها تمييز بين الخبيث والطيب ، الجواب نعم ، إذ بدأت سورة الفاتحة بالبسملة وهي من أبهى معاني الطيب في القول والفعل ، وبيان نكتة وهي أن النطق بالطيب ، وإتخاذه منهجاً من الطيب ومن فصله عن الخبيث إذ تبين آية السياق قانوناً وهو عدم إجتماع الطيب والخبيث ، وإن إجتماعاً فسرعان ما يفرق الله سبحانه بينهما .

وفي البسملة ورد (عن ابن عباس قال : قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فقال : {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ❖ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ} . فقالت قریش : دق الله فاك.)^(١) وهو في مكة جهاداً وسيباً لتلقيه وأصحابه الأذى .

وعنه قال (سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلمون؛ فكلما خلق الدين جدّوه. أعطوهم ولا تستأجروهم،

فتخرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبي : قل : {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ^(١) ،

فقال الصبي : {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} كتب الله براءة للصبي ،
وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم من النار ^(٢) .

ومن الإعجاز في البسملة أنها كلام طيب يهدي إلى الخير والفلاح ،
ويصلح النفوس لتلقي الطيب بالقبول والرضا .

آية الحمد

قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قول طيب مبارك يترشح عن الإقرار بفضل الله
وتوالي نعمه ، وهو من الشواهد على أن المسلم الذين يواظب على قول
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من الطيب الذي ذكرته آية السياق ، وهو الإعجاز في تلاوة كل
مسلم ومسلمة سورة الفاتحة سبع عشرة مرة في اليوم وعلى نحو الوجوب
العيني لبيان وثيقة في الدنيا والآخرة وهي أن الذي يتلو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ ^(٣) ، عدة مرات في اليوم من الطيب ، وأن الذي يمتنع عن
الله في نهاره وليله من الخبيث .

ومن الإعجاز في خلق الإنسان أن كل نبي جاء إلى قومه بوجوب
قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ^(٤) .

وتستديم الحياة في الأرض بقول الحمد لله ، ومن أسرار وجوب
الصلاة خمس مرات في اليوم أن كل فرض من الصلاة سبب لتهذيب

(١) سورة الفاتحة ١ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٤/١ .

(٣) سورة الفاتحة ٢ .

(٤) سورة الفاتحة ٢ .

الأقوال ، وفضح للخبيث ، ومن حب الله عز وجل للناس عدم وجود حاجب أو برزخ بين أي إنسان وبين قول (الحمد لله).

ويكون من معاني آية الحمد بلحاظ آية السياق وجوه :

الأول : قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من الطيب.

الثاني : الذي يقول (الحمد لله) طيب.

الثالث : وجوب قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مع التسليم بأن الله عز وجل رب

الخلائق كلها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

الرابع : ترك قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من الخبيث ، لأن هذا الترك أمر

وجودي بلحاظ أنه امتناع.

الخامس : الذي يمتنع عن القول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبيث لابد من فصله

وعزله عن المؤمنين وهو من إعجاز آية ﴿الْحَمْدُ﴾ بأن تكون فيصلاً وفصلاً بين المؤمن والكافر ، وبين الطيب والخبيث ، ليكون من أسرار إبتداء القرآن بسورة الفاتحة تميزه من بدايته ، وأوله بين الطيب والخبيث ، ليستمر ويتصل هذا التمييز في آيات القرآن .

الثالثة : الإقرار بالربوبية المطلقة لله عز وجل المقترن بالحمد والشكر له

سبحانه وصيرورتها آية واحدة بقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فمن صفات الطيب التسليم بأن الله عز وجل هو رب ومالك الخلائق

كلها ، أما الخبيث فهو جاحد بالنعمة ، منكر لمقام الربوبية المطلقة ، لذا

يتفضل الله عز وجل بالتمييز والفصل بين الطيب الذي يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الفاتحة ٢.

الْعَالَمِينَ ﴿١﴾، وبين الخبيث الذي يعزف عنها ويتركها ويمتنع عن التسليم بها .

وتقدير آية البحث : حتى يميز الخبيث من الطيب بقول الحمد لله رب العالمين ، بقول الطيب لها ، وامتناع الخبيث عنها .

آية الرحمن

يتغشى الحياة الدنيا قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) ، إذ ينعم الله عز وجل على شطر من الناس فيهديهم إلى معرفة قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل هو الرحمن وهو الرحيم (عن معاذ بن جبل ، قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن كلمات ما في الأرض مسلم يدعو بهن وهو مكروب أو أسير أو غارم^(٣) إلا قضى الله عنه ، احتبست عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الجمعة ، فقال : يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة ؟ .

قلت : يا رسول الله ، كان ليوحنا بن ماري اليهودي علي أوقية^(٤) من تبر^(٥)، وكان على بابي يرصدني^(٦)، فأشفقت^(٧) أن يجبسني دونك ،

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الفاتحة ٣.

(٣) الغارم : الضامن .

(٤) الأوقية : قيمة عملة ووزن بما قدره أربعون درهما ، وقيل هي نصف سدس الرطل .

(٥) التبر : معدن الذهب والفضة الخام قيل أن يشكل فإذا شكل فيسمى عينا .

(٦) أرصده : راقبه .

(٧) أشفقت : خاف .

ويشغلني عن ضيعتي^(١)، فقال : أتحب يا معاذ أن يقضي الله دينك ؟
فقلت : نعم .

فقال : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك
من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء
قدير^(٢)) ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي منها ما تشاء ، وتمنع
ما تشاء ، اقض ديني ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه الله
عنك^(٣).

ومن رحمة الله عز وجل إخبار الله عز وجل المسلمين والناس عما
قاله الجاحدون لتكون مصاديق الرحمة في الآية على وجوه :
الأول : رحمة الله بالمسلمين والصالحين بالوقاية من القول الخبيث.
الثاني : وجوب تنزه الناس جميعاً من قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤).

الثالث : ذكر الآية لاسمين من أسماء الله الحسنى ﴿الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ﴾^(٥)، شاهد على أن الله ليس بفقير ، فلا يقدر على الرحمة المطلقة
وبالخلاص كلها إلا الله ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

لَتَسْكُوبُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٦).

(١) ضيعة الرجل : ما منه معاشه ، كالصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك.

(٢) سورة : آل عمران آية رقم : ٢٦.

(٣) الطبراني / مسند أحمد ١٠٣/٧ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة الفاتحة ٣.

(٦) سورة القصص ٧٣.

الرابع : من رحمة الله الإنذار للناس جميعاً بلزوم إجتنب قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) إذ أنه سبحانه يسمع هذا الكلام ، ويعاقب عليه يوم القيامة ، ومن ينفرد بالحساب ومؤاخذة العباد في الآخرة على الكلام الذي يسخطه ليس بفقير .

الخامس : إنما صارت طائفة من الناس أغنياء برحمة الله عز وجل ، ولا تتم استدامة هذا الغنى إلا برحمة الله ، وهو من الإعجاز في الجمع بين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) ، في الآية الثالثة من سورة الفاتحة وبين آية البحث . ويستديم هذا الغنى بالإتيان بالآية الثانية من سورة الفاتحة ، ولكن الجاحدين لم يشكروا الله على رحمته بالغنى ، ولم يحرصوا على استدامة هذا الغنى ، فأنزله الله عز وجل آية البحث ، ولم تذكر الآية سلب حال الغنى من الجاحدين إنما تنذرهم بأنهم سيذوقون عذاب الحريق ، وهو أشد أضعافاً مضاعفة من الإبتلاء بحال الفقر بعد الغنى .

ومع هذا فإن آية البحث تدل في مفهومها على نزول البلاء بالذين كفروا وأنكروا وجوب العبادات البدنية والمالية . وهل ذات آية البحث من هذا البلاء الجواب نعم ، وهل يمكن القول بقانون وهو كل تلاوة مسلم لآية البحث هي رحمة ، الجواب نعم ، فهي رحمة بلحاظ آية البحث من وجوه :

أولاً : إنها رحمة للمسلم الذي يتلو آية البحث في نفسه بالتوقي من الكلام الخبيث والتعدي على مقام الربوبية .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة الفاتحة ٣ .

ثانياً : الرحمة لأولاد وذرية تالي الآية القرآنية لما في هذه التلاوة من الإصلاح ، والفيض من عند الله عز وجل ليكون من معاني قوله تعالى ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١) ، وجوه :

الأول : اهدنا الصراط المستقيم كي يتخذه أولادنا وذرياتنا نهجاً دائماً.

الثاني : اهدنا الصراط المستقيم ليأتي الثواب والنفع لأولادنا.

الثالث : اهدنا الصراط المستقيم لتركه تركه وإراثاً لأولادنا ، وفيه دعوة للمسلمين للسعي لصالح الذرية ، والوقاية المتقدمة زماناً من انحراف الذرية وتجلى الإنذار في المقام بقوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾^(٢).

الرابع : اهدنا الصراط المستقيم واكتب الثواب لنا ولآبائنا وذرياتنا.

ثالثاً : الرحمة من الله لسامع الآية القرآنية ، وهذه الرحمة من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة كثرة وقلة إلا أنها لا بد وأن تتغشى كلاً من التالي والسامع للآية القرآنية.

ليكون من معاني ومنافع تلاوة المسلمين القرآن جهراً في صلاة الصبح والمغرب والعشاء كي يتنفعوا هم والسامعون منها ، وفيه وجوه :

أولاً : الترغيب بتلاوة القرآن.

ثانياً : تنمية حب الإستماع لآيات القرآن عند الناس جميعاً.

ثالثاً : ضبط حروف وكلمات وآيات القرآن عند عموم المسلمين ، فالذي يجهر بقراءته يحرص على صحتها وضبط كلماتها وحركات حروفها

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة مريم ٥٩.

، ومن يستمع للآية القرآنية يحفظها صحيحة ، وإن أخطأ التالي في القراءة صحح له السامع ، وهو من منافع قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾^(١).

ومن الإعجاز في المقام تشريع صلاة الجماعة على نحو الإستحباب المؤكد ، ليتقن إمام الجماعة القراءة وأركان وأجزاء الصلاة ومنها التلاوة ، ويكون المأمومون شهوداً على قراءته مع حفظهم للسور والآيات التي يقرأها وهو من الإعجاز في قراءة الإمام وأنصت المأمومين له ، خاصة وأن المأمومين في الصلاة على مراتب متفاوتة في العلم والفقاهة وحفظ القرآن وهل إتقان إمام الجماعة تلاوة آيات وسور القرآن من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢).

الجواب نعم ، لبيان قانون وهو أن من مراتب هذا التفقه تكون إجبارية وانطباقية بواسطة التكليف ، كما في قراءة القرآن في صلاة الجماعة وأداء أفعال الصلاة والإنفراد من قبل الإمام ومحاكاة ومتابعة المصلين له وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣) ، ومن رحمة الله عز وجل في آية البحث إرجاء كتابة القول القبيح الصادر عن الجاحدين لقوله تعالى في آية البحث ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾.

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

(٣) سورة الفاتحة ٣.

آية مالك يوم الدين

لقد نزل قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) ليخبر القرآن عن قانون وهو عائدة ملك السموات والأرض لله عز وجل ، قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٢) ولو دار الأمر بين إرادة الملكية في الدنيا أو الآخرة أو هما معاً ، فالأصل أصالة الإطلاق ، ثم جاءت آيات تبين إختصاص وانفراد الله عز وجل بالملك في الآخرة .

وآيات الملكية دلائل على الوجدانية ، وقوانين سماوية تؤكد إنعدام الشريك ، وفي التنزيل وبخصوص الدنيا والإرزاق فيها ، قال تعالى ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) أما في الآخرة فقال تعالى في الشئ على نفسه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤).

فاذا كان الإنسان مخيراً في الدنيا بين الإمتثال لأوامر الله عز وجل ونواهيه فانه ليس في الآخرة من اختيار ، وإذ يكون عند الإنسان في الدنيا مال هو مأمور بدفع زكاته ، ويقدر على إخراج الزكاة والخمس ، وفيه

(١) سورة الفاتحة ٤.

(٢) سورة المائدة ١٧.

(٣) سورة آل عمران ٢٦.

(٤) سورة غافر ١٥-١٦.

الأجر والثواب ، فليس في الآخرة من مال عند الإنسان يستطيع أن ينفق منه أو يتدارك تقصيره .

ومن اللطف الإلهي إخبار الآية عن ملك الله ليوم الدين وهو يوم الحساب ، قال تعالى ﴿يَبْأُ الْإِنْسَانَ يُؤْمِدْ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾^(١).

ليان أن الله يملك كل شئ موجود أو معدوم يوم القيامة ، ومنه الناس فهم يومئذ عبيد مملوكون مبعوثون للحساب والجزاء ، وفيه وجوه :

الأول : يُعطى انسان كتابه مع التباين والتضاد ، فمنهم من يعطى كتابه يمينه وهو السعيد ، ومنهم من يعطى كتابه بشماله وهو الشقي .

الثاني : عدم تخلف أحد عن المحشر .

الثالث : حضور الشهود ، وليس لهم حصر ومنهم :

الأول : الملائكة .

الثاني : الأنبياء .

الثالث : المؤمنون ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ

عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢) ، قال تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالتَّيِّبِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣) .

الرابع : عامة الناس ، ممن للإنسان الواقف للحساب صلة أو معاملة ونحوها معهم .

الخامس : الذين أمروا الإنسان بالمعروف ونهوه عن المنكر .

(١) سورة القيامة ١٣.

(٢) سورة البقرة ١٤٣.

(٣) سورة الزمر ٦٩.

السادس : يشهد للإنسان الذين أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ،
 لبيان المنافع الأخروية لقوله تعالى ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١).

السابع : يشهد الأنبياء بقيامهم بالتبليغ والبشارة والإنذار ، وفي عيسى
 عليه السلام ورد قوله تعالى ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ
 رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكَتُبْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٢).

الثامن : مؤمنوا زمان الذي يقف للحساب ، وهل يتنقل المؤمنون
 للشهادة ، أم يحضر عندهم المحاسب ، المختار هو الأول ، وهو من
 مصاديق قوله تعالى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٣) بلحاظ أنهم لا
 يخشون من هذا التنقل شيئاً .

التاسع : الفقراء إذ يشهدون للذي دفع لهم الزكاة والخمس ، والذي
 امتنع عن دفعها لهم .

العاشر : الذين يسمعون أقوال الناس ، ومنهم الذين استمعوا للذين
 قال ﴿ إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخَسِرَ أَغْنِيَاءُ ﴾^(٤) ليكون من إعجاز آية البحث تنبيه
 المسلمين والمسلمات بأنهم سوف يشهدون على الجاحدين .

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة ١١٧ .

(٣) سورة يونس ٦٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

الحادي عشر: جوارح واركان الإنسان نفسه ، قال تعالى
﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

الثاني عشر: بقاع الأرض التي كان عليها الإنسان عندما فعل فعلاً
يكون موضوع الشهادة ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوِي
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ﴾^(٢) امكان شهادتهما على الإنسان وأنها يسمعان إلا أن يقال
باختصاص سمعهما لما يأمرهما به الله عز وجل .

ولو دار الأمر بين الإطلاق والتقييد فالأصل هو الإطلاق إلى جانب
قانون إنطاق الله للحيوانات والجوامد يوم القيامة ، كما في جوارح الإنسان
، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾^(٣) .

وهل يتعاون الشهود في الشهادة بالحق ، أم لا يعلم أحدهم
بشهادة الآخر ، المختار هو الأول ، فلا ضير ولا أذى من هذا
التعاون ، قال تعالى ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٤) .

(١) سورة يس ٦٥ .

(٢) سورة فصلت ١١ .

(٣) سورة فصلت ٢٠ .

(٤) سورة الفاتحة ٤ .

الثالث عشر : النعم التي رزقها الله للعبد كالأموال ، ومنها التي كانت عند الأغنياء ، وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ليكون من معاني قوله تعالى ﴿يَخْلُوفُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) إقامة الحجة على المشركين يوم القيامة ، فلا يقدرّون على القول والمغالطة بأنهم جمعوا هذه الأموال بكسبهم وجهدهم ، إنما هي فضل من الله سواء مقدار الزكاة أو أصل ومجموع المال .

ويدل قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢) على قانون وهو أن الله غني وليس فقيراً ، وفيه تذكير للناس بفقرهم في الآخرة ، لقد قال الجاحدون بالنعم (ونحن أغنياء) وهم ناظرون إلى الأموال التي في أيديهم وسيكونون فقراء في الآخرة ، وهل يصدق القول أن المؤمنين يوم القيامة هم الأغنياء بإيمانهم وأدائهم الفرائض ، وعملهم الصالحات واكتنازهم الحسنات ورجحان كفتها في الميزان يوم القيامة أم أن الناس جميعاً فقراء يوم القيامة لقوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) ، الجواب لا تعارض بين الأمرين ، بينما يكون الكفار فقراء فزعين ليس عندهم غنى ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة الجاثية ٢٢.

(٣) سورة الفاتحة ٤.

(٤) سورة البقرة ٢٧٧.

ولابد من الرجوع إلى الآيات والنصوص ، ومنها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١)، الذي يفيد الإطلاق في فقر الناس لله عز وجل في الدنيا والآخرة وتقدير الجمع بين آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢)، وبين آية البحث على وجوه :

الأول : الله مالك يوم الدين هو الذي سمع قول الذين قالوا ان الله فقير.

الثاني : الله مالك يوم الدين هو الذي يحضر قول الذين قالوا ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

الثالث : لقد سمع الله قول الذين قالوا ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤) ولكن هو الغني ومن غناه أنه مالك يوم الدين.

الرابع : لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير (وليس من غني إلا الله وهو مالك يوم الدين .

الخامس : قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٥)، زاجر للناس جميعاً من القول ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٦) .

(١) سورة فاطر ١٥.

(٢) سورة الفاتحة ٤.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

(٥) سورة الفاتحة ٤.

(٦) سورة آل عمران ١٨٠.

السادس : نزول قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١) حجة على الجاحدين ، وتأكيده لقبح قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

السابع : لا يقدر على سماع عدد مرات قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) إلا الله ، فأنزل الله القرآن بتوثيق هذا القول وسماعه وهو مالك يوم الدين.

الثامن : سيقف بين يدي (مالك يوم الدين الذين قالوا ان الله فقير) وهل هم من الذين يرونه بعيداً كما في قوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُ بُعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا﴾^(٤) ، أم أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر وعالم الحساب ، والمختار هو الأول ، بدليل ذات آية البحث التي ذكرت أنهم أقرروا بالربوبية لله ولكنهم نسبوا إليه الفقر لأنه دعاهم إلى الصدقة وإلى إقراضه باعانة الفقراء ، قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٥).
حَسَنًا^(٥).

ومن الإعجاز في آية ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٦) ورود الآية بصفة ﴿مَالِكِ﴾^(١) ، لله عز وجل ولم ترد بصفة ملك ، وكأن الآية رد متقدم على الذين قالوا ان الله فقير وعلى الذين ينكرون عالم الآخرة .

(١) سورة الفاتحة ٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة المعارج ٦-٧.

(٥) سورة البقرة ٢٤٥.

(٦) سورة الفاتحة ٤.

آية إياك نعبد

من آيات سورة الفاتحة قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، من تفضل الله على المسلمين وعلى الناس أن جعل هذه الآية مما يتلوه كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم وليلته.

ومن الإعجاز الغيري للقرآن شوق المسلمين لتلاوة هذه الآية على نحو الإستمرار والتوالي ، وفيها سكينة لهم ، وشاهد على حبهم لله وإخلاصهم العبادة له سبحانه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

ولم تقف الآية عند ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع أنه قانون وعلم مستقل ، ومدرسة في التقوى وصلاح الأرض ، إنما قرنت الإستعانة بالله بالعبادة لتأكيد نفهم الشريك عنه .

ولم تأت بلغة المفرد ﴿إِيَّاكَ أَعْبُدُ﴾ وأن العبد يتحدث ويخبر عن نفسه ، إنما جعلت الآية المسلم يخبر عن نفسه ويشهد لأتمته ذكوراً وأنثاً بأنهم يعبدون الله ، ليكون كل فرد من المسلمين تشهد له أمة سبع عشرة مرة في اليوم بأنه يعبد الله ولا يشرك به شيئاً ، وأنه يستعين بالله في قضاء حوائجه ، وهو من أسرار إستجابة الله عز وجل لدعاء المسلمين بقوله ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣) ، وفيه وجوه :

الأول : أي ادعوني لشهادة الأمة لكم بأنكم تعبدونني.

(١) سورة الفاتحة ٤.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

(٣) سورة غافر ١٤.

(٤) سورة غافر ٦٠.

الثاني : ادعوني فأني أحب أن اسمع دعاء الذين يعبدونني.

الثالث : ادعوني فإن الدعاء والاستجابة له من عند الله سبحانه شكر

وجزاء الله لهم على عبادتهم له ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَرْتَضُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يُجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١).

الرابع : ادعوني فإن دعاءكم رد واحتجاج على الذين قالوا إن الله

فقير ، ويكون يوم القيامة حجة عليهم.

الخامس : ادعوني فإن الدعاء والإنتفاع منه هو الغنى والثروة وليس

المال الذي يخل به الجاحدون.

السادس : مادتم تستغيثون بي ادعوني استجب لكم ، والنسبة بين

الدعاء والاستغاثة عموم وخصوص مطلق ، فالدعاء أعم.

السابع : ادعوني استجب لكم ليكون موعظة وعبرة للناس جميعاً ،

وسبيلاً لتوبة الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

فمن مصاديق الإبتلاء الحسن توجه الأمر من الله عز وجل للمؤمنين

بالدعاء ليتدبر عموم الناس بماهية الخلق وملازمة الحاجة لهم ، ولزوم

اللجوء الى الدعاء وهناك تضاد بين الدعاء وبين قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

فمن مقدمات الدعاء هجران قول إن الله فقير ، ولو قال الإنسان إني

غني أو قال جماعة نحن أغنياء فهل يتعارض مع الدعاء ، الجواب إن كان

(١) سورة النساء ١٤١.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

المراد كثرة المال مع التسليم بأنه من فضل الله فلا تعارض في المقام أما إذا كان المقصود غنى العبد المطلق ونسبته إلى الجهد والفتنة والكسب الذاتي من غير الإقرار بأنه رزق من عند الله فهو حاجب دون الإستجابة للدعاء. وهل يحتمل أن الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) يدعون الله عز وجل الجواب نعم ، ويسمع الله دعاءهم وقد لا يستجيب لهم ، فان قلت لماذا(قد) أعلاه ، إذ ورد قوله تعالى ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٢) .

الجواب إنما وردت الآية أعلاه بخصوص عالم الآخرة ، نعم يمكن أن يكون لها مصداق في الدنيا لأصالة الإطلاق في العوالم المختلفة وللإستصحاب القهقري ويعارضه إن الله عز وجل يحب أن يدعو الناس، وله الرجحان.

ترى ما هي النسبة بين الدعاء وبين قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣) ، الجواب نسبة العموم والخصوص المطلق فالدعاء جزء ومصداق للعبادة ، وهي أعم وأوسع منه فمن العبادة الصلاة والصيام والزكاة والحج وقد أبى الجاحدون إلا الإمتناع عن الزكاة والإنفاق في سبيل الله.

لقد امتحن الله عز وجل الناس في صحتهم وسلامة عقولهم بالصلاة والصيام وأغدق عليهم فيما رزقهم من الأموال وأمرهم بدفع الزكاة ، ففاز قوم باقامة الصلاة واتيان الزكاة وخابت وخسرت طائفة بامتناعها عن دفع الزكاة.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة غافر ٥٠.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

وفي قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، عطف للإستعانة على العبادة ، ترى لماذا لم تقل الآية (اياك نستعين وإياك نعبد) الجواب لقد قدمت الآية العبادة لوجوه :

الأول : الأصل في خلق الإنسان هو العبادة.

الثاني : بيان قانون وهو إستعانة المسلمين بالله لإقرارهم بأنه ربّ العالمين.

الثالث : تقديم العبادة توسل إلى الله عز وجل ومقدمة للإستعانة ، وتزكية للنفس.

الرابع : بيان أن الأولى هو العبادة ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

الخامس : بيان قانون وهو أن عبادة الناس لله عز وجل طريق لقضاء حوائجهم وسبيل للإستعانة به تعالى في أمور الدين والدنيا .
ومن إعجاز الآية دلالتها على أن الله عز وجل هو الغني ، مع التسليم بغناه المطلق من جهات :

الأولى : إنقطاع الناس لعبادة الله وفق قواعد ودستور هو الذي وضعه وأنزله من السماء ، وفيه وجوه :

الأول : أنواع العبادة كالصلاة والزكاة والصيام .

الثاني : تغشي العبادات لوجوه :

أولاً : بذل الجهد البدني كما في الصلاة والصيام.

ثانياً : إخراج مال الزكاة ودفعه للمستحقين من الفقراء والمحتاجين .

ثالثاً : العبادة الشاملة للبدن والمال كما في أداء مناسك الحج.

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

الثالث : أعداد وكيفية وأوان العبادة ، فمع كثرة الفرائض العبادية فانها تتصف بالدقة في الأجزاء والشرائط وفيه دلالة على نزولها من عند الله عز وجل ، ولأن الله عز وجل هو الذي أمر بالفرائض العبادية فانه سبحانه جعل قلوب الناس تشاق إليها .

الثانية : حاجة الناس لعبادتهم لله عز وجل ، فمن معاني الوحدةانية وانفراد الله بملك السموات والأرض ان الخلائق تعبده وتسبحه لحاجتها الخاصة والعامة مع غنى الله عز وجل عن هذه العبادة فقد بخل بعض أرباب الأموال بالزكاة وهي حاجة لهم في النشاطين وسبب باستدامة غناهم قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) وهو سبحانه غير محتاج لهم ولزكاتهم ، قال تعالى ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾^(٢).

الثالثة : من الشواهد على غنى الله عز وجل الدائم والمستديم استعانة أجيال الناس به في السراء والضراء ، ولا يقدر على إحصاء عدد المرات التي نطق بها المسلمون بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣)، منذ نزول سورة الفاتحة وتشريع الصلاة إلى يومنا هذا إلا الله عز وجل ، وكذا عدد مرات نطقها في المستقبل ، مع تقسيمها من جهات :

الأولى : عدد تلاوة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤)، في الصلاة ، وعددها خارج الصلاة ، وأيهما أكثر المختار أن النطق بها في الصلاة هو الأكثر.

الثانية : عدد تلاوة الذكور وعدد تلاوة الأنثى للآية.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة الذاريات ٥٧.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة الفاتحة ٥.

الثالثة : عدد المأمومين الذين اكتفوا بتلاوة الإمام لقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾^(١).

الرابعة : عدد مرات تلاوة الآية بالإخفات في الصلاة ، وتلاوتها بالإخفات خارج الصلاة ، وكذا بالنسبة للجهر بها.

الخامسة : عدد قراءة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) ، في مستقبل الأيام

وإلى قيام يوم الدين ، وكما يقع الإحصاء بالنسبة لهذه الآية فانه يصح بالنسبة لسورة الفاتحة كاملة ، ولآياتها السبع متفرقة ولآيات القرآن كلها لبيان قانون وهو مصاديق الإحصاء التي ينفرد بها الله عز وجل لا يقدر عليها ولا يعلم بها إلا هو سبحانه ، وفي التنزيل ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

السادسة : عدد قراءة المسلمين لإيّاك نعبد وإيّاك نستعين في جميع أيام

الحياة الدنيا.

السابعة : عدد الذين ساهموا في تعليم وحفظ سورة الفاتحة وآياتها ،

(وقيل : إن عبد الرحمن السلمي علم ولد الحسين عليه السلام " الحمد " فلما قرأها على أبيه أعطاه ألف دينار، وألف حلة، وحشا فاه درا، فقيل له في ذلك فقال: وأين يقع هذا من عطائه يعني تعليمه وأنشد الحسين عليه السلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجذبها على الناس طرا قبل أن تنفلت

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

(٣) سورة الحشر ٢٣.

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يبقئها إذا ما تولت^(١).

بحث كلامي

لا يحصي المنافع العظيمة التي يفوز بها قارئ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) إلا الله، ومنها العصمة والتتزه عن مفاهيم الكفر والجحود، ومنها الإحتجاج على قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

ليكون ترديد المسلمين قول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رجاء وتوسلاً أن لا يؤاخذ أهل الأرض بذنوبهم ولا يعجل عليهم بسخطه، وفيه سؤال لإمهال الناس جميعاً وتوالي الرزق الكريم من الله تعالى لان أصوات المؤمنين بالتلاوة والذكر تعانق السماء وتخرق الغيوم وإذا قال جماعة ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخُنْ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤)، فان أصوات التالين للقرآن والمستغفرين تغلب عليها. ونزل القرآن بتوثيق قولهم وذمهم وغادروا الدنيا، وبقي المسلمون يتلون بصدق كل يوم وفي أرجاء المعمورة (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو من مصاديق احتجاج الله عز وجل على الملائكة بقوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥)، حينما ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٦)، فقد أفسدوا.

(١) البحار ١٩١/٤٤.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

(٦) سورة البقرة ٣٠.

بامتناعهم عن دفع الزكاة والإنفاق في مرضاة الله ، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَنْ بَاءَ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١)، وهذا الإمتناع فساد من وجوه :

الأول : تعطيل أحكام الشريعة .

الثاني : حجب حقوق الفقراء ، مع حاجتهم إليها ، في الوقت الذي يدل عليه قول الجاحدين (ونحن أغنياء) على تراكم الاموال عندهم مع حاجة الفقراء.

والزكاة مع قلتها باعث للأمل في نفوس الفقراء ، ودعوة لهم لعبادة الله ، ومانع من انتشار الجريمة.

فيكون دفع الزكاة عبادة من قبل الأغنياء ، ومقدمة لعبادة الفقراء ونزلت آية البحث لحث الفقراء على عبادة الله على كل حال ، وان حجب الأغنياء عنهم حقهم في أموالهم.

الثالث : دعوة آخرين للإمتناع عن الزكاة ، فكان نزول آية البحث وقاية للناس من إتباع ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) لتكون الآية رحمة بالناس جميعاً ، وتحذيراً من أموال الكافرين والجاحدين ، أي أن دروس الإصلاح في الآية أعم من أن تختص بموضوعها.

ومن معاني ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣)، تقيد المسلمين بسنن الصبر في مواجهة افتراء الذين كفروا وإذا كانت طائفة من الأغنياء حجبا عن الفقراء ما يستحقونه جاءت آية البحث لتهدى المسلمين أغنياء وفقراء بالإستعانة به سبحانه ،

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) أنظر الجزء الثاني والستين بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة الفاتحة ٥.

ليزيد الله أموال الأغنياء ، ويجعل النماء والبركة فيها ، ويأتي للفقراء فضل من عند الله هو أضعاف ما حجه الذين ذكرتهم الآية السابقة بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) ، والذين تهادوا في التعدي ممن ذكرتهم آية البحث .

وهل يرى الناس هذا الحقائق يوم القيامة الجواب نعم ، إذ يكشف لهم عن أبصارهم ، قال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢) ، لبيان قانون وهو أن إمتناع بعض الأغنياء عن إخراج حقوق الفقراء وإيصالها إليهم لن ينقص من رزق الفقراء إنما يزيد الله عليهم من فضله لأنهم يلهجون بقول ﴿إِنَّا كَنَعْبُدُ وَإِنَّا كَنَسْتَعِينُ﴾^(٣) ، وهو من أسرار وجوب تلاوة سورة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة اليومية ، وحفظ المسلمين والمسلمات لهذه السورة عن ظهر قلب .

وهل يمكن القول أن سورة الفاتحة هي أكثر سور القرآن تلاوة وحفظاً عند المسلمين ، الجواب نعم ، لتكون كل آية منها ضياء ينير دروب الهدى ، وحرزاً من مفاهيم الضلالة ، وسنن الظلم .

وإذ أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(٤) ، لتكون تلاوة المسلمين لقول ﴿إِنَّا كَنَعْبُدُ وَإِنَّا كَنَسْتَعِينُ﴾^(٥) ، على وجوه :

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة ق ٢٢ .

(٣) سورة الفاتحة ٥ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

(٥) سورة الفاتحة ٥ .

الأول : إنها واقية من الوعيد الذي تتضمنه آية البحث فالذين يلهجون بالصباح والمساء بقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) غير مشمولين بالوعيد بعذاب النار ، إنما يتلقون نزول الأمن والسكينة وأسبابها من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

الثاني : بيان مسألة وهي كل من عبادة الإنسان لله ، واستعانته به سبحانه حرز من الفرع وعذاب الحريق يوم القيامة.

الثالث : حاجة الناس لقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣) وما يدل عليه ليكون عصمة من الحزن والفرع ، وفي قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَلَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(٤) ، مواساة للفقراء ودعوة لهم للصبر وليس أعظم وأكبر مواساة من المواساة التي تأتي من عند الله وكل آية من القرآن بلسم وطمأنينة ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٥).

الرابع : تلاوة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٦) واقية للذات والذرية من قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٧).

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة البقرة ٢٧٧.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة ابراهيم ٤٢.

(٥) سورة الرعد ٢٨.

(٦) سورة الفاتحة ٥.

(٧) سورة آل عمران ١٨١.

فيتلو المسلم الآية القرآنية وهو لا يعلم ما تجلب له من الخير الوفير ، وما تدفع عنه من الشر والأذى للبركة الذاتية في الآية القرآنية ولأنه جريان لكلام الله على لسان العبد ، ولعمومات قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) .

وهل تكون تلاوة آيات القرآن بمرتبة واحدة في جلب الخير ودفع الشر والأذى أم أنها على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

الجواب هو الأول ، إذ تفتح كل آية قرآنية آفاقاً من الخير على العبد ، وتغلق عنه أبواباً من الشر لإتحاد الموضوع في تنقيح المناط ، فكل كلمة وآية من القرآن هي كلام لله عز وجل ، وقال تعالى ﴿فَاقرءُوا مَا يَسْرَرِينَا الْقُرْآنَ﴾^(٢) ، وأمر الله المسلمين بقراءة سورة الفاتحة وجاءت النصوص

النبوية بوجوب قراءتها في الصلاة ، وأدلة وجوب قراءتها كثيرة منها :
الأول : عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : من صلى صلاة فلم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاث مرات غير تمام^(٣) .

الثاني : وعن ابن عباس أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خرج فصلّى ركعتين لم يقرأ فيهما إلا بفاتحة الكتاب لم يزد على ذلك غيره^(٤) .

الثالث : عن عبادة بن الصّامت ، قال : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، قَالَ :

(١) سورة الرعد ٣٩ .

(٢) سورة المزمل ٢٠ .

(٣) الكشف والبيان ٥١/١ .

(٤) الكشف والبيان ٥٣/١ .

إِنِّي لَأَرَاكُمْ تَقْرَؤُونَ وَرَاءَ إِمَامِكُمْ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ وَاللَّهِ ، فَقَالَ : لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا^(١).

وذهب أبو حنيفة وطائفة من أصحابه والثوري والأوزاعي الى عدم وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة لإطلاق قوله تعالى ﴿فَاقرءُوا مَا تيسر من القرآن﴾^(٢).

وقال جمع من العلماء إنما تجب قراءتها في معظم الركعات.
وقال الحسن البصري إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات لإرادة كفاية القراءة مرة واحدة (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب).
ولكن الحديث أعلاه ورد بصيغة المضارع التي تفيد الإستدامة والتجدد ، نعم قد ورد بخصوص حج بيت الله الحرام قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣) وجاءت السنة النبوية القولية والفعلية ببيان كفاية المرة الواحدة فقد حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة مرة واحدة وهي حجة الوداع ولم يحج في سنة الفتح إذ كان فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة أي قبل أشهر الحج ، كما أنه لم يحج في السنة التاسعة ، التي تسمى (عام الوفود) لمجيئ وفود القبائل والأمصار إلى المدينة ، وهم يعلنون إسلامهم أو يطلبون المهلة ونحوها .

وعن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي

(١) تفسير الثعالبي ٩١/٢.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

كل عام يا رسول الله؟ قال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة فمن زاد فتطوع .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : لما نزلت { والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً }^(١) قال رجل : يا رسول الله أفى كل عام؟ قال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها ، ولو تركتموها لكفرتم . فذروني فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم واختلافهم عليهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتموه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه^(٢) .

ويكون تقدير آية البحث على وجوه :

الأول : إياك نعبد يا من سمعت قول الذين قالوا إن الله فقير .

الثاني : إياك نعبد يا من سمعت من فوق سبع سموات قولهم (ونحن أغنياء) .

الثالث : إياك نعبد يا من تكتب قول الذين قالوا ان الله فقير .

الرابع : إياك نعبد يا من تذيق الذين قالوا ان الله فقير عذاب الحريق .

إن آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣) ، كنز سماوي من بطنان العرش

لنجاة الناس من عبادة الأوثان ، فتلاوة المسلم لها عهد يقطعه على نفسه

بالإقبال على أداء الفرائض والواجبات وتقدير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوانين :

الأول : قانون اللهم إياك نعبد ولا نعبد سواك .

الثاني : قانون اللهم أنت رب العالمين فايك وحدك نعبد .

الثالث : قانون إياك نعبد طاعة لك سبحانه .

الرابع : قانون إياك نعبد شكراً وثناء عليك سبحانه .

(١) سورة آل عمران ٩٧ .

(٢) الدر المنثور ٣٩٠/٢ .

(٣) سورة الفاتحة ٥ .

- الخامس : قانون إياك نعبد وأنت وحدك الذي تستحق العبادة.
- السادس : قانون إياك نعبد رجاء رفدك وفضلك.
- السابع : قانون إياك نعبد دعوة للناس لعبادتك وحدك.
- الثامن : قانون إياك نعبد ونحطم الأصنام .
- التاسع : قانون إياك نعبد بما جاء به رسولك الكريم.
- العاشر : قانون إياك نعبد ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).
- الحادي عشر : قانون إياك نعبد باقامة الصلاة واتيان الزكاة وصيام شهر رمضان حج البيت الحرام.
- الثاني عشر : قانون إياك نعبد لأنك خلقتنا للعبادة.
- الثالث عشر : قانون إياك نعبد بلطف وفضل منك سبحانه.
- الرابع عشر : قانون إياك نعبد لحاجتنا لهذه العبادة.
- الخامس عشر : قانون إياك نعبد وهذه العبادة دعوة للناس للتنزه عن الشرك ومفاهيم الضلالة ، وفي خطاب وإنذار قرآني موجه الى الذين كفروا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾^(٢).
- السادس عشر : قانون إياك نعبد وهذه العبادة هي الصراط المستقيم.
- السابع عشر : إياك نعبد بما جاء به القرآن والسنة من الأحكام.
- الثامن عشر : قانون إياك نعبد ونقول أنت الغني.
- التاسع عشر : قانون إياك نعبد ولا نقول أنك فقير.
- العشرون : قانون إياك نعبد ونحن الفقراء إلى رحمتك.

(١) سورة غافر ١٤.

(٢) سورة العنكبوت ١٧.

الحادي والعشرون : قانون إياك ونتبرأ من قول ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا اللَّهُ فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ﴾ (١) .

الثاني والعشرون : قانون إياك نعبد لما كتبت علينا عبادتك.

الثالث والعشرون : قانون إياك نعبد وفي العبادة نجاة من عذاب الحريق.

الرابع والعشرون : قانون الحمد لك اللهم على هدايتنا وجعلتنا إياك وحدك نعبد .

الخامس والعشرون : قانون إياك نعبد نحن وأبنائنا إلى يوم القيامة .
لقد أبى الله عز وجل إلا أن تكون في كل زمان أمة تخلص العبادة إلى الله عز وجل ، وتتخذ طائفة غيرهم مفاهيم الشرك .

فتكون الأمة التي تعبد الله حجة عليهم ، وبرزخاً دون تماديهم في الضلالة والكفر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) .

السادس والعشرون : قانون إياك نعبد أمس واليوم وغداً .

السابع والعشرون : قانون إياك نعبد فارحمنا في النشاطين .

الثامن والعشرون : إياك نعبد فلا تجمعنا في الآخرة مع الذين قالوا ان الله فقير.

التاسع والعشرون : قانون إياك نعبد باقامة الصلاة خمس مرات في اليوم.

الثلاثون : إياك نعبد باتيان الزكاة والخمس .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

الحادي والثلاثون : قانون إياك نعبد بصيام شهر رمضان على نحو الوجوب العيني ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

الثاني والثلاثون : قانون إياك نعبد بحج بيتك الحرام وأداء المناسك كما أداها رسولك الكريم .

الثالث والثلاثون : قانون إياك نعبد بالإمتناع عن المعاصي والسيئات ، إذ أن هذا الإمتناع أمر وجودي ، وإذ قال جماعة (إن الله فقير ونحن أغنياء) فان المسلمين يتلون القرآن ويؤدون الفرائض ويقىمون على عبادة الله عز وجل.

الرابع والثلاثون : قانون إياك نعبد بتلاوة سورة الفاتحة.

الخامس والثلاثون : قانون إياك نعبد عداوة للشيطان وفي التنزيل ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾^(٢).

السادس والثلاثون : إياك نعبد وندعو الناس لعبادتك بالحكمة والموعظة الحسنة .

السابع والثلاثون : إياك نعبد ونصبر على أذى المشركين.

الثامن والثلاثون : إياك نعبد بأداء الصلاة وإتيان الزكاة.

التاسع والثلاثون : إياك نعبد وإن قال الذين كفروا إن الله فقير .

الأربعون : إياك نعبد وعليك تتوكل ، وفي التنزيل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٣).

الحادي والأربعون : إياك نعبد للنجاة من عذاب الحريق.

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) سورة الإسراء ٢٧.

(٣) سورة هود ١٢٣.

الثاني والأربعون : إياك نعبد بلطف ورحمة منك سبحانه.
 الثالث والأربعون : إياك نعبد ومن كفر فان الله غني عن العالمين.
 الرابع والأربعون : إياك نعبد وأنت الرزاق ذو القوة المتين.
 و(أصل العبادة في اللغة التذليل من قولهم: طريق مُعَبَّد : أي مُذَلَّل، بكثرة الوطء عليه، قال طرفة :
 تُباري عتاقاً ناجيات وأتبعَتْ ... وَظِيفاً وَظِيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدٍ)^(١).
 وعبادة الناس لله أعم من التذلل إذ تشمل كلمة والتوحيد أداء الفرائض والواجبات واجتناب ما نهى عنه الله عز وجل على لسان انبيائه وفي الكتب السماوية .
 ومن وجوه تقدير الآية : إياك نعبد كل يوم ونستعين بك في كل الأمور.

وقراءة (إياك) بتشديد الياء ، وعليه إجماع القراء وهو المرسوم في المصاحف ، وقرأ بعضهم أياك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقيل الفاتحة سر القرآن ، وسرها هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢)، إذ أن حصر العبادة بالله تنزه عن الشرك وعبادة الأوثان إلى يوم القيامة ، وهو من أسرار تلاوة المسلمين للآية كل يوم أما ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهو لجوء واستجارة بالله ، وتفويض الأمور إليه سبحانه ، وتبرأ من الحول والقوة.
 إن تلاوة كل مسلم ومسلمة لسورة الفاتحة واقية من الكفر والضلالة ومن التعدي في القول والفعل ، ليكون من معاني وجوب التلاوة على المسلمين تأديبهم وعصمة ألسنتهم من الزلل.

(١) المخصص ١٧٠/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٤/١.

وبعد أن ذكرت الآية من سورة الفاتحة إختصاص الله عز وجل بعبادة المسلمين له سبحانه عطف عليها الإستعانة به سبحانه بقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، إذ أن تقديم المفعول (إياك) للحصر والتعيين .

وتحولت لغة الكلام في الآية بعد صيغة الغائب (الرحمن الرحيم) إلى الإلتفات وصيغة الخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

وعن ابن عباس : (إياك نعبد) يعني إياك نوحّد ونخاف ونرجو ربنا لا غيرك (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها^(٣).

وقال قتادة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم^(٤).

والآية ثناء على المسلمين والمسلمات ، وشهادة من الله عز وجل لهم بصدق عبادتهم ، وقبوله سبحانه لهذه العبادة ، وفي الآية بشارة الأجر والثواب ، أي أن معنى الآية أظهر وأعم مراتب عما ذهب إليه قتادة والذي يكون في طول ثبوت وصدق عبادة المسلمين والمسلمات لله عز وجل.

ويدل قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على أن الله أمر المسلمين بالعبادة وأنهم أحسنوا الإمثال ، ويرجون فضل الله في أمور الدين والدنيا ، وهل فيه دليل على جواز العبادة لحاجات الدنيا والآخرة ، وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام : إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار،

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

(٣) الدر المنثور ٨/١ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/١٣٥.

وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار^(١).

الجواب لابد من قصد القربة في العبادة ، وتبين الآية أن عبادة المسلمين لله عز وجل خالصة لوجهه وأن الإستعانة معطوفة عليها وملحقة بها ، وتكون من عطف الخاص على العام.
وتقدير الآية على وجوه:

الأول : وإياك نستعين في أمور الدنيا ، وعن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله لك ، لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يكتبه الله عليك ، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف"^(٢).

الثاني : وإياك نستعين في أمور الآخرة والإستعداد ليوم القيامة بالعمل الصالح واكتناز الحسنات.

الثالث : وإياك نستعين في استدامة عبادتنا لك سبحانه.

الرابع : وإياك نستعين للمبادرة لدفع الزكاة والحقوق الشرعية.

الخامس : وإياك نعبد ونستعين على أداء الفرائض العبادية.

السادس : وإياك نستعين ولا نستعين سواك.

السابع : وإياك نستعين في دعوة الناس للتنزه عن عبادة الأوثان ﴿إِلَّا لِلَّهِ

الَّذِينَ الْخَالِصُونَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٣).

(١) البحار ١٤/٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٤/٧.

(٣) سورة الزمر ٣.

ولم يرد لفظ (نعبدهم) في القرآن إلا في الآية أعلاه وفيه توثيق لعبادة الأوثان قبل البعثة ، بشارة استئصالها من الأرض ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامن : وإياك نستعين ولا نقول (إن الله فقير).

التاسع : وإياك نستعين في حال الشدة والرخاء.

العاشر : وإياك نستعين إقراراً بالربوبية المطلقة لك وحدك سبحانه.

الحادي عشر : وإياك نستعين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني عشر : وإياك نستعين في حال الغنى والفقر.

الثالث عشر : وإياك نستعين للنجاة من عذاب النار.

الرابع عشر : وإياك نستعين ولا نقول (نحن أغنياء) إذ يدل قول (إياك

نستعين) على قانون إقرار المسلمين والمسلمات بالحاجة المستديمة والمتجددة إلى الله عز وجل.

الخامس عشر : وإياك نستعين وندعو الناس جميعاً للإستعانة بك

سبحانك.

السادس عشر : وإياك نستعين للوقاية من نزع الشيطان ، قال تعالى

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

السابع عشر : إياك نستعين للنجاة من عذاب الحريق الذي تذكره آية

البحث في خاتمها ، وهو خاص بالذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) لقد ثبت في

الفلسفة أن المتناقضين لا يجتمعان ، وعبادة الإنسان لله عز وجل واقية من عذاب النار.

(١) سورة فاطر ٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

وتفضل الله عز وجل وجعل المسلمين يعبدونه وحده ومن غير أن يشركوا به ، وهذه العبادة واقية من العذاب في الآخرة.

الثامن عشر : إياك نعبد وإياك نستعين للشرب من الحوض يوم القيامة ، وعن أنس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل . قلت : يا رسول الله أين أطلبك ، قال : أطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قلت : فإن لم ألقك على الصراط ، قال : فاطلبني عند الميزان .

قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ، قال : فاطلبني عند الحوض ، فإنني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن^(١).

التاسع عشر : إياك نعبد وإياك نستعين للعبور على الصراط يوم القيامة.

ويدل قوله تعالى ﴿وَأَيُّكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) ، على الإستعانة بالله للدفاع ومحاربة جيش المشركين الذين كرروا الهجوم على المدينة في معركة بدر وأحد والخندق ، وغارات عديدة على أطراف وزروع المدينة وسروح أهلها من الإلتفات في آية البحث أن الله عز وجل حينما اثنى على نفسه وبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين صار حضور رحمته في الوجود الذهني عند المسلمين دائماً لذا قال بصيغة الخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا يستغرق مجموع أداء فريضة الصلاة اليومية من المسلم إلا نحو نصف ساعة ، فجاء قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إخباراً عن حسن توكل المسلمين على الله في أمورهم كلها ، ولجوئهم إلى الله ، ورجاء رحمته ، في فواتيح الأعمال واستدامتها.

(١) الدر المنثور ٤/١٩٥.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

العشرون : إياك نستعين في حفظ القرآن ، وثبيت معالم الإيمان وتعاهد الأخوة الإيمانية .

الحادي والعشرون : إياك نستعين في اتيان الصالحات واجتناب السيئات وفي الصبر على أذى المشركين.

الثاني والعشرون : وإياك نستعين لحاجتنا لهذه الإستعانة ، لبيان قانون وهو لا يقدر الإنسان على تيسير أموره وقضاء حوائجه إلا بالإستعانة بالله عز وجل.

الثالث والعشرون : وإياك نستعين في بر الوالدين والإنفاق في سبيلك ، لقد أمر الله عز وجل بالإحسان الى الوالدين ، وقرن هذا الأمر بوجوب عبادته ، قال تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١).

الرابع والعشرون : وإياك نستعين في أداء الواجبات والمستحبات .
الخامس والعشرون : وإياك نستعين في التقرب إليك ، واستدامة ذكرك على الألسنة.

السادس والعشرون : وإياك نستعين باتخاذ الصبر مطية وجلباباً ، ولا يعلم ما دفع الله عز وجل عن المسلمين والناس بتحليهم بالصبر إلا هو سبحانه ، إذ تحملوا الأذى والضرر وفي كل معركة من معارك الإسلام الأولى تسقط كوكبة وطائفة من الصحابة ، ومع هذا لم ينتقم ولم يبطش النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمشركين ، ولم يياغتهم في مكة ، وهل من موضوعية لأداء المسلمين الصلاة والصوم على نحو الوجوب العيني في تنمية ملكة الصبر .

الجواب نعم ، وفي المرسل عن رجل من بني سليم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سبحانه الله نصف الميزان ، والحمد لله تملأ

الميزان ، والله أكبر يملاً ما بين السماء والأرض ، والظهور نصف الميزان ، والصوم نصف الصبر^(١).

السابع والعشرون : إياك نستعين لشرك والثناء عليك سبحانه ، وفي التنزيل حكاية عن سليمان ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢).

آية الهدى

لقد تفضل الله بقوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٣) ، وهذه الآية دعاء من العباد إلى الله عز وجل يصدر من كل مسلم ومسلمة عدة مرات ليكون حاضراً في أي قول أو فعل ، ومن الصراط المستقيم قراءة الآية أعلاه ، وآية البحث ويمكن القول أن كل آية من آيات القرآن خزينة وضياء على وجوه : الأول : قانون الآية القرآنية صراط مستقيم .

الثاني : قانون في الآية القرآنية دعوة إلى الصراط المستقيم في الدنيا .

الثالث : قانون كل آية قرآنية زاجر عن مجانبة الصراط المستقيم .

الرابع : قانون الآية القرآنية تذكير بالصراط المستقيم ، والفعل هدى وأهدنا يتعدى بنفسه كما في آية البحث ، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾^(٤).

(١) الدر المنثور ٢/١ .

(٢) سورة النمل ١٩ .

(٣) سورة الفاتحة ٦ .

(٤) سورة الأعراف ٤٣ .

ويتعدى بالى كما في قوله تعالى ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، والصراط المستقيم أي الطريق الواضح الخالي من الإعوجاج ، واستعير في كل قول وعمل سالم من الخطأ والضلالة والإعوجاج. ومن الإعجاز في اللفظ القرآني أنه يجمع بين المعنى اللغوي والمجازي المتعدد لتترشح عنه العلوم وتقتبس منه الناس الأحكام بخصوص المسائل المستحدثة.

وجاءت الآية بصيغة الجمع (اهدنا) مع الإتحاد في الصراط وليس في صيغة الجمع (اهدنا) تفخيم وتعظيم لأنها صادرة من مقام العبودية والخشوع ، إنما جاءت لوجوه :
الأول : دعاء المسلم لنفسه وأهله وأصحابه.

الثاني : الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، فمن مصاديق الأخوة بين المسلمين دعاء بعضهم لبعض.

الثالث : دعاء المسلم لذريته وبنائه بالهداية الى الصراط المستقيم ، وتقدير الآية : اللهم اهدني وعيالي وأولادي وذريتي إلى الصراط المستقيم ، ليولد المسلم وقد سبقه الدعاء المتكرر بالهداية ، والهداية في الآية على وجوه:

الأول : الرشاد ، والإرتقاء في المعارف ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

الثاني : التوفيق.

(١) سورة المائدة ١٦.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

(٣) سورة الزمر ١٨.

الثالث : معرفة الحق واتباعه ، وتشخيص الباطل واجتنابه .

الرابع : الهداية الى القول والعمل الموصل إلى العبودية على الصراط المستقيم في الآخرة .

الخامس : اهدنا للعمل بأحكام القرآن والتنزيل .

السادس : اهدنا الصراط المستقيم في العبادات والمعاملات والأحكام.

لقد جاءت الآية السابقة من سورة الفاتحة (إياك نعبد وإياك نستعين)

ومن الإستعانة سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم والنهج القويم وبين الإستعانة والهداية إلى الصراط المستقيم عموم وخصوص من وجه ، وأن موضوع الإستعانة مطلق يشمل أمور الدين والدنيا وفيه العون والمدد وتقريب إلى العمل الصالح ، وتنحية عن السيئات ، وبعث للنفرة في النفس منها .

أما الهداية للصراط فانها ارشاد في ذات الأمر ، وتبصرة بالأمور ، والأخذ باليد حتى اتيان ما يجب اتيانه واجتناب ما يجب الإمتناع عنه ، ومن وجوه الجمع بين الآيتين : إياك نعبد وإياك نستعين فاهدنا الصراط المستقيم ، ليكون البيان من جهات :

الأولى : لأننا نعبدك اللهم ولا نشرك بك شيئاً ففضل علينا بالهداية.

الثانية : لما هديتنا للعبادة تذوقنا طعم لذتها وتجلى لنا حسناتها فنسألك

الهداية إلى الصراط المستقيم ، ومن خصائص الإستقامة صبغة الفطرة الإنسانية.

الثالثة : بيان قانون وهو بعد التوفيق للعبادة يأتي سؤال الهداية

والرشاد ، وفي الجمع بين آية العبادة والهداية إلى الصراط يتجلى قانون : تعقب الدعاء للفريضة.

وفيه دعوة للمسلمين بالدعاء بعد انقضاء الفريضة لحوائج الدين

والدنيا ، سواء كانت فريضة الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة ، قال

تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾^(١)، وفي البصيام قال تعالى ﴿وَتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾^(٢)، وفي حج بيت الله الحرام مع لزوم الذكر مطلقاً قال تعالى ﴿ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٣)، لذا فإن الذين ذكرتهم آية البحث ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) حرموا أنفسهم من النعم من جهات :

الأولى : نعمة العبادة.

الثانية : نعمة الدعاء المتعقب للعبادة والذين يدل عليه مجئ قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٥)، بعد الآية ﴿يَا كُفَّيْ وَيَا كُفَّيْ وَيَا كُفَّيْ﴾^(٦).

الثالثة : نعمة الشكر لله عز وجل على السعة والغنى وكثرة المال.

الرابعة : نعمة السلامة والعصمة من الجحود والتعدي.

ووردت نصوص في تعقب الدعاء للفريضة منها ، وعن الإمام علي عليه السلام قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ بَعْدَ الصَّلَاةِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَصَلَّاتُهُمْ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارحمه وإن جلس ينتظر الصلاة صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَصَلَّاتُهُمْ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارحمه^(٧).

(١) سورة النساء ١٠٣.

(٢) سورة البقرة ١٢٥.

(٣) سورة الأحزاب ٤١.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة الفاتحة ٦.

(٦) سورة الفاتحة ٥.

(٧) مسند أحمد ١٦٢/٣.

ويأتي أحياناً الدعاء بعد الفريضة بصيغة التعقيب ، والجلوس في المصلى ، إلى جانب قانون وهو : كل عبادة دعاء.

ومن العبادات من يتخللها الدعاء كما في دعاء الصائم إذ ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم^(١) ، وفي الحج ورد قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾^(٢) ، وتقدير الآية فاذكروا الله عند المشعر الحرام كما ذكرتموه في عرفات ، ولييان إتصال الدعاء وذكر الله في كل مناسك الحج ، وجاء التوكيد في أيام التشريق بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾^(٣).

ومن الإعجاز في ذكر العبد لله عز وجل أنه مصداق للعبادة ، وباعث على اتيان الفرائض ، ومنها دفع الزكاة ، وذكر الله تأديب وعصمة من حبس الزكاة.

وهل ذكر الله من الصراط المستقيم الذي ورد في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الجواب نعم ، وتقدير الآية : إهدنا ذكرك وتسيحك ، ومن وجوه تقدير الآية وجوه :

الأول : اهدنا الصراط المستقيم في العبادة والنسك.

(١) صحيح ابن حبان ٣٥٦/١٤.

(٢) سورة البقرة ١٩٨.

(٣) سورة البقرة ٢٠٣.

الثاني : إهدنا الصراط المستقيم الذي كان علي الأنبياء ، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(١).

الثالث : اهدنا النهج القويم في العبادات والمعاملات.

الرابع : اهدنا العمل باحكام القرآن ، فمن معاني الصراط القرآن وعن الإمام علي عليه السلام قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن قلت : وما المخرج منها ، قال : كتاب الله . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل وليس بالهزل ، وهو جبل الله المتين ، وهو ذكره الحكيم ، وهو الصراط المستقيم^(٢).

الخامس : بيان قانون وهو أنه لا يقدر على هداية الناس إلى الصراط المستقيم إلا الله عز وجل.

فكما جاءت الآية السابقة بالإخبار عن عبادة المسلمين لله عز وجل وحده ، فإن آية الصراط تخبر عن قانون وهو حصر واختصاص الهداية إلى الصراط المستقيم بالله عز وجل ، ليكون من معاني الآية مسائل :

الأولى : الثناء على الله عز وجل .

الثانية : تفقه المسلمين في الدين.

الثالثة : بيان تعدد الطرق وسبل العمل في الحياة الدنيا

، وعن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ،

(١) سورة الأنعام ٨٩.

(٢) الدر المنثور ٩/١.

ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال :
وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم
قرأ ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَن سَبِيلِهِ﴾ (١)(٢).

الرابعة : حاجة الناس إلى رحمة الله عز وجل في تقويم الفعل
والسلوك.

السادس : إهدنا العبور على الصراط المستقيم في الآخرة .

السابع : إهدنا اتباع نهج النبي محمد.

الثامن : إهدنا الإيمان والثبات على سنن النبوة ، وفي التنزيل
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ﴾ (٣).

التاسع : إهدنا الصراط المستقيم في الصبر على أذى المشركين ، مثلما
صبر الأنبياء من قبل ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا
كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِإِ
الرُّسُلِينَ﴾ (٤).

العاشر : إهدنا الصراط المستقيم في حسن التوكل عليك.

(١) سورة الأنعام ١٥٣.

(٢) الدر المنثور ٤/١٦٣.

(٣) سورة الحجرات ١٤.

(٤) سورة الأنعام ٣٤.

الحادي عشر : اهدنا الصراط المستقيم في الرد على الذين قالوا

﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١).

الثاني عشر : اهدنا الصراط المستقيم في الأمر بدفع الزكاة والنهي عن

حبسها.

الثالث عشر : اهدنا الصراط المستقيم فيما تسمعه منا ، إذ

ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢).

ويدل قولهم هذا على أنهم ليسوا على الصراط المستقيم ،

فيتوسل كل مسلم ومسلمة سبع عشرة في اليوم بالله عز وجل بأن

يجعلهما على الصراط المستقيم ، وهو صراط أداء الصلاة والزكاة

والفرائض العبادية الأخرى ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ

إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٣) ، ومن الصراط

المستقيم بلحاظ آية البحث وجوه :

الأول : التسليم بأن الله عز وجل يسمع كل الأصوات ، والإقرار بأن

الأصوات كلها حاضرة عنده.

الثاني : الحرص على عدم سماع الله والناس إلا ما فيه ذكر ونفع ،

وصحيح أن هذا الحرص كيفية نفسانية إلا أنه أمر وجودي وصراط

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الطلاق ٢-٣.

مستقيم، ومن الصفات التي ينفرد بها الله عز وجل أنه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(١).

الثالث : من الصراط المستقيم استهجان قول الجاحدين ﴿إِنْ أَلَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

الرابع : اهدنا الصراط المستقيم بدم قول ﴿إِنْ أَلَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

الخامس : اهدنا الصراط المستقيم بالإمتناع عن الركون والميل إلى الذين (قالوا ان الله فقير) قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٤).

السادس : اهدنا الصراط المستقيم بالعصمة والحيلة من إتخاذ (الذين قالوا ان الله فقير) بطانة ووليعة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥).

السابع : اهدنا الصراط المستقيم لأننا نقول انك الغني الحميد .

(١) سورة طه ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة هود ١١٣.

(٥) سورة آل عمران ١١٨.

آية صراط الدين

يبين قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١) أن شطراً من أهل الأرض أنعم الله عليهم ، ويدل ظاهر الآية على أن موضوع الآية هو النعمة في الدين والتقوى لتعلق الموضوع بالصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة ، ويقع في طوله الرزق الكريم والطمأنينة وراحة البال.

وتدل الآية على أن الذين قالوا (ان الله فقير) ليسوا من الذين أنعم الله عليهم ، مع أنهم أغنياء من جهة كثرة الأموال.

وتبين الآية أن المؤمن الفقير في نعمة عظيمة لأنه يتبع الصراط المستقيم بالعمل بأحكام الشريعة ، فان قلت المال نعمة ، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢) ، وقال تعالى ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٣).

والجواب نعم ، المال نعمة ولكن الجاحدين جعلوه بلاء وسبباً للصدود والتعدي والظلم ، فنزلت آية البحث ليتعاهد الناس نعمة المال بالشكر لله عز وجل وإخراج الزكاة والحقوق الشرعية.

وذكرت الآية أعلاه من سورة الفاتحة المغضوب عليهم وأن صراطهم غير مستقيم ويؤدي إلى الضرر والإضرار بأصحابه ، وهل (الذين قالوا أن الله فقير) من المغضوب عليهم.

الجواب نعم ، ويدل عليه ظلمهم بالقول والفعل ، أما القول فلنسبتهم الفقر إلى الله ، ولعتوهم وجحودهم ، وأما الفعل فلامتناعهم عن دفع

(١) سورة الفاتحة ٧.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

(٣) سورة التكاثر ٨.

الزكاة والحقوق الشرعية وتدل خاتمة الآية على سوء عاقبتهم بلبثهم في النار .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : من الإعجاز في نظم القرآن تقدم آية السياق على آية البحث إذ تخبر آية السياق عن عدة قوانين :

الأول : قانون نفى ظن الذين كفروا بأن الخير الذي في أيديهم هو خير لهم .

الثاني : قانون إملاء الله عز وجل للذين كفروا .

الثالث : قانون إزدياد آثام الذين كفروا مع توالي النعم عليهم .

الرابع : قانون للكاافرين عذاب مهين .

ترى ما هي النسبة بين الذين كفروا الذين تذكرهم آية السياق والذين ذكرتهم آية البحث ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ فَاقْرَئْ وَتَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) .

المختار ان النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق ، وأن الذين كفروا أعم وأكثر ، ومن دلائل الإعجاز في نظم القرآن وأنه توقيفي تقدم آية السياق التي تتضمن أموراً منها فضل الله عز وجل الله الذين كفروا مع جحودهم وإصرارهم على الكفر .

وهل تدل الآية على إملاء الله عز وجل للمؤمنين ، الجواب نعم ، من باب الأولوية القطعية ، لبيان أن الحياة الدنيا دار الإملاء على الناس إذ

(١) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

يشكر المؤمنون الله عز وجل وأما الذين كفروا فأنهم يحسدون بالنعم ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١).

المسألة الثانية : لقد صارت طائفة من الذين كفروا أغنياء وهو من مصاديق الإملاء فتوجه لهم الخطاب بدفع الزكاة .

وهذا الخطاب عام للناس جميعاً يتحقق وجوبه على الأغنياء ، فصاروا على طوائف :

الأولى : الذين يبادرون إلى دفع الزكاة وهم المؤمنون .

الثانية : الذين امتنعوا عن دفع الزكاة .

الثالثة : الذين يرجئون دفع الزكاة .

الرابعة : الذين لم يكتفوا بالإمتناع عن دفع الزكاة إنما قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ

فَقِيرٌ﴾ وقالوا ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ بالتباهي بحال الغنى التي يتصفون بها لإرادة

الفتنة والدعوة إلى الكفر ، قال تعالى ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ لَكِ الْأُمُورُ

حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٢).

وهل نزول آية البحث من الحق الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب

نعم.

وذكرت الآية السابقة الطائفة الثانية أعلاه ، لأن إرجاء دفع الزكاة لا

يدل على الكفر والضلالة على نحو الحصر والملازمة ، وذكرت آية البحث

خصوص الطائفة الرابعة الذين امتنعوا عن دفع الحقوق الشرعية وتعدوا

على الذات الإلهية بغير حق مثلما كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق لتجمع آية

البحث بين ذم المعصية بالقول والمعصية بالفعل ، من ذات الطائفة ، لذا

أختتمت آية البحث بالإخبار عن سوء عاقبة هؤلاء الكافرين وإخبار الله

(١) سورة البقرة ٢٤٣.

(٢) سورة التوبة ٤٨.

عز وجل نفسه عن قانون ﴿وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فالله عز وجل الذي رماه الذين كفروا بالفقر هو الذي يعذبهم بالنار ، ويرد على قولهم في الدنيا بأن الله فقير.

المسألة الثالثة : أخبرت آية السياق عن الإملاء للذين كفروا .
والمراد من الإملاء الإفضال والإحسان ومن وجوه الإملاء للذين كفروا :

الأول : إستدامة حياة الذين كفروا وعدم مؤاخذه الله عز وجل لهم على كفرهم .

الثاني : اليسر في طلب الرزق وتهيئة أسباب ومقدمات الكسب .
الثالث : من الإملاء الصحة والعافية ، وكثرة الولد ، قال تعالى ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

الرابع : كثرة المال والثمار ، بما يفوق النصاب ، فيتعلق به حق الله وحق الفقراء .

الخامس : صرف صفوف البلاء والشر ، فمن الإعجاز في قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) أن الله عز وجل يمحو ضرراً من البلاء عن كل إنسان ، وهو من مصاديق صفة ﴿الرحمن﴾ لله عز وجل ، إذ ينتفع منها البر والفاجر.

(١) سورة المؤمنون ٥٥-٥٦.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

فمن لطف الله عز وجل بالناس أن الذين يحجبون حقوق الفقراء ، ويمتنعون عن دفع الزكاة والخمس يتفضل عليهم الله فيمحو عنهم الأذى والشر ، وهل هذا المحو من مصاديق قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ (١) .

المختار أن هذا المحو على وجوه :

الأول : إنه رأفة من الله عز وجل .

الثاني : هو من مقدمات التوبة والحث عليها .

الثالث : إنه من الشر الذي ذكرته آية السياق ، ومن الإمهال ، لقد

جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الرحمة والإمهال .

الرابع : فيه استدراج للذين كفروا بعد أن أصرروا على المعصية

وامتنعوا عن شكر الله بالقول والعمل ، قال تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ

بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ﴾ (٢) .

وهل يختص قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكِتَابِ﴾ (٣) ،

الدنيا أم أنه يشمل عالم الآخرة ، المختار هو الثاني ، وفيه وجوه :

الأول : المحو في الدنيا أكثر منه في الآخرة .

الثاني : التساوي في المحو بين الدنيا والآخرة .

الثالث : المحو في الآخرة أكثر منه في الدنيا .

والمختار هو الثالث لوجوه :

الأول : سعة رحمة الله في الآخرة .

الثاني : إستدامة الحياة في الآخرة والخلود فيها .

(١) سورة الرعد ٣٩ .

(٢) سورة ن ٤٤-٤٥ .

(٣) سورة الرعد ٣٩ .

الثالث : فتح باب الشفاعة في الآخرة .

وتعداد الشفعاء بفضل واذن من الله عز وجل ، قال سبحانه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١) ، وعن جابر بن عبد الله قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} فقال : إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي^(٢).

وتبين آية السياق أن الإماء للذين كفروا من فضل الله فصار شراً للكفار بما كسبت أيديهم ، ولا ملازمة بين هذا الإماء وبين الشر ، ولكن الذين كفروا لم يشكروا الله على النعم ، ومن وجوه الشكر التي تشير إليها آية البحث والآية السابقة اخراج الحقوق الشرعية ، ولكنهم امتنعوا عن إخراجها فصار الإماء وحال الغنى شراً لهم .

كما ورد في القرآن قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾^(٣) ، وجاء بيان الموضوع والحكم المأمور بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٤) ، فيكون تقدير الآية : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها بالعدل والإحسان ، ولكنهم فسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً .

وهل هو من القياس مع الفارق ، الجواب لا ، لأن الأصل في الإماء والعون واللطف من عند الله هو الخير والنفع الخاص والعام ، ولكن إختيار الكفر برزخ وحائل دون هذا النفع لما فيه من تسخير هذا الإماء بمعصية الله .

(١) سورة الأنبياء ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥٦/٧.

(٣) سورة الإسراء ١٦.

(٤) سورة النحل ٩٠.

المسألة الرابعة : من الشر الذي ذكرته آية السياق قول الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وهو شر على قائله في الدنيا وفي الآخرة .

أما في الدنيا فمن جهات :

الأولى : نزول آية البحث والتي تتضمن توثيق قول الذين كفروا من عند الله والذي يدل بالدلالة التضمنية على حضوره يوم القيامة .

الثانية : معاني الكتابة في المقام الشهادة ، وتقدير الآية : سنكتب ما قالوا لتحضر هذه الكتابة يوم القيامة .

الثالثة : إخبار آية البحث المسلمين والناس جميعاً عما قاله الذين كفروا ليكون خزيًا وعاراً لهم .

الرابعة : انتفاء البركة من أموال الذين كفروا لأنها مصاحبة لدفع الزكاة وإخراج للمال إصابة له بالنقص إلا أن الزكاة لها خصوصية البركة لجعل النماء في المال ، ويقال زكى يزكو زكاة إذا كثر وزاد ونما .

لقد جعل الله عز وجل المال زينة ورحمة وعوناً للناس في أيام حياتهم ، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(١) ، وهي حرز للبنين والأولاد ، ولكن الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ جحدوا بنعمة الزينة في الدنيا والآخرة والزكاة من أظهر

الباقيات الصالحات ، ليكون من وجوه تقدير ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٢) ، أي خير عند ربك لذات الذي يدفع الزكاة ولأولاده وذريته في النشاطين ، إنه يسن سنة لهم بوجوب دفع الزكاة ويبين ملازمتها للصلاة ، فان قلت قد ورد

(١) سورة الكهف ٤٦ .

(٢) سورة الكهف ٤٦ .

عن ابن عباس في قوله ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله . والله أكبر^(١).

ليان قانون وهو ان القائلين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) خسروا الدنيا والآخرة ، وهذا الإطلاق بالخسران من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنَكُتُبُ﴾ وتأتي الكتابة في القرآن بمعنى الفرض والواجب كما في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣). وجاءت الكتابة بمعنى الفرض بصيغة المبني للمجهول لبيان قانون وهو لا يقدر على هذه الكتابة والفرض إلا الله عز وجل ، وتكون الكتابة سابقة لزمان الفعل ، والكتابة بمعنى التدوين الواردة في آية بصيغة الفعل المعلوم وبلغة المستقبل ﴿سَنَكُتُبُ﴾.

المسألة الخامسة : لقد بينت آية السياق والبحث وجود طائفة من الناس يتصفون بالغنى وكثرة الأموال من جهات :

الأولى : الإلتصاف بالبخل والإمساك لقوله تعالى ﴿وَلَا يَخْسَبْنَ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤) فلا يوصف الفقير بالبخل لانعدام المال عنده.

(١) الدر المنثور ٦/٣٦٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

و(في ترتيب أوصاف البخيل رجل بخيل ثم مسك إذا كان شديد الإمساك لماله، عن أبي زيد ثم حلز إذا كان ضيق النفس شديد البخل، عن أبي عمرو. ثم شحيح إذا كان مع شدة بخله حريصاً، عن الأصمعي ثم فاحش إذا كان متشدداً في بخله، عن أبي عبيدة ثم حلز إذا كان في نهاية البخل، عن ابن الأعرابي) (١).

ولم يعلم البخيل أن دفعه الزكاة والحقوق الشرعية يرجع عليه بالنفع لأنه يسبب كثرة الشراء وتعدد معاملات البيع والإجارة والهبات والقروض وغيرها.

ويبعث على استقرار المجتمعات ، وخفض الجريمة ، والزكاة حرب على الأخلاق المذمومة.

ليكون من معاني ﴿هُوَ شَرُّهُمْ﴾ في إمساك الحقوق الشرعية تعطيل الأسواق بحبس الأموال وخبزها والإمتناع عن إخراجها ودفعها إلى مستحقيها .

الثانية : الأموال التي عند الناس هي من فضل الله من وجوه :

الأول : كيفية جمع الأموال .

الثاني : إزالة الموانع عن جمع الأموال .

الثالثة : علم الله عز وجل بأن هؤلاء ستكون عندهم أموال ويصبحوا أغنياء ، وأنهم سيحبسون الحقوق الشرعية ، ونصيب الفقراء فيها ، ليستولي الندم على هؤلاء الأغنياء يوم القيامة قال تعالى ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٢١﴾ .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة ن ٢٩-٣١.

الرابعة : بيان آية السياق لقانون وهو حبس الزكاة شر محض .
الخامسة : سوء عاقبة الذين يمنعون الحقوق الشرعية وصيرورتها أفاعي تطوق أعناقهم يوم القيامة .

السادسة : عودة كل أموال الدنيا ميراثاً لله عز وجل ، فسواء أخرج الإنسان زكاته أو لم يخرجها فانها ترجع إلى الله ، ويبقى الأجر والثواب على إخراجها ودفعها إلى مستحقيها .

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً رسولاً للناس في بطن مكة فحاربه أرباب الأموال وذوو الجاه العريض لأنهم كانوا يعبدون الأوثان ، وتلقوا الأمر الإلهي بالصلاة والتزهد عن الشرك بالسخرية ، وأرادوا منعه من تبليغ رسالته ، ولكنه أظهر الثبات في التبليغ ، ورغب بالثواب العظيم الذي يترتب على أداء الفرائض ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الطيب إلا أخذها الرحمن يمينه وإن كانت ثمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله ، لفظ مسلم والبخاري : من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله^(١) .

وقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم باداء الصلاة جهره في المسجد الحرام ، وتوالي نزول آيات القرآن عليه ، فاشتد إيذاؤهم له ولأهل بيته وأصحابه ، ثم قرر رؤساء الشرك قتله وأجمعوا على الإجهاز عليه في فراشه .

فنزل جبرئيل في ذات الليلة التي اختاروا فيها عشرة من شبابهم ليضربوه ضربة رجل واحد ويتفرق دمه على قبائل قريش ، فهاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وبنى فيها مسجده الذي بقى صرحاً شامخاً يزوره ملايين المسلمين كل عام وإلى يوم القيامة ، ويعرجون على قبر

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسلمون عليه ليرد عليهم التحية والسلام ، وفيه نصوص مستفيضة تبعث مجتمعة ومتفرقة الشوق في نفس المسلم والمسلمة لزيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قرب أو عن بعد من الأمصار ، (عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة) ^(١).

وعاش المهاجرون في بدايات الهجرة حالة من العوز والفاقة ، وضائق بهم أزقة المدينة .

ولم تمر الأيام والليالي حتى تدفقت الأموال على المدينة ، وكثرت الزراعة والثمار وازدهرت التجارة فيها ، فنزلت آية الصدقات ، وهل انتفع يهود المدينة من هذه الثورة الاقتصادية التي لم تشهد مثلها مدينة يثرب في تاريخها .

الجواب نعم ، وعمرت أسواق المدينة للملازمة بين كثرة الأموال والنشاط الاقتصادي وأنشأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سوقاً في المدينة إلى جانب أسواقها الأخرى ، ومن أشهرها :

الأول : سوق زبالة .

الثاني : سوق النبط ويسمى أيضاً سوق النبط .

وقد أختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم موضعاً ليكون سوقاً (عن أبي أسيد أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، إني قد رأيت موضعاً للسوق، ألا تنظر إليه.

قال : بلى، فقام معه حين جاء موضع السوق فلما جاء أعجبه، وركضه، برجله، وقال: نعم سوقكم، فلا ينقض ولا يضربن عليكم خراج.

ورواه ابن ماجه بلفظ: ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى سوق النبيط فنظر إليه، وقال ليس لكم هذا بسوق، ثم ذهب إلى سوق، فقال: هذا ليس لكم بسوق، ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه، ثم قال: هذا سوقكم، فلا ينتقض ولا يضرب عليه خراج^(١).
وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (كان إذا دخل السوق قال باسم الله اللهم إني أسألك من خير هذه السوق)^(٢).

الثالث: سوق الجسر.

الرابع: سوق صفاف.

الخامس: سوق مزاحم.

وأداء الناس الزكاة والحقوق الشرعية وإفشاء الصدقات والإحسان من الشكر لله عز وجل على بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

لقد ظن كبار رجالات قريش أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسبب كساد تجارتهم، ولم يعلموا أنها سبب لإزدهار التجارة في أرجاء المعمورة إلى جانب فضل الله في إخراج كنوز الأرض، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٨/٩.

(٢) الشمائل الشريفة ١٣٣/١.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

الوجه الثالث : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يُضْرَبُوا اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).
وفيه مسائل :

المسألة الأولى : جاءت كل من آية البحث والسياق بصيغة الجملة الخبرية ، ومن الإعجاز في الجمع بينهما بيان كل من الآيتين لحال وخصال الذين كفروا ، وتختتم كل منهما ببيان ما يلقون من العذاب يوم القيامة .
لقد ذكرت آية السياق الذين كفروا ، وذكرت آية البحث الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وتحتل النسبة بينهم وجوهاً :
الأول : نسبة التساوي ، وإن المقصودين في آية البحث هم أنفسهم الذين ذكرتهم آية السياق .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهي على شعبتين :
الأولى : الذين اشتروا الكفر بالإيمان أعم وأكثر من الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الثانية : الذين قالوا إن الله فقير أعم وأكثر من الذين اشتروا الكفر بالإيمان.

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، وأن هناك مادة للإلتقاء بين الآيتين ، وأخرى للإفتراق بينهما .

الرابع : نسبة التباين بين الذين ذكرتهم آية السياق والذين ذكرتهم آية البحث .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، فليس كل الذين اشتروا الكفر بالإيمان يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١).

ليكون حال الفقر التي هم عليها برزخاً دون قولهم (إن الله فقير ونحن اغنياء) ولعل هؤلاء الفقراء من الكفار ، لو كانوا أغنياء لقالوا ما هو أشد قبحاً من قول هؤلاء الأغنياء .

والمختار أن نظم القرآن توقيفي ، وأن جبرئيل كان يقول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل بآية قرآنية وضعها بين الآية كذا والآية كذا.

ترى لماذا قدم القرآن الآية الأعم على الآية الأخص ، الجواب من وجوه :

الأول : بيان حال الطائفة التي لا تقر بالتوحيد وتنكر النبوات كمقدمة لذكر الذين يتمادون بالجحود والعتو منهم .

الثاني : حث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين على الصبر ، وتحمل الأذى الذي يأتي من الذين كفروا مجتمعين ومتفرقين ، وهل في قول الطائفة الأقل من الكفار ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، تحريض لعامة الكفار على التماذي في الكفر أو لا أقل البقاء عليه ، الجواب نعم ، لذا أختتمت الآية بالوعيد بالعذاب الأليم لهم ، وفي قوله تعالى ﴿كَلَّمَآ أَرَادُوآ أَن يَخْرُجُوآ مِنْهَا أُعِيدُوآ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾^(٣) ، قيل أن شدة لهب النار ترفعهم ، حتى يكادون يرمون

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة السجدة ٢٠.

خارج النار ، فتقوم الملائكة خزنة النار بضربهم بمقامع حديد لتردهم إلى قعرها.

الثالث : حضور القانون العام الذي ذكرته آية السياق ﴿لَنْ يُضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(١) ، مع مضامين آية البحث وفيه مواساة للمؤمنين .

الرابع : تفقه المسلمين في الدين ، وإختيار صيغ الجدل المناسبة ، لكل من الطائفتين مع إتحاد أصل الموضوع وهو لزوم أداء الصلاة والزكاة ونبذ الكفر والظلم للذات.

المسألة الثانية : إبتدأت كل من الآيتين بصيغة التوكيد إذ إبتدأت آية السياق بالحرف المشبه بالفعل (إن).

وابتدأت آية البحث بلام التأكيد مع حرف التحقيق (لقد) لبيان التطلع في مضامين كل من الآيتين .

فلا يأتي بعضهم في أي أفراد الزمان المتعاقبة ، ويقول لم نسمع أحداً يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَمَنْ خُنَّ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) بلحاظ كبرى كلية وهي أن ذكر الآية لهذا القول حرب إستصال له من المجتمعات ، وهو من إعجاز القرآن والشواهد على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت بالسيف ، وفي التنزيل ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٣) ، إنما جاء بالحجج والبراهين السماوية التي يتجلى معها الحق ويندحر الباطل ، وذات تلاوة آية البحث تهذيب للألسن ، وحرب على مفاهيم الضلالة ، إذ تبين أن الله يسمع من فوق سبع سماوات ما يقوله الناس في مجالسهم الخاصة ، وفي بيوتهم ، مما يدل على أنه سبحانه يسمع الذين يتلون آيات

(١) سورة آل عمران ١٧٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الإسراء ٨١.

التزليل ويرى مكانهم ، ويشيهم عاجلاً وآجلاً ، ومن معاني صيغة التوكيد في الآيتين أمور :

الأول : قبح إختيار فريق من الناس الكفر .

الثاني : أخذ الحيلة من وجود أمة كافرة .

وذكرت آية السياق شراءهم للكفر على نحو الإطلاق في موضوعه من غير تعيين لكفر مخصوص ، ومع عدم وجود قرينة صارفة فالأصل الإطلاق ، وتقدير الآية : إن الذين اشتروا الكفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر بالإيمان .

الثالث : قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) كفر وضلالة واتباع للهوى ، قال تعالى

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

الرابع : شدة عذاب الذين قالوا (إن الله فقير ونحن أغنياء).

الخامس : من إعجاز القرآن عدم إكتفاء آية السياق بالإخبار عن شراء

الذين كفروا الكفر ، إنما ذكرت تفريطهم بالإيمان ، وجعلهم تركه وهجرانه ثمناً وعوضاً للكفر ، مما يدل على أن الأصل في خلق وفطرة الإنسان هو الإيمان.

إنه شراء يختلف عما يجري بين الناس من البيع والشراء ، إذ يكون هناك قبول وإيجاب وبائع يقبض الثمن ، ومشتري يأخذ ويتملك العين المشتركة .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة القصص ٥٠.

أما شراء الكفر فليس من بائع للإيمان ولا يستطيع أحد من الخلق أن يقبض الثمن ، فكل إنسان له فرد مختص به من الإيمان ، فاما أن يتعاهده ، وأما أن يبقى معلقاً حجة عليه في الدنيا والآخرة.

فمن معاني قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾^(١) وجود هذا الفرد من الإيمان الذي يخص كل واحد منهم.

ومن معاني عدم قبض أحد له فرصة التدارك والتوبة ليعود ذات الإيمان لصاحبه ، فهو قريب منه في الحياة الدنيا تتعاون الآيات الكونية والشواهد معه من أجل عودة صاحبه له ، ويقربه الله عز وجل بلطفه من صاحبه في حال السراء والضراء.

ومنه آية البحث إذ تتضمن الإخبار بأن الله يسمع قول الذين كفروا لزجرهم عن الكفر ، وبعث الخوف في نفوسهم من الإقامة في مستنقع الضلالة والإصرار على الجحود ، ويحمل شراء الكفر على الاستبدال والإختيار ، وفي التنزيل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

وفي البيع هناك مفهوم التسويق لا يصال الحاجات للذين يطلبونها ، ومفهوم التسويق المجتمعي لتحديد احتياجات السوق المقصودة ، وتلبية هذه الاحتياجات بأسعار غير مكلفة .

وليس في شراء الكفر من تسويق ، ولا يطلبه أحد ، إنما هو كابوس على صاحبه ، ففي عملية البيع والشراء أن الذي يشتري عيناً يستطيع بيعها بذات الثمن أو أقل أو أكثر منه ، أما الذي يشتري الكفر فلا أحد يشتريه

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) سورة لقمان ٦.

منه ، وحتى الشيطان الذي اغواه سرعان ما يتبرأ منه ، إذ يقول للإنسان أكفر فلما كفر ﴿قَالَ إِنِّي بِرَبِّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

المسألة الثالثة : من الإعجاز في آية السياق أنها مع قلة كلماتها تبين عدة

قوانين وهي :

الأول : شراء الذين كفروا الكفر والجحود ، وفيه شاهد على قانون وهو أن الأصل في خلق الإنسان هو الإيمان وهو دين الفطرة .

الثاني : قانون المشقة في طلب الكفر ومن يختاره من الناس لن تجده حاضراً عنده ، فلا بد أن يسعى إليه وبذل الجهد والمال ويفرط بأسمى شئ في الوجود وهو الإيمان ، وفي قصة هارون وماروت وتعليم السحر ورد قوله تعالى ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فُتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(٢).

ولم يرد كل من لفظ ﴿هَارُوتَ﴾ ﴿مَارُوتَ﴾ ﴿نَحْنُ فُتْنَةٌ﴾ ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

الثالث : تفريط الذي يختار الكفر بالإيمان ليتفرع عنه قانون وهو أن الإيمان لا يترك الإنسان أبداً إلا أن يتركه الإنسان نفسه ، ويذهب إلى التلبس بضده ، ومع هذا فإن الإيمان لا يعرض عنه ، ولا يصبح بعيداً عنه ، إنما يبقى الإيمان قريباً منه يتردد إليه بالبراهين الكونية ، وبعثة الأنبياء .

وتتجلى مصاديق من هذا التردد والتذكير بالرجوع إلى الإيمان بقوله تعالى ﴿سُتْرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣) .

ويأتي تذكير الله للإنسان بوجوب الإيمان من جهات :

(١) سورة البقرة ١٠٢.

(٢) سورة الحشر ١٦.

(٣) سورة فصلت ٥٣.

الأولى : مجئ وتوالي فضل الله عز وجل على الإنسان .
الثانية : الإبتلاء بمرض أو مصيبة .
الثالثة : الأمر السماوي بوجوب الإيمان .
الرابعة : موضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الهداية إلى الإيمان.

الخامسة : البشارات والإنذارات النبوية التي هي بيان وتفسير للتنزيل .
السادسة : التذكير بعالم الآخرة وما فيه من الحساب .
 ومن الإعجاز في آية البحث أنها تضمنت الوجوه أعلاه كلها ، فقوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ شاهد على عظيم النعم التي يتنعم بها الذين كفروا وتوالي فضل الله عز وجل عليهم ، خاصة وأن استدامة حال الغنى فضل ونعمة مستقلة ومتجددة كل يوم .
السابعة : إختيار الذين كفروا الكفر والجحود ، ولم يضر في عبادة الخلائق لله عز وجل ، ترى لماذا لم تقل آية السياق (لن يضرؤا الناس في عبادتهم) الجواب من جهات :
الأولى : موضوع الضرر المحتمل بالكفر أعم من أن يختص بعبادة الناس .

الثانية : الخلائق كلها تعبد الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) .
 وبينما ذكرت الآية أعلاه عبادة الكواكب والنجوم والجمادات .

جعلت الآية الناس على قسمين كل واحد منها كبير ، وهم :
الأول : المؤمنون الذين قدمتهم والملائكة الآية أعلاه في العبادة بدليل
 الضمير (من) في قوله تعالى ﴿يَسْجُدْ لَهُ مَنْ﴾ .

الثاني : الكفار ، وهل تتضمن آية البحث الإهانة للذين كفروا بقوله
 تعالى ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ الجواب نعم ، فليس من مكرم في الدنيا
 والآخرة للذين كفروا وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ .

الثالثة : من معاني عدم إضرار الكفار بأنفسهم إقامة الحجة عليهم بأن
 الحيوانات التي سخرها الله لخدمتهم هي تسبح وتسجد لله عز وجل ، ولم
 تفرط بعبادتها لله وإن كان ملكها الكافر جاحداً ، فتراه يقتني الدجاجة
 والشاة والبقرة والحصان ، ويذبح بعضها لطعامه ، وهو كافر وهي تسبح
 لله عز وجل ، فتكون حجة عليه ، وفيه دلالة على حلم الله عز وجل على
 الكافر ، وهذا الحلم من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾^(١) .

ليكون من معاني آية السياق عدم طرو الشك على نفوس المؤمنين
 حينما يرون الكفار يتمتعون بالنعم ، ويقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
 أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، إنما هذا التمتع من حلم الله ، وقانون عدم تعجيله العقوبة
 للكفار ، فهو سبحانه ذو أناة ، تتوالى نعمه الظاهرة والباطنة عليهم فلا
 يقابل الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بالعقوبة العاجلة نعم آية البحث عقوبة
 ، ولكنها للإصلاح أقرب ، فهي دعوة لهم للتوبة والإنابة .

وعندما قالوا ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لم يسلب الله عنهم الغنى ، ولم يحجب
 عنهم نعمة توالي الأموال ، والجاه والمقام الذي يترتب عليها بين الناس .

(١) سورة آل عمران ١٧٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١)، والجواب اثبات شئ لشي لا يدل على نفيه عن غيره ، فان الزيادة تأتي بالشكر ، وتأتي بالإستدراج والإمتحان ، وقد ورد لفظ (شكرتم) مرتين في القرآن ، إذ ورد قوله تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(٢).

فمن حلم الله عز وجل أنه لم يجعل الذين قالوا هذا القول القبيح فيما بعد أجراء مسخرين عند الذين هم عمال عندهم ساعة تباھيهم بالأموال ، نعم تحصل بعض الشواهد لهذا التبدل والتضاد.
ومن الآيات عدم إحصار هذا الشواهد بالكفار إنما هي تحصل بين الناس عامة ، ولكنها أفراد قليلة ، لتكون موعظة وعبرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣).

وهذه القلة رحمة ورأفة من الله بالناس في الحياة الدنيا ، وهل لآية البحث موضوعية في صيرورة هذه الشواهد بين الناس قليلة ، الجواب نعم ، ويتفضل الله عز وجل ويجعلها من جهة الأثر والنفع كالكثر والمضاعفة ، وهو من مصاديق تسمية القرآن بالذكر ومصاحبة صفة البركة له في الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مَبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(٤).

المسألة الرابعة : تقدير الجمع بين آية البحث والسياق على وجوه منها :
الأول : إن الذين قالوا ان الله فقير لا يضرروا الله شيئاً.
الثاني : إن الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء لن يضرروا الله شيئاً .

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) سورة النساء ١٤٧.

(٣) سورة آل عمران ٤٠.

(٤) سورة الأنبياء ٥٠.

الثالث : لقد سمع الله قول الذين اشترؤا الكفر بالإيمان .

الرابع : سنكتب ما قال الذين اشترؤا الكفر بالإيمان .

الخامس : إن الذين قتلوا الأنبياء لن يضروا الله شيئاً .

السادس : إن الذين يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لن تصل أيديهم إليه ، وعن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحرس ، وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه ، فقال : يا عم ، إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أبي ذر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام إلا ونحن حوله من مخافة الغوائل ، حتى نزلت آية العصمة {والله يعصمك من الناس} ^(١).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عصمة بن مالك الخطمي قال : كنا نحرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالليل حتى نزلت {والله يعصمك من الناس} فترك الحرس ^(٢).

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ^(٣) ، أن علياً مولى المؤمنين ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ^(٤) ^(٥).

السابع : نقول للذين اشترؤا الكفر بالإيمان ذوقوا عذاب الحريق .

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) الدر المنثور ٤١٩/٣.

(٣) سورة المائدة ٦٧.

(٤) سورة المائدة ٦٧.

(٥) الدر المنثور ٤١٨/٣.

الثامن : الذين يقول لهم الله ذوقوا عذاب الحريق لن يضروا الله والمؤمنين شيئاً.

المسألة الخامسة : تحتمل النسبة بين شراء الكفر الذي تذكره آية السياق ، وبين قول ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وجوهاً :

الأول : التساوي وأن قول ان الله فقير هو شراء الكفر .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق وهو على شعبتين :

الأولى : شراء الكفر بالإيمان أعم وأشد معصية من قول ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وَخُنْ أَغْنِيَاءُ﴿ .

الثانية : قول (إن الله فقير ونحن أغنياء) أعم وأشد معصية من شراء الكفر.

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما.

والصحيح هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، فقول ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فرع شراء الكفر لبيان عصمة المسلمين والمسلمات من هذا القول وحتى الذي يمتنع عن دفع الزكاة قصوراً وتقصيراً يتنزه عن هذا القول القبيح.

ومن خصائص آية البحث تثبيت هذه العصمة وصيرورتها صبغة دائمة للمسلمين ، وموعظة وسبيل هداية للناس جميعاً ، وفي التنزيل ﴿كَأَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وسيأتي التفصيل في الجزء التالي وهو الواحد والتسعون بعد المائة في قانون التدريس عوض للأسرى^(١).

إعجاز الآية الذاتية

بدأت آية البحث بصيغة القطع والجمع بأن الله سمع قول الجاحدين بأن الله فقير ، مما يدل بالدلالة التضمنية على صدور هذا القول منهم ، وتعديهم على مقام الربوبية .

فبدل أن يشكروا الله عز وجل على نعمة الغنى والمال انشغلوا باللغو واللهث وراء الدنيا حتى إذا ما نزل القرآن بالإخبار بأن ما عندهم من المال هو من فضل الله عز وجل وفيه حق للفقراء والمساكين لا بد من إخراجه وإيصاله إليهم وإذا بهم يحقدون ويتنكرون لفضل الله بالقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وكان المال الذي في أيديهم ملك طلق لهم جمعوه بجدهم وجهدهم ، قال سبحانه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ﴾^(١) ، وروى سيف بن ميمون عن الحسين عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال موسى : يا رب كيف استطاع آدم أن ذي شكر ما أجريت عليه من نعمك ، خلقت بيده واسجدت له ملائكتك واسكنته جنتك.

فأوحى الله إليه : إن آدم علم إن ذلك كله مني ومن عندي فذلك شكر^(٢).

(١) لم نكتب الشبهة الثانية من صلة آية البحث بالآيات المجاورة بسبب تعدد عناوين وموضوعات هذا الجزء والحمد لله وسنبين شذرات منها في الأجزاء الآتية إن شاء الله عز وجل .

(٢) سورة النحل ٥٣ .

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ١/١٣٣ .

وهو من أسرار تسمية الدنيا دار الغرور ، فلم يكتفوا بالإمتناع عن دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، (إنما قالوا ان الله فقير) لأنه يسألنا أن نقرضه قرضاً من أموالنا ، بلحاظ كبرى كلية وهي أن الإفتراق عنوان الحاجة والفقر ، والله عز وجل هو الغني وغير محتاج .
وهم يعلمون أن الزكاة والصدقة تصل إلى الفقراء فينفقونها في معاشاتهم .

ومن إعجاز الآية أنها لم تخبر عن نزول بطش الله عز وجل بالجاحدين ، ولم يقابل الله عز وجل قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) ، بسلب النعم منهم ، إنما أخبر عن سماعه لقولهم .

وهو من الشواهد على مصاديق الرحمة والرأفة في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينزل الإنذار من على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلاماً من الله يتضمن توبيخ الذين كفروا وإنذارهم من التعدي على مقام الربوبية .

ومن إعجازها تفضل الله عز وجل بارجاء كتابة وتدوين قولهم ومعصيتهم مع شدة قبحها ، ويحتمل ترتب العقاب وجوهاً :

الأول : نزول العقاب بالجاحدين على قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ قبل كتابة هذه المعصية .

الثاني : الملازمة والإقتران بين كتابة القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ونزول البلاء بالذين قالوه .

الثالث : نزول البلاء والعذاب بالذين كفروا حالماً سمع الله قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الرابع : إبتلاء الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بعد نزول آية البحث وقبل كتابته من عند الله عز وجل .

الخامس : التوالي والتعقيب فبعد أن كتب الله قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُّ أُغْنِيَاءُ﴾^(١)، نزل بهم البلاء من غير مهلة وإمهال .

السادس : التفصيل في مجئ البلاء للكافرين الجاحدين فضلاً من عند الله ، ويكون على وجوه :

أولاً : الذي ينزل به البلاء حالما يقول (إن الله فقير) وفي التنزيل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

ثانياً : الذي يأتيه البلاء عندما يكتب الله هذه المعصية ليكون من معاني قوله تعالى ﴿سَنَكْبُ﴾ إنذار الكفار من حلول ساعة هذه الكتابة.

ثالثاً : الذي يمهله الله عز وجل إلى حين وأجل مخصوص .

رابعاً : من يؤخره الله إلى ولادة ولد صالح له يبادر إلى دفع الزكاة .

خامساً : من يرجئه الله عز وجل إلى يوم القيامة للحساب والعقاب

الأليم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَقُولُوا عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي ونقول للذين بقوا على الجحود والكفر ذوقوا عذاب الحريق ولما ذكرت الآية السابقة بخل الذين كفروا بالزكاة من مالهم الذي هو من فضل الله فان الله عز وجل أنعم عليهم بفضل آخر وهو إمهالهم وعدم التعجيل في مؤاخذتهم على ظلمهم .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة يس ٨٢ .

السابع : أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَيْرٌ﴾^(١) ، ومن مصاديقها علم الله عز وجل بالذين يتوبون ممن يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ﴾ فيمهلهم حتى يتوبوا سواء كانت توبتهم قبل أو بعد كتابة هذا القول لبيان بركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهداية الناس إلى الإيمان .

فان قلت تدل خاتمة الآية على إرجاء العقاب على قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ﴾ إلى يوم القيامة لقوله تعالى ﴿وَسَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) وخاصة وأن الدنيا دار عمل من غير حساب ، والآخرة دار الحساب من غير عمل .

والجواب هذا صحيح إلا أن إثبات شئ لشئ لا يدل على نفيه عن غيره ، فلا تمنع خاتمة الآية من نزول البلاء بالذين كفروا ، ومن مصاديقه قوله تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٣) .

ويمكن تسمية آية البحث آية ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آية البحث ، وورد لفظ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ مرة ثانية في القرآن بقوله تعالى ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾^(٤) لبيان أن لفظ نكتب ورد في القرآن بصيغة الإنذار والوعيد.

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة مريم ٧٩ .

إعجاز الآية الغيري

ذكرت آية البحث قوماً تهادوا في غيهم ، فلم يقفوا عند هذا الإمتناع ، إنما أخذوا يصدون الناس عن مدمات ومقامات الإيمان ، بقولهم ﴿إِنْ اللّٰهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ويسعون في صرفهم عن اللجوء إليه سبحانه بالدعاء والمسألة ، فمن عادة المحتاج اللجوء إلى الغني ، فقولهم ﴿إِنْ اللّٰهُ فَقِيرٌ﴾ صدّ للناس عن التوجه إلى الله عز وجل في حاجاتهم ، وبعث للشك والريب في نفوس بعضهم ، فلذا تفضل الله عز وجل بآية البحث لينقذ الناس من هذا الصدّ ، ويدعوهم للتوجه إليه في المسألة والحاجة والفاقة .

لقد جاءت آية البحث على وجوه :

الأول : إزاحة مانع عن دخول الإسلام ، فقول (إن الله فقير) صرف للناس عن سبل الهدى ، ومغالطة قائمة على الشك والتردد ، قال تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١).

الثاني : فضح الذين يسعون لمنع الإمتثال للحكم الشرعي ، الذين لا يكتفون بامتناعهم عن الإمتثال ، إنما يجاهرون به ويأتون بالكذب والإفتراء على الله سبحانه ، وفي التنزيل ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٢).

الثالث : بيان الآية لقانون وهو أن الله عز وجل ينزل الحكم الشرعي ثم يدافع عنه ليثبتته في الأرض إلى يوم القيامة ، وهو من الدفاع السماوي

(١) سورة الرعد ٧.

(٢) سورة الأنعام ٢٤.

عن التنزيل ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(١).

ولم يرد لفظ (يدافع) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، ولم يرد لفظ (دافع) بصيغة الفعل الماضي في القرآن.

وهل يشمل الدفاع عن الذين آمنوا الذي تذكره الآية أعلاه التنزيل الجواب نعم.

وهل ينحصر هذا الدفاع بذات آية البحث أو آية واحدة ، الجواب لا ، فممكن التحقيق واستقراء آيات القرآن التي ترد على الجاحدين (الذين قالوا ان الله فقير) وهي آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْنِفُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٢) ، وسيأتي البيان في قانون احصاء الله الأقوال في القرآن^(٣).

الرابع : دعوة الناس إلى عدم الإصغاء إلى الذين يمتنعون عن أداء التكاليف العامة على الناس وضروريات الإيمان ، إذ تحذر آية البحث الناس من الإنصات للذين يقولون (ان الله فقير) لتدل من باب الأولوية القطعية على الإحتراز من قول الذين كفروا الذين ينكرون النبوة والتنزيل وأصل حكم الزكاة مثلاً .

ويحتمل عذاب الحريق وجوهاً :

الأول : المراد نار جهنم ، قال تعالى ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٤).

الثاني : إنه عذاب خاص بالذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية ولا يكتفون بهذا الإمتناع إنما يفترون على الله عز وجل.

(١) سورة الحج ٣٨.

(٢) سورة البقرة ٢٦١.

(٣) أنظر الجزء التاسع والثمانين بعد المائة من هذا السفر المبارك.

(٤) سورة المجادلة ٨.

وقال ابن عطية وقوله {فذرهم وما يفترون} ^(١) لفظ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال ، قال قتادة كل ذر في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال ^(٢).

ولا دليل على هذا النسخ سواء بخصوص الآية أعلاه أو مطلقاً في نسخ كلمة (ذر).

وتدل آية البحث على عدم النسخ في المقام ، وأيهما أكبر أثراً ونفعاً السيف أو الوعيد بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الجواب هو الثاني فلا تصل النوبة إلى السيف أو الحاجة إليه ، وهو من مصاديق قانون (لم يغز النبي (ص) أحداً) والذي صدرت بخصوصه ثمانية عشر جزءاً من هذا السفر المبارك.

الثالث : إنه شعبة من عذاب النار ، وكل من يدخل فيها يصدق عليه أنه يذوق عذاب الحريق.

الرابع : عذاب الحريق جزء من العذاب العام الذي يلقيه الذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية ويقولون (إن الله فقير ونحن أغنياء). والمختار هو الثاني والثالث والرابع .

وهل يختص القول الذين يترتب عليه هذا العذاب بالقول الذي ذكرته آية البحث جموداً على النص ، أم يشمل ما يشابهه وما يزيد عليه في الظلم والتعدي.

المختار هو الثاني ، وتقدير الآية : ذوقوا عذاب الحريق أنتم وأمثالكم من أهل الصدود والجحود ، فمن خصائص الآية القرآنية أنها تنزل بدم قوم ، وتدل في مفهومها على أمور :

(١) سورة الأنعام ١١٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤٦٠/٢.

الأول : ذم الذين يلتقون في القول أو الفعل مع الذين ذمتهم الآية ويقتبسون منهم.

الثاني : ترتب الذم على الذين يرتكبون ما هو أشد في الذنب والإثم الذين ذمتهم الآية.

الثالث : الثناء على الذين يتنزهون عن الذنب والفعل الذي ارتكبه الذين تدمهم الآية القرآنية قرابة إلى الله ، قال تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(١) ، وقد ورد لفظ (اجتنبوا) ست مرات في القرآن منها مرتان في الآية أعلاه.

ومن إعجاز الآية وجوه :

الأول : ترغيب الناس جميعاً باخراج الزكاة ، ودفع الصدقات والإنفاق في أعمال البر والصلاح .

الثاني : بعث أصحاب الأموال من المسلمين على المبادرة إلى دفع الزكاة لأنهم يأبون أن يكونوا في مقام واحد مع الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخَنٌ أَعْيَاءُ﴾^(٢).

الثالث : استهجان الناس جميعاً لقول الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

الرابع : زجر أرباب الأموال من غير المسلمين عن تسخير أموالهم في محاربة النبوة والتنزيل .

(١) سورة الحج ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

لقد وقعت معركة بدر بسبب ظن الذين كفروا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يتعرضون لقافلة أبي سفيان وأنهم يريدون الإستيلاء عليها عوضاً عن أموالهم التي استحوذت عليها قريش ، وليس من أصل لهذا الظن.

وبعد الهزيمة التي نزلت بقريش في تلك المعركة مشى عدد من رجالات قريش على أرباب الأموال في قافلة أبي سفيان التي كانت موضوعة ومطروحة عند دار الندوة ، لم توزع على أهلها لإنشغال قريش بهول المصيبة بفقد سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً في معركة بدر ، وكانت مكة بيوتات وبلدة صغيرة بحيث يدخل الحزن بكثرة عدد القتلى والجرحى من المشركين إلى كل بيت من بيوتها إلا بيوت المسلمين .

ومن مشى يومئذ بينهم صفوان بن أمية بن خلف الذي قتل أبوه وأخوه علي بن أمية في معركة بدر وعكرمة بن أبي جهل الذي قتل أبوه في ذات المعركة وسألوا أصحاب الأموال التي في القافلة تسخيرها في مقدمات وتمويل المعركة القادمة ضد النبوة والتنزيل ، واتخذوا من هول المصيبة وكون وقوع هؤلاء القتلى والأسرى من قريش بسبب هذه الأموال ذريعة لإقناعهم ورضاهم .

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ونحوهما يقولون لأصحاب أموال القافلة ، قد قتل آباؤنا وإخواننا ولحقنا الهزيمة والذل بسبب أموالكم هذه فاجعلوها في الثأر لهم.

وهو من مصاديق مكر رؤساء الكفر ضد أصحابهم وضد النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لَتَزُولَ مِنْهُ الْجَبَالُ^(١)، وقد ورد لفظ (مكرهم) خمس مرات في القرآن ، ثلاثة منها في الآية أعلاه.

وأرادوا الإستحواذ عليها وكأنها ديات للذين قتلوا ، وهو من مصاديق القاء الله البأس بين الذين كفروا .

لقد ظن المشركون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد الإستيلاء على قافلة أبي سفيان وخشي أربابها ضياع أموالهم وتناجوا بالنفير عندما جاءهم ضمضم بن عمرو رسولاً من رئيس القافلة أبي سفيان ، وقد تقدم البيان والتفصيل في أجزاء سابقة فخرج من مكة نحو ألف من المشركين باتجاه ماء بدر ، وكانوا يذبحون كل يوم تسعة أو عشرة من الإبل ، ولعلمهم احتسبوا هذا الإنفاق على أموالهم على قافلة أبي سفيان إذ أرادوا العوض منها ، ولكن ليس العوض الشخصي ، إنما للحرب على النبوة والتنزيل .

وقد رضى أرباب الأموال في قافلة أبي سفيان على تسخيرها في معركة أحد ، والقدر المتيقن من الأموال التي رضوا بانفاقها في معركة أحدهي أرباح تلك القافلة ، وليس مجموع رأس المال والأرباح ، وكانت القافلة تتألف من ألف بعير محملة بالذهب والفضة والقماش والمؤن الغذائية ، وعادة ما تكون أرباح قریش بمقدار رأس المال .

ومن أسباب نزول قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٢) ، ما ورد عن ابن إسحاق عن جماعة قالوا : لما أصيب يوم بدر من كفار قریش اصحاب القليب ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيه مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن

(١) سورة ابراهيم ٤٦.

(٢) سورة الأنفال ٣٦.

أبى جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آبائهم واخوانهم وأبنائهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربهِ لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصاب منا ففعلوا.

وقال ابن سعد لما رجع من حضر بدرًا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة فمشت اشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا نحن طيبو أنفس أن تجهزوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمد فقال أبو سفيان فأنا أول من أجاب إلى ذاك وبنوا عبد مناف فباعوها فصارت ذهباً وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم واخرجوا أرباحهم وكانوا يرجون في تجارتهم لكل دينار ديناراً^(١).

لقد كانت مكة سوقاً عملاقة إذ يفدها الناس من كل مكان ، وتقام فيها أيام موسم الحج أسواق متعددة يتجمع فيها العرب في أيام معدودة للتجارة والمفاخرة والتعارف وهي :

الأول: سوق عكاظ ، وهو بين مكة والطائف ويقع عند الميقات في منطقة السيل الكبير (قال الكلبي : وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذئ المجاز قائمة في الإسلام حتى كان حديثاً من الدهر ، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الإباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة ، فتركت حتى الآن .

ثم تركت مجنة وذئ المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة قال أبو الوليد : وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء

في عمل الطائف على بريد منها ، وهي سوق لقيس بن عيلان وثقيف ، وأرضها لنصر^(١).

ويعمر هذا السوق في بداية ذي القعدة ، وقيمون فيه عشرين يوماً.

الثاني : سوق مُجَنَّة وتقع على بعد ثلاثة أميال من مكة في وادي فاطمة ، وقيمون فيها عشرة أيام .

الثالث : سوق ذي المجاز وهو قرب عرفة وقيمون فيه ثمانية أيام ابتداء من رؤية هلال ذي الحجة.

الرابع : سوق الحزورة ، وكانت الحزورة تلاً مرتفعاً.

الخامس : قال الأزرقى (وكان يوم التروية آخر أسواقهم)^(٢).

وبين الذين يأتون لموسم الحج ، والذين يحضرون لأسواق الموسم للتجارة والتفاخر والتعارف عموم وخصوص مطلق ، فالذي لا يريد التجارة والبيع يخرج للحج متى شاء ولا يبكر بالحضور في بدايات ذي القعدة .

أما أهل مكة فالذي لا يريد التجارة يخرج من أهله يوم التروية وهو الثامن ذي الحجة ليتوجه إلى عرفة ، وكانت قريش لا يتبايعون في يوم عرفة ولا أيام منى فلما جاء الإسلام أحل البيع فيها .

وعن ابن عباس : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

(١) الأزرقى / أخبار مكة ٢٣٢/١.

(٢) أخبار مكة ٢٢٢/١.

ذلك ، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) ، في مواسم الحج .

وأخرج وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، ويقولون أيام ذكر الله ، فنزلت { ليس عليكم جناح . . . } الآية .

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي من طريق عبيد بن عمير عن ابن عباس : في أول الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذي المجاز ومواسم الحج ، فخافوا البيع وهم حرم ، فانزل الله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج) فحدث عبيد بن عمير أنه كان يقرأها في المصحف .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة التميمي قال : قلت لابن عمر : إنا ناس نكثر فهل لنا من حج ، قال : أليس تطوفون بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وتأتون المعرف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم؟ قلت : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه ، فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية { ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم } فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه الآية وقال : أنتم حجاج^(٢) .

هذا إلى جانب أسواق مكة الدائمة

(١) سورة البقرة ١٩٨ .

(٢) الدر المنثور ١/٤٤٥ .

قانون الزكاة تجارة مع الله

لقد طلب من الأغنياء وعلى نحو التكليف السماوي إعانة الفقراء مع الترغيب بأن الله عز وجل هو الذي يتولى قبض الصدقات لإرادة التجارة مع الله ، وهي ﴿تِجَارَةٌ لَّنْ تَبُورُ﴾^(١)، ولكن الجاحدين امتنعوا عن دفع الصدقات وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢)، وابتلى الله عز وجل قريشاً باتفاق أموال قافلة أبي سفيان للإعداد لمعركة أحد من غير أن يصل إلى تهديد أو وعيد من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على أنهم هم الذين بدأوا الإستعداد والتهيء للقتال ، ولأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يخرج من المدينة لقتالهم والهجوم عليه فأنهم قاموا بغزو المدينة في معركة أحد التي يجب أن يقال : غزو المشركين للمدينة في معركة أحد .

ولقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يخرج لتفريق بعض جموع القبائل التي تريد الإغارة على مدينته وغزوها ، فلماذا لم يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لغزو قريش أيام إعدادهم لمعركة أحد أو معركة الخندق ، ويفرق جمعهم وحلفائهم ، الجواب من وجوه :

الأول : لم يكن فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أمره ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣).

الثاني : إكرام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للبيت الحرام.

الثالث : في عام الفتح قال النبي (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،

(١) سورة فاطر ٢٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة النجم ٣-٤.

وَلَئِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهَا لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَئِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ^(١) ،
 مما يدل على أنه لم يؤذن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بتفريق جموع
 قريش إكراماً للبيت الحرام مع أنه لو خرج لطلب رجال قريش الذين
 يعدون العدة للهجوم عليه ، وخرج المسلمون الذين في مكة لنصرته .

الرابع : لقد ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً وشأنهم
 ولكنهم أصروا على الهجوم على المدينة فقامت عليهم الحجة إلى يوم
 القيامة بأنهم هم الغزاة المعتدون .

وهل يريد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الصبر على هذا الهجوم
 استدراجاً وتعجيل نزول العذاب بهم ، الجواب إنما كان يدعو لهم
 بالهداية والصلاح .

ومن مصاديق قانون وهو سوء ظن الكفار مجلبة للأذى ما تتضمنه كل
 من آية السياق والبحث من جهات :

الأولى : ظن الذين كفروا أن البخل بالحقوق الشرعية خير لهم ، ومن
 إعجاز آية السياق أنها لم تكتف بذكر وذم هذا الظن إنما أخبرت أنه شر
 لهم ، ويحتمل المراد من الشر في الآية وجوهاً :

الأول : الظن بالنفع من البخل ، قال تعالى ﴿إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ

إِنْهُمْ^(٢) ، وأخرج ابن مردويه عن طلحة بن عبد الله : سمعت النبي صلى
 الله عليه وآله وسلم يقول : إن الظن يخطيء ويصيب^(٣) .

الثاني : الإتيان بالبخل والشح .

الثالث : البخل بالحقوق الشرعية .

(١) تفسير الثعالبي ١/١٠٩ .

(٢) سورة الحجرات ١٢ .

(٣) الدر المنثور ٩/٢٥٦ .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وتقدير الآية : الذين ييخلون بخلاً بما آتاهم الله من فضله .

ويحتمل المراد من المال المبخول به وجوهاً :

الأول : كل ما آتاهم الله من فضله .

الثاني : المراد جزء يسير مما آتاهم الله من فضله .

الثالث : مقدار الزكاة من المال الذي تحقق فيه النصاب .

والمختار هو الثاني والثالث ، وكأن معنى الباء في (بما) التبعية ، وإن لم يذكر هذا المعنى بعض النحويين لحرف (الباء) ولكنه ورد على لسان الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(١) أي ببعض الرأس فحينما سئل عن علة قوله المسح ببعض الرأس ، قال : ونزل به الكتاب من الله ، لأن الله عز وجل يقول : فاغسلوا وجوهكم " فعرفنا أن الوجه كله ينبغي له أن يغسل ، ثم قال : وأيديكم إلى المرافق " ثم فصل بين الكلامين فقال : وامسحوا برؤوسكم ، فعرفنا حين قال برؤوسكم أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء^(٢) .

الثانية : ظن الذين كفروا بأنهم أغنياء غير محتاجين .

الثالثة : ظن الذين كفروا النجاة من عذاب النار ، أو أنه لا يكون إلا لأيام قليلة ، وقالوا ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾^(٣) .

ومن أسباب الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية إنكار المعاد ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٤) ،

(١) سورة المائدة ٦ .

(٢) البحار ٢٨٩/٧٧ .

(٣) سورة البقرة ٨٠ .

(٤) سورة المؤمنون ٨٠ .

فذكرت آية السياق يوم القيامة وصورة من العذاب يومئذ ليكون من مصاديق قوله تعالى في آية السياق ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(١) أنه سبب لتخويفهم ووعيدهم بيوم القيامة ، لقد دفع الذين كفروا ثمناً باهظاً بسبب حبسهم الزكاة إمتناعهم عن دفع الحقوق الشرعية ، فتلقوا في آية السياق الذم من جهات :

الأولى : التوثيق السماوي لقبح فعلهم ، وإمتناعهم عن دفع الحقوق الشرعية ، ليبقى هذا التوثيق إلى يوم القيامة لسلامته من التحريف والتبديل.

ولو كان الجاحدون العازفون عن العمل بالأوامر الإلهية العامة مثل الصلاة والزكاة يعلمون أن مغالطتهم تبقى إلى يوم القيامة بالتوثيق القرآني فهل يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، الجواب لا .

الثانية : تجلّي التحدي العام لكل الذين امتنعوا عن الزكاة والحقوق الشرعية بأن هذا الإمتناع وحبس الحقوق هو شر وأذى لهم .

الثالثة : الوعيد بعذاب مخصوص يوم القيامة على حبس الزكاة والحق الشرعي بأن يطوق عنق كل واحد منهم بشعبان.

الرابعة : تلاوة المسلمين والمسلمات لآية البحث تجديد متكرر لذم الذين يخلوا بحق الفقراء.

لقد ظن الكافرون بالزكاة أن كلامهم لا يعدو أوانه وزمانه فنزلت آية السياق ليعلم الناس بقانون وهو أن الله عز وجل سخط على أولئك الجاحدين فوثق كلامهم في القرآن ، وفيه شاهد بأن الله عز وجل لا يخشى

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

على الذين آمنوا من تلك الشكوك ومفاهيم الضلالة ، خاصة وأن المسلمين آنذاك على أقسام :

أولاً : الأغنياء وهم الأقل عدداً .

ثانياً : ذوو الكفاية في المؤونة .

ثالثاً : الفقراء وهم الأكثر عدداً .

ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية نزول فرض الزكاة في السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة لتحقيق التكافل الاجتماعي وإعانة الفقراء ، وبعث الطمأنينة والأمل في نفوسهم .

وفي تقديم أو ان فرض الزكاة شاهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيه من عدم خشية صدود الأغنياء عن الإسلام أو إحتجاجهم .

ابتدأت آية البحث بقانون سماع الله عز وجل لقول الكافرين بأن الله فقير ، وهم أغنياء ، وفيه دليل أن الله عز وجل يسمع كل الأقوال وفيه : الأول : قانون بعث الناس لقول الكلام الطيب ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾^(١) ، وتقدير الآية : ان الله يسمع الكلام ، فقولوا قولاً حسناً .

الثاني : قانون منع الناس النطق بالقول السيئ وما فيه معصية وضلالة ، وتقدير الآية : إن الله يسمع الكلام فلا تقولوا ما فيه سخط الله .

وصحيح أن الآية وردت بخصوص الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وتلقوا الأمر بها بالإستهزاء والسخرية والتعدي ، ولكن حكمها عام ، وهي إخبار سماوي عن قانون تكليفي يتعلق وجوبه بالناس جميعاً إلا أن الواجب المنتجز منه يختص بذوي الأموال ، إذ تجب الزكاة في أموالهم .

الثالث : قانون شهادة المسلمين على أن الله يسمع كل الأقوال ، لتكون تلاوة المسلمين لآية السياق والبحث من مصاديق قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١) ، وحكى قتادة أن كعب قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلكم إلا نبي : كان إذا أرسل نبي قيل له : أنت شاهد على أمتك ، وجعلكم شهداء على الناس ، وكان يقال للنبي ، ليس عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : وما جعل عليكم في الدين من حرج ، وكان يقال للنبي : ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ادعوني أستجب لكم^(٢).

لقد ذهب بعض الفلاسفة إلى القول بأن الله عز وجل خلق الخلق ثم تركهم وشأنهم أي أنه جعلهم وفق نظام كوني دقيق يجرون عليه ، ولكن الله عز وجل خلق الخلق وهو يعلم بكل ما يقع فيه يجري بما يحب الله ويرضى ، وهو الذي تدل عليه آية البحث من جهات :

الأولى : سماع الله عز وجل لأقوال الذين تعدوا على مقام الربوبية لأن الله ورسوله أمرا بالزكاة.

الثانية : تعيين آية البحث للذين قالوا (إن الله فقير ونحن أغنياء).

الثالثة : توثيق وكتابة الله عز وجل لقول ان الله فقير ، ولا تختص هذه الكتابة بقول (إن الله فقير ونحن أغنياء).

ولا تستديم الخلائق في وجودها إلا بمشيئة حاضرة من عند الله عز وجل .

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢) النكت والعيون ٤/٤٢.

وفي التنزيل (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَذَابُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) ^(١).

ومن خصائص آية البحث أنها تجعل الناس يدركون قانوننا من الإرادة التكوينية ، وهو أن كل كلام ينطقون به يسمعه الله ، ليستقرأوا قانوناً وهو أن الله معهم في كل مكان ، وتطرد الآية الغفلة عن الناس ، قال تعالى ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ^(٢).

وتدعو الآية الناس إلى حبس ألسنتهم عن الشر والباطل ، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال (إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم علي ذهبه وفضته) ^(٣).

الآية سلاح

تبين آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل يسمع أقوال الناس ، وفيه شاهد على أنه سبحانه لم يخلق الخلق ويتركهم وشأنهم ، ولم يجعل الناس يفعلون ما يريدون ثم يستحضرهم وأعمالهم يوم القيامة دفعة واحدة ، إنما تفضل الله عز وجل بتعاهد الخلق واستدامة الأنظمة الكونية والاجتماعية في كل ثانية ودقيقة ، وفي التنزيل ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ^(٤) وتكرر

(١) سورة سبأ ٣.

(٢) سورة الأنبياء ٩٧.

(٣) البحار ١٧٨/٧٥.

(٤) سورة القمر ٥٠.

لفظ ﴿لَمْحَ بِالْبَصَرِ﴾ مرتين في القرآن ، إذ ورد قوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(١).

وتحتل النسبة بين موضوع الآيتين وجوهاً :

الأول : التساوي : وأن المراد بالأمر في الآيتين واحد ، ويتعلق بانقطاع الحياة الدنيا ، وبيوم القيامة.

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين .

الأولى : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾^(٢) ، هو الأعم والأوسع.

الثانية : ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾^(٣) ، هو الأعم .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، إذ ينسبط قوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾^(٤) ، على العوالم الطولية ، وقبل أن تخلق تخلق السموات والأرض ، لبيان عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ، ومع سرعة إيجاد عالم التكوين والإنشاء فان الحكمة والدقة مصاحبة له .

وهذا التعاهد عام وخاص لكل مخلوق ، وعند سماع الله عز وجل للأقوال وعودها إليه حالما تصدر من عند الناس ، فليس ثمة وقت أو فترة بين النطق بها وبين سماع الله عز وجل لها ، وهو من اللطف الإلهي من جهات :

(١) سورة النحل ٧٧.

(٢) سورة القمر ٥٠.

(٣) سورة النحل ٧٧.

(٤) سورة القمر ٥٠.

الأولى : الأجر والثواب للمؤمنين الذين يتلون آيات التنزيل ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

الثانية : منع الناس من مقولة الباطل والضلالة .

الثالثة : زجر الناس عن قول الباطل والشهادة الزور .

وهل هذه الشهادة من الفساد الذي ذكرته الملائكة في سؤالهم عن جعل الإنسان خليفة في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) الجواب نعم.

وهل يمكن تقدير آية البحث (سنكتب شهادة الزور) الجواب نعم ، خاصة مع مجئ القرآن بوجوب صون اللسان عن شهادة الزور وعن كتمان الحق ، وليس لشهادة الزور كفارة ، وبه قال المالكية والحنفية والحنابلة أيضاً إنما تغمس صاحبها في النار، وقال الشافعي بوجوب الكفارة فيها لقوله تعالى ﴿لَا يَأْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغَوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة المائدة ٨٩.

وهل لقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ كفارة ، الجواب نعم ، وكفارته التوبة منه وإظهار الندم والإستغفار والمبادرة إلى دفع الزكاة والحقوق الشرعية .
وتدل آية البحث على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يبعث بالقتال ، وحمل الناس بالسيف لسبل الإيمان ، ودفع الزكاة انما بعثه الله عز وجل بالقرآن الذي جعله ﴿تَبَيَّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ومن هذه الأشياء التي يخبر عنها القرآن رشحات القول والفعل ، وما يترتب عليها من الأثر في الدنيا ، والجزاء في الآخرة .

مفهوم الآية

جاء أول آية البحث بقانون وهو سماع الله لقول الكفار الذي يتألف من شعبتين :

الأولى : إن الله فقير .

الثانية : نحن أغنياء ، وتقديرها : نحن أغنياء والله فقير ، ليكون من مفاهيم الآية وجوه :

الأول : يسمع الله عز وجل كل كلام وقول يصدر من الناس .

الثاني : إخبار المسلمين وأهل الكتاب والناس جميعاً بقانون وهو أن الله يسمع كل قول .

الثالث : شكر الله للمسلمين تلاوتهم للقرآن فهو أحسن الكلام .

ومن خصائص تهذيب النطق وحسن التدبر ، لقد عرف علم المنطق بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطأ .

ومن إعجاز القرآن أن كل آية منه آلة سماوية تعصم مراعاتها الذهن والجوارح من الخطأ والزلل .

لتكون النسبة بين الآية القرآنية وعلم المنطق عموم وخصوص مطلق ، فكل آية هي علم ومدرسة في المنطق وتهذيب للجوارح ، وليس العكس . ويدل إبتداء الآية بسماع الله عز وجل لقول طائفة من الناس ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) على قانون عام وهو أن الله عز وجل يسمع كل كلام ، ولا يقف الأمر عند السماع إنما يترتب عليه الأجر والثواب لمن يقول الكلام الحسن ويتجنب الكلام السيئ ، قال تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَى الطِّيبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾^(٢) .

ولم يرد لفظ ﴿وَهْدُوا﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه، وتتعلق واو الجماعة بالذين آمنوا وعملوا الصالحات بلحاظ الآية التي قبلها ، ويحتمل ذم آية البحث للذين ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بلحاظ الآية أعلاه وجوهاً :
الأول : إنه سبيل هداية إلى القول الطيب والحسن .

الثاني : ليس من أثر لآية البحث بخصوص مضامين الآية أعلاه، لأنها جاءت بصيغة الذم والتبكي للذين كفروا ، بينما تمدح الآية أعلاه المؤمنين ، وتبين إرتقاءهم إلى مراتب سامية في الأخلاق الحميدة بفضل ولطف من عند الله .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَدْرِكُ بِحَسَنِ خَلْقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ)^(٣) .

الثالث : آية البحث سبيل لبلوغ المؤمنين الصراط القويم .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة الحج ٢٤ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٢/١٣ .

والصحيح هو الأول والثالث ، ويمكن انشاء قانون وهو أن كل آية من القرآن تهدي إلى الطيب من القول وإلى الصراط المستقيم حتى وإن جاءت بصيغة الذم للذين كفروا .

وهذا القانون من مفاهيم آية البحث .

ومن معاني قوله تعالى ﴿سَنَكُوبُ مَا قَالُوا﴾ أن الله عز وجل يكتب ويوثق

كل قول وفعل ، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَذَابُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

لقد ذكرت آية البحث وبصيغة الذم قول الجاحدين ﴿وَنَحْنُ

أَعْيَاءُ﴾ لبيان أن الله عز وجل لا يرضى لعباده الزهو والمغالاة في الفرح والتبخر ، وفي التنزيل ﴿وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٢).

(وقال المتلمس^(٣) الطويل

وكنّا إذا الجبار صعر خدّه ، ... أقمنا له من ميله فتقوماً)^(٤).

(١) سورة سبأ ٣.

(٢) سورة لقمان ١٨.

(٣) المتلمس : شاعر جاهلي واسمه جرير بن عبد المسيح الضبيعي وقيل جرير بن العزى من قبيلة ضبيعة من قبائل ربيعة ، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة ثم هجا عمرو فاراد عمرو قتله ، ومن الأمثال : أشأم من صحيفة المتلمس ، إذ كتب له عمرو بن هند كتابا إلى عامله في البحرين لإكرامه ، ولكن المتلمس فضه في الطريق أي أنه تعمد أن يضحى بما فيه من الإكرام والبهات على فرض أنها في الكتاب ، ولكنه وجد فيه الأمر بقتله فقفذه في النهر ونجا بنفسه .

(٤) جمهرة اشعار العرب ٥/١.

وذكرت آية البحث كتابة قتلهم الأنبياء إلى جانب كتابة ما قالوه لبيان قانون وهو أن الله عز وجل يكتب كل الأقوال والأفعال التي تصدر عن الناس .

وتبعث آية البحث الطمأنينة في قلوب المؤمنين والمؤمنات من جهات :
الأولى : حرص المؤمنين والمؤمنات على التنزه عن قول القبيح وما يسخط الله عز وجل .

الثانية : يسمع الله عز وجل تلاوة المسلمين والمسلمات القرآن ، ويسمع ذكرهم وتسييحهم ، ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية وجوب قيام كل مسلم ومسلمة خمس مرات في اليوم بأمر مباركة وهي :

الأول : الوضوء والتطهر بالماء مع وجوده كمقدمة للصلاة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسْمَعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

الثاني : إتيان الصلاة خمس مرات في اليوم .

الثالث : إبتداء الصلاة بتكبيرة الإحرام، وهو من أبهى مصاديق الذكر خاصة وأنه يأتي من خشوع وخضوع لله عز وجل .

الرابع : تلاوة المسلم والمسلمة القرآن في كل ركعة من الصلاة .

الخامس : التسييح أثناء الركوع والسجود في كل ركعة من الصلاة .

ليكون من مصاديق ورشحات الصلاة طرد الغفلة عن المسلم والمسلمة قبل وأثناء وبعد الصلاة حتى في حال السكوت وبعدها .
وصيرورة أداء الصلاة خمس مرات في اليوم سبباً ومقدمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن الإعجاز في الصلاة أن ذات أدائها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

لقد أراد الله عز وجل من الناس بالزكاة تأكيد طاعتهم لهم ، ومباهاة الملائكة بهم ، والإجزاء بدخولهم الجنان في الآخرة ، ولكن الذين كفروا اختاروا المعصية وأقاموا على الضلالة ، فجاءت آية البحث لتحذير المسلمين من الغفلة ، ومن القول القبيح ، وكأن الآية تقول للناس جميعاً إن الله يسمع ما تقولون فياكم والقبيح من القول ، وفي التنزيل ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(١) .

وأختتمت آية البحث بالوعيد للذين كفروا والإخبار بأن الله عز وجل يقول لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) .

ومن مفاهيم الآية إنذار الكفار على كل معصية في القول أو الفعل ، ليكون من إعجاز الآية القرآنية عدم إنحصار إنذارها بذات الموضوع أو الحكم الذي تتضمنه ، إنما تشمل أحكامها مطلق الأقوال والأفعال ، ومن مفاهيم آية البحث بعث السكينة في نفوس المسلمين والمسلمات من عذاب الحريق في الآخرة ، ومن الوعيد به في التنزيل ليس لعدم اجتماع الضدين ، إنما لتعيين الآية القرآنية علة وأسباب عذاب الكفار بالنار من جهات :
الأولى : قول إن الله فقير لأنه سبحانه أمر الناس بالزكاة ورغبتهم بها ووعدهم عليها خيراً .

(١) سورة الحج ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

ووردت رواية تفيد أن قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) (عن الإمام علي عليه السلام قال : قيل : يا رسول الله قوم لنا السعر . قال : إن غلاء السعر ورخصه بيد الله ، أريد أن ألقى ربي وليس أحد يطلبني بمظلمة ظلمتها إياه .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : علم الله أن فيمن يقاتل في سبيله من لا يجد قوة ، وفيمن لا يقاتل في سبيله من يجد ، فندب هؤلاء إلى القرض فقال { من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضغافاً كثيرة والله يقبض ويبسط }^(٢) قال : يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده ، ويقبض عن هذا وهو يطيب نفساً بالخروج ويخف له ، فقوه مما في يدك يكن لك في ذلك حظ^(٣).

ولا يتعارض هذا المعنى مع إطلاق آية البحث وإرادة دفع الزكاة ، وهو المتبادر من ظاهر آية البحث .

الثانية : قول الجاحدين ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ بالتباهي بما أتاهم من فضله ، مع حجب ما كتب للفقراء فيه من زكاة لا تزيد في أغلب الحالات على ٢,٥ ٪ من مجموع الناتج والربح .

الثالثة : قتل الأنبياء وإرادة مشركي قريش قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوالي هجومهم على المدينة المنورة .

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٣) الدر المنثور ٣/١٣١ .

الرابعة : الوعد من عند الله عز وجل بالبشارة للمؤمنين بالأمن في الآخرة ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

إفادات الآية

لما تفضل الله عز وجل وباهى الملائكة بالإنسان ، وجعله ﴿رفي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، فانه سبحانه أفاض على أجيال الناس بالنعيم والبركة ، واختار من ذات جنس الناس وسائط بينه وبينهم ، وفي التنزيل ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

و(عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنما أنا بشر أنسى ، كما تنسون ، فأیکم ما شك في صلاته ، فلينظر أخرى ذلك للصواب ، فليتم عليه ، ويسجد سجدة) ^(٤). ترى لماذا لم ينزل الله الملائكة لدعوة عامة الناس لسبل الإيمان ، واجتناب السيئات ، الجواب من جهات :

الأولى : تفضل الله بتسمية الإنسان خليفة في الأرض شاهد على عدم تولي الملائكة شؤون التدبير فيها .

(١) سورة البقرة ٢٧٤.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة ابراهيم ١١.

(٤) معرفة السنن والآثار للبيهقي ٤٣٥/٣.

الثانية : كفاية قيام الملائكة بالوحي إلى الأنبياء في هداية الناس ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

الثالثة : نزول الملائكة لنصرة الأنبياء والذب عنهم حتى إتمام أداء رسالاتهم .

ويدل القرآن والسنة والسيرة وأخبار الصحابة على نزول الملائكة في معركة بدر وأحد ، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٢).

الرابعة : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء وتفكر وتدبر في الكون وأسرار الخلق ، وهو نوع طريق ومنهاج للرشاد والهدى .

و(عن معاذ بن جبل قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، فأصاب الناس ريح فتقطعوا ، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : لأغتتمن خلوته اليوم ، فدنوت منه فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني ، أو قال - يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار؟

قال : لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان ، وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير .

قلت : أجل يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل يتغني به وجه الله ، ثم قرأ الآية { تتجافى جنوبهم عن المضاجع }^(٣) .

(١) سورة الانعام ١٤٩.

(٢) سورة الأنفال ٩.

ثم قال : إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت
أجل يا رسول الله . قال : أما رأس الأمر فالإسلام ، وأما عموده فالصلاة
، وأما ذروة سنامه فالجهاد .

وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله . قلت : ما هو يا رسول
الله ؟ فأشار بإصبعه إلى فيه^(٢) .

فقلت : وإنا لنؤاخذ بكل ما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ،
وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم ، وهل
تتكلم إلا ما عليك أو لك ؟^(٣) .

وخاتمة الحديث أعلاه تفسير لآية البحث وزجر عن التعدي في القول
لأنه سبيل إلى العذاب في نار جهنم ، وهو الذي تدل عليه خاتمة آية
البحث.

الخامسة : أنزل الله عز وجل الكتب السماوية بواسطة الملائكة ، وفيه
شاهد بتسليم الملائكة بكفاية الهداية بالوحي والتبليغ .

السادسة : عدم إنقطاع الملائكة عن الناس ، إذ ينزل بعض الملائكة إلى
الأرض بأذن الله ووظائف معلومة لتقريب الناس إلى سبل الطاعة
وابعادهم عن الحروب والقتال ، وحينما احتج الملائكة على جعل آدم
﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) لأن طائفة من الناس يعيشون في الأرض فساداً ،
وطائفة يقتلون بغير حق .

ومن الفساد والقتل الذي ذكرته الملائكة جمع المشركين الجيوش
وهجومهم على المدينة المنورة لإرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة السجدة ١٦.

(٢) في الأصل (إلى فيك) ولعله سهو من النساخ .

(٣) الدر المنثور ٣/٢٤٤.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

وسلم ، ولا يعودون إلى مكة إلا بعد قتل عدد من المهاجرين والأنصار ، وحتى في معركة بدر التي أخبر الله عز وجل عن نصر عظيم فيها للمسلمين بقوله تعالى ﴿وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) فإنه سقط يومئذ أربعة عشر شهيداً من الصحابة (ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين)^(٢) .

ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) في الرد على الملائكة نزولهم لنصرة النبي والمؤمنين لوجوه :

الأول : منع الإسراف في القتل .

الثاني : تحقيق النصر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : بعث اليأس والقنوط في نفوس الذين كفروا .

الرابع : فتح باب التوبة للناس ، فمن مقدماتها تجلي معجزات النبوة والتنزيل في ميدان المعركة .

الخامس : رؤية الملائكة لإخلاص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في الجهاد في سبيل الله ، مع الدعاء والرجاء والمسكنة وحسن التوكل على الله .

وهناك مسألتان :

الأولى : لماذا لم تقل الآية أعلاه (لقد نصرك الله بيدر) بصيغة المفرد المخاطب .

الثانية : هل المسكنة والتضرع إلى الله عشية ويوم معركة بدر من الذلة التي ذكرتها الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ .

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٤/١ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

أما المسألة الأولى فإن النصر للنبي وأصحابه الذين حضروا معركة بدر، وللذين لم يحضروها ، وهو نصر متجدد لأجيال المسلمين على الشرك وعبادة الأوثان إلى يوم القيامة ، لموضوعية هذا النصر في استئصال عبادة الأصنام والتزلف إليها من الأرض بالإضافة إلى قانون وهو تقدير الآية : يا أيها النبي لقد نصرك الله بدر .

لقد ورد في الآية وصف الذلة بقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي قلة وفي ضعف ، وهو يناسب صيغة الجمع في الخطاب في الآية .
كما أخبر القرآن عن نصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة المفرد ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾^(١) .

وأما المسألة الثانية فإن المسكنة والتذلل إلى الله عز وجل في يوم بدر وغيره ليس من الذلة التي تذكرها آية ﴿بِذَرِ﴾ أعلاه لأن هذا التذلل عز وتقوى وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .
وفيه شاهد على استحقاق الإنسان للخلافة في الأرض ، ومن إفاضات آية البحث أن الملائكة والناس سمعوا قول الذين جحدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إذ يتلو المسلمون والمسلمات هذه الآية في الصلاة وخارجها ويتعظون منها ، ويدرك الناس لزوم التسليم بالألوهية المطلقة لله عز وجل .
وتدل آية البحث على حب الله عز وجل للمسلمين والناس جميعاً فهو سبحانه الذي خلق آدم ، وميزه من بين الخلائق بأن نفخ فيه من روحه وجعل هذا النفخ مقدمة لإصلاح بني آدم في الخلقة والتكوين والخلافة في

(١) سورة الفتح ٣.

(٢) سورة المنافقون ٨.

الأرض ولعمارتها بالعبادة وسنن التقوى ، قال تعالى ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وحب الله للعباد نعمة مستقلة أخرى غير الخلق والنفخ والخلافة ويتنفع منه كل إنسان ذكراً أو أنثى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وقد اتخذ الله عز وجل إبراهيم خليلاً ، وأخبر الله سبحانه على اللقاء محبة خاصة على موسى لينجو من فرعون وجنوده وليحمل لواء الرسالة إلى الناس ، قال تعالى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾^(٢)، وقال تعالى في خطاب للمسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

وهل قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤)، من حب الله عز وجل للمسلمين والناس وإذا كان منه فهل يخرج أهل هذا القول المنكر بالتخصيص أو التخصيص من إفاضات هذا الحب الجواب لا، إنه من حب الله للناس ولا يستثنى أحد من الحب وإرادة الإنتفاع من المضامين القدسية لهذه الآية الكريمة .

(١) سورة السجدة ٩.

(٢) سورة طه ٣٨.

(٣) سورة المائدة ٥٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

ومن معاني الحب في الآية أنها دعوة سماوية للذين ﴿قَالُوا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَنَعْبُدْهُ وَرَبَّنَا﴾ ليتوبوا ، وهو من مصاديق تقريب الله عز وجل الناس إلى منازل الهدى والإيمان .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار رحمة ورأفته بالناس فتفضل بنزول آية البحث ليمتنع الناس عن القول القبيح وعن التعدي على مقام الربوبية.

الآية لطف^(١)

ذكرت آية البحث تدوين وكتابة الله عز وجل لأقوال الذين ظلموا ، بقوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾^(٢) ، وتدوين الملائكة أقوال وأعمال العباد ، وأضاف الله عز وجل فعل الكتابة إلى نفسه بقوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد ورد قوله تعالى ﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْفُرُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾^(٣).

وهل يكون تفسير آية البحث : سيكتب رسلنا من الملائكة ما تمكرون ، الجواب نعم ، ولكن تفسيرها لا يختص بهذا المعنى لبقاء الأصل في آية البحث ، وهو أن الله عز وجل هو الذي يكتب ويدون ما قال الذين كفروا ، ثم أن قولهم ﴿إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَنَعْبُدْهُ وَرَبَّنَا﴾ لا ينحصر بصفة المكر الذي تذكره الآية

(١) أكتب هذه السطور في المدينة المنورة بجوار وضيافة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومسجده الشريف في يوم ٢٧ ذي القعدة ١٤٤٠هـ.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة يونس ٢١.

أعلاه ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْفُرُونَ مَا تَمَكُرُونَ﴾^(١) لأن هذا القول فعل واثم وظلم .

ومن إعجاز القرآن ذكر آية البحث لسماع الله عز وجل لقول الذين ظلموا بصيغة الماضي ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ بينما أمر الكتابة من عند الله بصيغة المضارع ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وفيه رحمة من عند الله ، ودعوة للتوبة والإنابة ، وتأتي قراءة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لآية البحث لتبعث الناس على التوبة والإستغفار ، وعلى ترك القول ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْفُرُونَ﴾^(٢) .

ولم يترك الله عز وجل بيان الإمهال بكتابة المعصية الشديدة للسنة النبوية ، إنما جاء بذات القرآن وإخباره عن إرجاء كتابة وتوثيق المعصية ، نعم جاءت السنة ببيان إضافي وتفسير للآية ، وتوثيق نبوي لما فيها من التوثيق والعهد السماوي .

ومن خصائص خلافة الإنسان في الأرض أنه يتلمس لطف الله عز وجل في كل ساعة ، فحالما يلتفت الإنسان إلى فضل الله عليه يدرك قانوناً من وجوه :

الأول : قانون عجز الإنسان عن إحصاء النعم الإلهية التي تترى عليه ومن حوله .

الثاني : قانون صرف الله عن الإنسان أسباب الشر ومقدمات للأذى .

الثالث : قانون منع أخذ السلطان له عن أفعال ارتكبتها تعاقب عليها القوانين الوضعية وتؤاخذ عليها الأعراف .

(١) سورة يونس ٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

الرابع : قانون ستر الله عز وجل للبر والفاجر ، ومنه آية البحث وعدم ذكرها أسماء الذين قالوا إن الله فقير .

الخامس : قانون دفع العبد عن الوقوع في مستنقع الشبهات ، ليتجلى قانون وهو : تدبر الإنسان بالنعم من حوله برزخ دون تعديه وظلمه لنفسه ولغيره .

ولكن الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وعن الإنفاق في سبيل الله لم يتدبروا في تدبير الله عز وجل للأمور ومقدماتها وعواقبها بما ينفع الناس واستدامة الحياة في الدنيا وتهئية أسباب العفو والمغفرة عنهم ، ترى ما هي النسبة بين لطف الله ومضامين قوله تعالى ﴿يَحُورُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ عِنْدَهُ أُمُ الْكِتَابِ﴾^(١).

الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فلطف الله عز وجل أعم وأكبر ، وما المحو والإثبات إلا من لطف الله عز وجل ، وتدل آية البحث بالدلالة الإلزامية على نظام اجتماعي واقتصادي من الإرادة التكوينية ، وهو أن الله عز وجل يجعل الناس على مراتب في اقتناء المال والثروة مع التباين بينهم ويتدارك هذا التباين بالزكاة والخمس والإنفاق في سبيل الله ، ليكون كل فرد منها طريقاً إلى الجنة والنعيم الدائم .

وقد ورد في القرآن والسنة ما يدل على أن الغنى والفقر بين الناس لم يكن عفواً وعن جهد وسعي من الغني ، أو قصور من الفقير في الطلب إنما هو بحكمة ولطف من عند الله وتفضله بتهيئة الأسباب وإزاحة الموانع دون الغنى ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(٢).

(١) سورة الرعد ٣٩.

(٢) سورة الإسراء ٣٠.

وأختتمت آية السياق التي تضمنت الوعيد للذين ييخلون بالزكاة بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) ومن الإعجاز في توافق السنة النبوية والحديث القدسي مع القرآن في الموضوع المتحد ما ورد عن أنس بن مالك (عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبريل (عليه السلام)، عن ربه عز وجل قال : من أهان لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة، وإنني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وإنني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرد، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته، ولا بد له منه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، إن سألتني أعطيته وإن دعاني استجبت له وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة، ولو أعطيته إياه دخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين، لمن لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك،

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك. إني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم إني عليمٌ خبيرٌ^(١).

الآية بشارية

تبين آية البحث عز المؤمنين ، وثبات سنن التقوى بحيث يتلقى الناس إنذار وتبكيك آية البحث للذين كفروا بالقبول والرضا ، والحرص على الإمتناع عن النطق بمفاهيم الشرك والضلالة ، قال تعالى بخصوص مضامين آيات القرآن في خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لِبَشَرٍ مَّتَقِينٍ وَتَنْذِيرٍ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(٢).

لقد نزل القرآن بوجوب الزكاة وقرنها بالصلاة ، وقال الله للناس ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٣).

ومع أن الزكاة إخراج لجزء يسير من المال الشخصي ودفعه إلى الفقراء فقد سماه الله عز وجل زكاة ونماء وبشارة السعة في الرزق والطهارة والفلاح.

وجاءت آية البحث بالإنذار للذين كفروا ، فهل هذا الإنذار من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٤) الجواب نعم ، فمن الإعجاز في الإنذار القرآني أنه يدل على البشارة لمن يجتنب ما ينذر منه القرآن ، وفي التنزيل ﴿يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٥) ونصب (نفس) بالفتحة على نزع الخافض وأصله : ويحذركم الله من نفسه ، وقد

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٦٣/١٢.

(٢) سورة مريم ٩٧.

(٣) سورة البقرة ٤٣.

(٤) سورة الإسراء ٩.

(٥) سورة آل عمران ٣٠.

أعذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاطب لما فعله مصانعة لكفار قريش خشية على أولاده وأمواله التي عندهم في مكة ، وكامل الآية أعلاه هو ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١).

وصحيح أن موضوع آية البحث هو الإنذار إلا أنها بشارة في مفهومها لسماع الله عز وجل لتلاوة وتهجد الذين آمنوا وذكرهم الله عز وجل ، ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية وجوه :

الأول : أداء كل مسلم ومسلمة الصلاة خمس مرات في اليوم .

الثاني : تتألف كل صلاة من عدد من الركعات .

الثالث : وجوب تلاوة المسلم والمسلمة القرآن في كل ركعة من الصلاة فان قلت قد لا يتلو المسلم القرآن في الصلاة عندما يكون مأموماً ، والجواب هذا صحيح إلا أن قراءة الإمام نيابة عن المأمومين ، ويأتيهم أجر التلاوة بقراءته ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢).

الرابع : حصر كل فريضة من الفرائض اليومية بوقت مخصوص ، نعم بين الوقت ومدة الصلاة عموم وخصوص مطلق ، فالوقت الذي يجوز أداء الصلاة فيه أطول ، فمثلاً صلاة الصبح ركعتان مدتها نحو خمس دقائق بينما يكون وقت الأداء من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وهو نحو ساعة ونصف قبل أن تنتقل وظيفة المكلف إلى قضاء الصلاة كالذي يغلب عليه النوم حتى طلوع الشمس .

(١) سورة آل عمران ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف ٢٠٤ .

ومن معاني آية البحث أن الله عز وجل سمع قول ﴿الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) سواء قالوه همساً بحضرة شخص واحد أو بصوت عال عند جماعة أو في البيت أو السوق أو المتدى ، ويدل على سماع الله عز وجل لكل الأصوات ، وفيه ترغيب للمؤمنين بالذكر والدعاء والتسبيح والإقرار باسماء الله الحسنى (عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أيها الناس، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب)^(٢) ، وهل يمكن ذكر صفة (الكاتب) لله عز وجل بدلالة آية البحث وبقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ونحوه ، الجواب نعم ، وهو كاتب وليس مثله أحد في الكتابة ، إذ تبقى كتابته في الدنيا والآخرة ، ولا يقدر على محوها إلا هو سبحانه.

الآية إنذار

من الإعجاز في آية البحث أنها إنذار مبارك يتغشى العوالم الطولية من جهات:

الأولى : الإنذار في الحياة الدنيا بأن الله عز وجل يسمع أقوال الذين كفروا.

كما سمع الله عز وجل تحريضهم على عدم الإستماع لآيات القرآن ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) ، لقد امتنعوا عن الإنصات لآيات التنزيل ، وهذا الإمتناع

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٣٩/٣.

(٣) سورة فصلت ٢٦.

ليس جديداً إذ ورد في قصة نوح وبثه شكواه إلى الله من قومه ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لَتَعْفِرَنَّهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِكْبَارًا *
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾^(١).

ولم يرد لفظ (دعوتهم) في القرآن إلا في الآيتين أعلاه للدلالة على أن
النبي محمداً تحمل أشد الأذى من قومه ولم يدع عليهم إنما كان يدعو لهم
بالهداية ، وإذ أخذ الطوفان قوم نوح فاهلكهم ، فان قریشاً دخلت
الإسلام تباعاً حتى تم فتح مكة ، إذ دخلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم
بعشرة آلاف من الصحابة كثير منهم من قریش ليخرج منها باثني عشر ألف
، بزيادة ألفين مسلم يطلق عليهم (مسلمة الفتح) وقد يطلق عليهم اسم
التابعين ، مع أن المشهور والمختار أن التابعي هو الذي لم ير النبي صلى
الله عليه وآله وسلم ولكنه صحب الصحابي .

وقيل (إن اسم التابعين يطلق على من أسلم بعد الحديبية كخالد بن
الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مسلمة الفتح لما ثبت أن عبد
الرحمن بن عوف شكاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد
فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لخالد :
دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم (كل يوم) مثل
أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه)^(٢).

الثانية : سخط الله عز وجل على الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

الثالثة : كتابة وتوثيق الله عز وجل لأقوال الناس .

الرابعة : الإنذار بالعذاب في عالم القبر للذين يحدون برؤية الله
المطلقة ، إذ يضيق القبر على الكافر ويكون حفرة من حفر النيران .

(١) سورة نوح ٧-٨.

(٢) تفسير القرطبي ٢١٥/٨.

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنِ لَّهٗ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾^(١) قَالَ : عذاب القبر^(٢).

الخامسة : الإنذار من يوم البعث وحال المشركين فيه ، وقد خبروا وهم في القبور ما ينتظرهم من شدة الحساب والعذاب .

السادسة : حرمان الكافر من الشرب من الحوض يوم القيامة .

السابعة : عجز الذي قال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ عن العبور على الصراط يوم القيامة .

الثامنة : اختتام آية البحث بالإنذار بشدة عذاب النار يوم القيامة لكل من :

الأول : الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

الثاني : الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخُنُّ أَغْنِيَاءُ﴾.

الثالث : الذين قتلوا الأنبياء .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار التذكير والموعظة والإنذار ، قال سبحانه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّا نَفَعْتُ الذِّكْرَى﴾^(٣) ومن إعجاز القرآن عدم إحصاء إنذاراته بالمسلمين أو بغيرهم ، ويدل على هذا العموم قوله تعالى ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُنَّ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٤)

(١) سورة طه ١٢٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٠٥/٩.

(٣) سورة الأعلى ٩.

(٤) سورة الأنعام ١٩.

ويشمل الضمير ﴿كُمْ﴾ في ﴿أُنذِرْكُمْ﴾ عموم أجيال المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة ، ولا يختص بالصحابة وحدهم ، وأما ﴿مَنْ بَلَغَ﴾ فيشمل الناس جميعاً ممن بلغه نبأ نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن سمع القرآن والكتب السماوية ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١) ليلبغ الناس في كل زمان أن طائفة من الذين كفروا توجه لهم الخطاب السماوي بدفع الزكاة فلم يكتفوا بالإمتناع عن دفعها ولا بالكفر بها ، إنما تعدوا على مقام الجلال والعظمة والعرش ، وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

ونزلت الآية تبكيتاً لهم ، وإنذاراً للناس جميعاً بما يبعث في نفوسهم إنكار قول ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخَنُ أَعْنِيَاءُ﴾ وتتلو وتسمع أجيال الناس هذه الآية فيستخفون بقولهم ﴿وَخَنُ أَعْنِيَاءُ﴾ وقد أصبحوا جشاً هامدة تحت التراب .

ومن خصائص الإنذار القرآني أنه يحصن الناس من موضوع الإنذار ، ويبعثهم على العمل الصالح ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢) .

ليكون العمل بمضامين الآية أعلاه واقية من عذاب الحريق .
ولولا دلالة خاتمة الآية على إرادة عالم الآخرة في قوله تعالى ﴿وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لظن التالي أو السامع للآية أنهم يذوقون العذاب في الحال وهم في الدنيا .

(١) سورة الفرقان ١.

(٢) سورة الحشر ٧.

الآية موعظة

لقد كان نزول آية البحث رحمة بالأغنياء والفقراء ، أما الأغنياء فان نفعا يتجلى من وجوه :

الأول : دعوة الأغنياء للإقرار بأن عندهم من الأموال هو من فضل الله سبحانه .

الثاني : دلالة الآية في مفهومها على الثناء على الأغنياء الذين ينفقون في سبيل الله .

الثالث : إحتراز الأغنياء من الإمتناع عن دفع الزكاة .

الرابع : دعوة الأغنياء من المؤمنين إلى المبادرة إلى إخراج الزكاة وإعانة الفقراء ، وتعاهد الفرائض العبادية .

فمن إعجاز القرآن عدم إنحصار الواجب والتكليف بفريضة مخصوصة ، وإن كانت الزكاة فريضة أرباب الأموال الذين يملكون النصاب ، فان الصلاة واجب يتصف بأمور :

أولاً : الصلاة واجب عيني على كل ذكر وأنثى بلغا سن التكليف ، وهو اتمام خمس عشرة سنة هلالية بالنسبة للذكر ، وتمام تسع سنوات بالنسبة للأنثى بلحاظ أنه أدنى سن تحيض به المرأة ، وبه قال الإمامية والحنفية والحنابلة ، وهو الظاهر عند الشافعية ، وفي هذا الزمان ، وعند اكثر الشعوب والأمم يتأخر الحيض عند المرأة عن هذا السن ، فلا بد من موضوعيته .

ثانياً : الصلاة واجب مطلق إذ ينقسم الواجب إلى شعبتين :

الأولى : الواجب المطلق وهو الذي يؤتى به على كل حال .

الثانية : الواجب المقيد وهو الذي يؤتى به عند إجتماع شرائطه مثل

الصيام فانه مقيد بالصحة والحضر لقوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ

عَلَى سَفَرٍ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ»^(١) ومثل الزكاة فلا تجب إلا عند بلوغ مال المكلف النصاب ، وفي أموال وأعيان مخصوصة ، وقد تقدم البيان والتفصيل .

ثالثاً : يؤدي المكلف الصلاة اليومية على كل حال ، فإذا لم يستطع ادائها قائماً يؤديها جالساً ، وإذا تعذر عليه فيؤديها وهو مضطجع على جانبه أو مستلق .

ومن الإعجاز في خلق الإنسان التداخل الزمني في أداء الفرائض من غير تعارض بينها ، وأداء كل الفرائض الأخرى يبعث المسلم على أداء الفريضة الأخرى، ويجعله مشتاقاً لإتيان الفرائض وفق ما أمر الله ورسوله ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢) .

وأما مصاديق الرحمة في آية البحث لخصوص الفقراء فمن جهات :
الأولى : مواساة آية البحث للفقراء .

الثانية : بيان قانون وهو لطف الله بالفقراء .

الثالث : إنتفاء التعارض بين حال العز وبين تلقي الزكاة لان إخراج الغني لزكاة أمواله واجب ، ولأن الأموال التي عنده من فضل الله ، فيتلقى الفقير الزكاة كفضل من الله عز وجل .

الرابعة : دعوة الفقراء للتوجه بالدعاء وسؤال الله من فضله فما دام الذي عند الأغنياء من فضل الله فان كل عبد يستطيع سؤال الله عز وجل من فضله ، وهو باعث على التقوى .

الخامسة : احتراز الفقراء من التعدي في القول والعمل ، ومن هذا التعدي قول ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وفيه إنذار للناس جميعاً من غلبة

(١) سورة البقرة ١٨٤ .

(٢) سورة الحشر ٧ .

النفس الشهوية واتباع الشيطان ، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

السادسة : تلاوة آية البحث رحمة للأغنياء والفقراء ، وكذا بالنسبة للإستماع لها ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

السابعة : سعي الفقراء إلى النجاة والفوز يوم القيامة واجتناب أسباب العذاب في الآخرة .

الآية رحمة

من خصائص التنزيل أنه يضئ دروب الهداية للناس ، ويمنع ديب الغشاة إلى بصائرهم ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٣).

وكل آية من القرآن رحمة من عند الله للناس جميعاً مع التباين في الإنتفاع منها ، ومن الإعجاز الذاتي لها أنها برهان وحجة إلى يوم القيامة يتلوها الإنسان فيدرك مضامينها ، ولا تفارقه وإن أراد نسيانها.

وهل الآية القرآنية من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٤) الجواب نعم ، فلا ينصرف الجهاد دائماً إلى السيف ، إنما يتحقق بالموعظة وبالإعراض عن الكفار ، والزهد فيما عندهم.

(١) سورة الأنعام ١٤٢.

(٢) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٣) سورة الأحزاب ٤٣.

(٤) سورة التوبة ٧٣.

وقد جمعت الآية أعلاه الكفار والمنافقين ولم يقم أو يأمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقتل المنافقين لإرادة الجهاد بالموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن مصاديق الرحمة في آية البحث تحصين الألسنة عن التعدي والظلم بالقول ، لقد إختار الله عز وجل الإنسان للخلافة في الأرض والعمل بالأحكام التي تنزل من عند الله عز وجل ، والحفاظ على ذات الأرض وعمرانها وكنوزها من غير أن يتعارض هذا الحفاظ مع الإنتفاع الأمثل من ذخائرها ، ومن غير الإضرار بها أو حرمان الأجيال اللاحقة من نعمها ، وقد ورد في يوسف عليه السلام وخطابه لملك مصر في التنزيل ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فمن معاني حفظ يوسف عليه السلام الأمانة في الوزارة والمدخر من الحبوب والحنطة والشعير لسنوات القحط ، والحفاظ على الأرض والتربة ، وعدم جعلها بوراً أو غير صالحة للزراعة ، وحفظ كنوزها للأجيال اللاحقة .

ولقد أنعم الله عز وجل على طائفة من الناس فجعلهم أرباب أموال وغنى ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وكان رَبُّكَ بَصِيرًا^(٢).

ليتعاون الناس على إجتناّب الفتنة في الأموال بأن لا يحقر أو يظلم الغني الفقير ، ولا يحسد الفقير الغني ، ولا يسرقه ويعتدي عليه ، وقد تكون الفتنة في الجاه والسلطان ، وفي الصحة والسقم ، فبعث الله سبحانه الأنبياء وأنزل الكتب السماوية ليتغلب الصبر على الحسد ، والرضا على

(١) سورة يوسف ٥٥.

(٢) سورة الفرقان ٢٠.

السخط ، والمودة على النفرة بين الناس ، وأمر الله عز وجل الأغنياء بالزكاة من أموالهم ودفعها إلى الفقراء لمواساتهم وبعث الأمل في عيونهم. وذكرت آية البحث تعدي بعض الكفار من أصحاب الأموال زجراً لهم ، ومنعاً لأقرانهم من محاكاتهم ، ونزاعاً لقتيل الشر من الظهور العام ، وفيه دعوة للفقراء للهداية والصبر واللجوء إلى الله عز وجل .

وعن أبي سعيد الخدري قال : كنت في عصابة فيها ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم يستر بعضاً من العري وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع إلى قراءته فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى قام علينا فلما رأى القارىء سكت ، فسلم وقال : ما كنتم تصنعون؟

قلنا : يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا ونحن نستمع إلى قراءته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال هكذا بيده هكذا ، فحلق القوم وبرزت وجوههم فلم يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أحداً وكانوا ضعفاء المهاجرين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء المؤمنين بنصف يوم مقداره خمس مائة سنة^(١).

وإذا كان فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم مع قيام هؤلاء الأغنياء بواجباتهم العبادية فهل يدخل أغنياء الكفار النار قبل فقرائهم خصوصاً الأغنياء (الذين قالوا إن الله فقير) الجواب لا دليل عليه ، فمن رحمة الله الواسعة التي ينشرها يوم القيامة عدم تعجيل عذاب النار لطائفة خاصة من أهلها ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

(١) الكشف والبيان ٢٢٨/٥ .

(٢) سورة الحج ٥٧.

الحاجة لآية البحث

لقد جعل الله عز وجل حاجة الناس إليه متصلة ومتجددة ، وتفضل بقضاء حوائجهم وجعل فضلاً منه تعالى في كل باب ومورد ، ومن موارد الحاجة لزوم أداء التكاليف ، وتدل فريضة الزكاة ومصاحبتها للنبوة ومجئ الأنبياء والرسول بها على وجود فضل وزيادة عند الله في أرزاق الناس ، وهذه الزيادة من وجوه :

الأول : طول العمر .

الثاني : زيادة المكاسب .

الثالث : المضاعفة لمن ينفق في سبيل الله ، قال تعالى

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

الرابع : وفرة المؤون والزاد والماء ، وتتجلى في كثرة مياه الأنهار والبحار والأمطار معاني ومصاديق من الفضل الإلهي على أجيال الناس المتعاقبة .

الخامسة : قرب ما يحتاجه الإنسان منه ودنو الفضل إليه ويأتيه نجوماً وتارة دفعة ، وكل مرة يكون الفضل الإلهي مناسبة لتذكير الفرد والجماعة بوجوب عبادة الله عز وجل .

وكل آية قرآنية هي فضل من عند الله عز وجل على الناس جميعاً من جهات :

الأولى : نزول الآية القرآنية .

الثانية : بقاء الآية القرآنية بين الناس .

الثالثة : تلاوة المسلمين والمسلمات للآية القرآنية .

الرابعة : سلامة الآية القرآنية من التحريف ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١).

الخامسة : الأجر والثواب العاجل والآجل في تلاوة الآية القرآنية والعمل بمضامينها .

السادسة : البشارة والإنذار في الآية القرآنية .

السابعة : العمل بمضامين الآية القرآنية ، ويأتي الفضل على ذات العامل بها وذويه وجيرانه ، فقد تجد شخصاً يعادي المؤمن ويسبب له الأذى بينما يأتيه الفضل العظيم من عند الله بسبب هذا المؤمن لصلة القربى أو الجوار ونحوه ، وهو لا يتعارض مع التحذير من معاداة المؤمن .

وعن (معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن يسيراً من الرياء شرك ، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصايح الدجى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة)^(٢).

وهل قول الذين كفروا ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ ﴾^(٣) من العداوة للمؤمنين التي وردت في الحديث أعلاه ، الجواب نعم ، وهذا القول يؤذي المؤمنين وهو عداوة لله عز وجل ، فتفضل الله عز

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) الدر المنثور ٤٣٤/٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

وجل وأنزل آية قرآنية في ذم وتوبيخ القائلين بأنه سبحانه فقير مع الوعيد بالعذاب الأليم لهم يوم القيامة ، لتكون آية البحث حاجة للناس من جهات :

الأولى : توثيق قول الذين كفروا لبقى شاهداً على جحودهم وجهالتهم وعداوتهم لله ورسوله ، فلا تختص عداوتهم بهذا القول بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إنما يعادون كل الأنبياء لأنهم جاءوا بوجوب الزكاة .

الثانية : بيان المصداق الواقعي لسمع الله عز وجل لكل الأصوات ، إذ يحتاج الناس لغة المثال والشواهد ، وفي التنزيل ﴿وَلَكِ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١) وقد يضرب المشركون الأمثال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، وفي قوله تعالى ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾^(٢).

قال الزمخشري (مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون)^(٣)، وبه قال ابن عطية^(٤)، وغيره.

والمختار أن الآية أعم وتشمل ما اتخذوه من الأمثال للجدال والمغالطة والتشويش على المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الحشر ٢١.

(٢) سورة الإسراء ٤٨.

(٣) الكشاف ٤٥٢/٢.

(٤) المحرر الوجيز ٩٧/٥.

ولأن الله عز وجل أمرهم بالزكاة ، وأخبر بأنها قرض له سبحانه ،
وأن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تصل إلى يد الفقير والمسكين والمحتاج
﴿قَالُوا إِنْ أَلَّ اللَّهُ فَقِيرٌ﴾^(١).

ولا يعلمون بأن اخبار الله بأن الصدقة والزكاة قرض له شاهد وتأكيد
على يوم القيامة ، ومواطن الحساب وحاجة الناس يومئذ لكل عمل صالح
، ومنه الصدقة وإن كانت قليلة ، وأن الصدقة تصل إلى يد الله قبل أن
يقبضها الفقير دليل على أن الله عز وجل حاضر مع الناس ، ويرى ما
يفعلون ، ويقربهم إلى منازل الطاعة (عن ابن عباس قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم : تصدقوا فإن أحدكم يعطي اللقمة أو الشيء
فتقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ، ثم تلا هذه الآية { ألم
يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات }^(٢) فيريها كما
يربي أحدكم مهره أو فصيله فيوفيها إياه يوم القيامة)^(٣).

الثالثة : من فضل الله في آية البحث اخبارها المسلمين والناس عما
يقوله الذين كفروا في متدياتهم وخلواتهم ، وبعث المسلمين على الإحتراز
من قولهم ، والعصمة من ضرره عليهم وعلى الناس.
الرابعة : دعوة آية البحث المسلمين للجهاد بالكلمة والموعظة والمبادرة
إلى دفع الزكاة ، وتعاهد الإحسان إلى الناس من منازل الإيمان ، وإفشاء
السلام.

فصحيح أن موضوع دفع المسلم الزكاة لا يتعلق بالذين كفروا ممن قال
﴿إِنْ أَلَّ اللَّهُ فَقِيرٌ﴾ ولكنه تبكيت لهم ، وإخبار للناس جميعاً بعصمة المسلمين
عن الإنصات للذين كفروا في تعديهم على مقام الربوبية.

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة التوبة ١٠٤.

(٣) الدر المنثور ٥/١٥٧.

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ لبيان عظيم سلطان الله عز وجل ، وأن الأشياء والأصوات حاضرة عنده سبحانه .
ومن مصاديق ومعاني سمع الله عز وجل للأصوات أمور :
الأول : يعلم الله عز وجل بما يقوله الناس قبل أن يخلق آدم عليه السلام .

الثاني : يعلم الله عز وجل كل قول ، فقد ذكرت آية البحث سماع الله عز وجل لقول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ولم تذكر الآية الذين سمعوا واستمعوا لهذا القول .
فهل عدم ذكر مسألة سماع هذا القول دليل على عدم الإثم أو العقوبة على سماع الباطل ، الجواب فيه تفصيل ، فلا بد من إنكاره ولو بالقلب ، وقال تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١) .
(١)

فمن وظائف الأنبياء والصالحين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكل منهما فرع من فروع الدين .
وقال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) .

الثالث : إن الله عز وجل هو الستير للناس ، ولم يرد لفظ الساتر والستير في أسماء الله عز وجل التسعة والتسعين ، وورد في الأخبار أن الله

(١) سورة الإسراء ٣٦ .

(٢) سورة الأنعام ٦٨ .

عز وجل هو الستار ، وباب الخبر أوسع وأعم من باب الأسماء ، سواء الأسماء التوقيفية أو مطلقاً.

وقد ورد اسم ستير لله عز وجل في حديث للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (عَنْ عَطَاءٍ عَنْ يَعْلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَّازِ^(١) فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيٌّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتِرْ)^(٢).

ومن الإعجاز في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما رأى قضية عين وفعلاً من شخص تفضل وصعد المنبر وأوعظ وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأنشأ قانوناً يعمل ويتنفع منه المسلمون والناس إلى يوم القيامة في أمور الحياة اليومية ، وفي البيت والسوق والمسجد والصلوات الإجتماعية العامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

ولم يذكر النبي عند إرتقائه المنبر علة وسبب وعظه وأمره ونهيه ، فلم يذكر اسم الشخص الذي اغتسل في مكان مكشوف وبانت عورته ولم يوبخه ليكون هذا الوعظ من الستر أيضاً .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤) وهل ستر الله عز وجل للناس من الكلبي المتواطئ الذي يكون بمرتبة واحدة ومتساوية ، أم أنه من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

(١) البراز : الفضاء الواسع من الأرض بحيث يكون الإنسان فيه مكشوفاً للغير .

(٢) سنن النسائي ١٦٦/٢ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٤) سورة ن ٤ .

المختار هو الثاني فستر الله عز وجل للمؤمن أكثر وأكبر منه للكافر ، وذات النسبة أيضاً بين الكفار ، فستر الله عز وجل للذي يعلم الله أنه يتوب أكبر منه للذي يموت على الكفر بالإضافة إلى مسألة وهي أن الله عز وجل أعلم بعواقب الأمور ، فقد يظهر الله عز وجل فعلاً للعبد ويفضحه لما فيه خيره وصلاحه ، ولإتعاظ الناس منه ، وحتى هذا الإظهار يكون بالمقدار والحد الأدنى الذي يكون فيه النفع الخاص والعام .

وذكرت آية البحث قول الجاحدين والذي يتضمن شعبتين متداخلتين :
الأولى : قولهم بأن الله فقير .

الثانية : إدعاؤهم الغنى .

وإذ ابتدأت آية البحث بسماع الله عز وجل لقول الذين جحدوا بالتنزيل والنبوة (ان الله فقير ونحن أغنياء) فقد اختتمت بقوله تعالى ﴿وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ﴾^(١) ، لتكون الصلة بين أول وآخر الآية معجزة من جهات:
الأولى : ترتب الجزاء الأخروي على القول والفعل في الدنيا ، وبيان نزول الخسارة في الآخرة بالذين كفروا ، قال تعالى ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢).

الثانية : سماع الله عز وجل لما يقوله الناس في أيام حياتهم في الدنيا لتحضر هذه الأقوال معهم في الآخرة.

الثالثة : بيان مسألة وهي أن الذين ﴿قَالُوا إِنْ إِلَهُ فَقِيرٌ﴾ ماتوا على الكفر والجحود ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة النحل ١٠٩.

الرابعة : عدم ترك أقوال وأعمال الناس تذهب سدى ، إنما هي مكتوبة ومحفوظة عند الله عز وجل لتحضر معهم يوم الحساب.

وهل تحضر الأموال التي بخلوا بها ، الجواب نعم لتكون حجة عليهم في ذاتها وعاقبتها ، وكيف أنهم لم ينتفعوا منها حتى صارت وبالاً عليهم في النشأتين.

فان قلت قد علمنا صيرورتها وبالاً ومادة للعذاب لأهلها في الآخرة فكيف كانت وبالاً عليهم في الدنيا ، الجواب من جهات :

الأولى : نزول آية البحث في ذم وتبكيك الذين يمتنعون عن دفع الزكاة.

الثانية : رؤية الكفار قيام المؤمنين بدفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله مع قلة ما في أيديهم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٢﴾.

الثالثة : حال الإرباك والخشية على الأموال التي لا يخرجون زكاتها وعدم الطمأنينة التي تصاحب هذا الإمساك والبخل.

الرابعة : نزول القرآن بالثناء على الذين يخرجون من أموالهم الزكاة ، وإخبار القرآن والنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن حسن الثواب لهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فليُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ (٣).

(١) سورة البقرة ١٦١.

(٢) سورة المؤمنون ٦٠-٦١.

(٣) سورة الطلاق ٧.

وعن خريم بن فاتك الأسدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
الناس أربعة ، والأعمال ستة.

موسع عليه في الدنيا والآخرة.

وموسع له في الدنيا مقتور عليه في الآخرة.

ومقتور عليه في الدنيا مقتور عليه في الآخرة.

ومقتور عليه في الدنيا موسع عليه في الآخرة.

والأعمال ستة : موجبتان ، ومثل بمثل ، وعشرة أضعافها ، وسبعة
مائة ضعف.

من مات مسلماً أو مؤمناً لا يشرك بالله تعالى شيئاً دخل الجنة.
ومن مات كافراً دخل النار ، من هم بحسنة حتى يشعرها قلبه كتبت له
حسنة لا تضاعف.

ومن عمل سيئة كتبت عليه سيئة واحدة لم تضاعف عليه.
ومن عمل حسنة كتبت له عشر أمثالها ، ومن أنفق نفقة في سبيل الله
عز وجل كتبت له سبع مائة ضعف^(١).

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل مال ،
وإن كان تحت سبع أرضين يؤدي زكاته ، فليس بكنز ، وكل مال لا يؤدي
زكاته ، وإن كان ظاهراً فهو كنز^(٢).

الخامسة : مجئ السنة النبوية بدم الذين يجسسون الزكاة ، وفيه تفسير
لآية البحث ، وعن أبي ذر قال : ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم ولا
يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمه تنطحه بقرونها
وتطؤه بأخفافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولها حتى يقضى^(٣).

(١) الأحاد والمثاني ٢١٠/٣.

(٢) الطبراني / المعجم الأوسط ٩٠/١٨.

(٣) النسائي / السنن الكبرى ١٤/٢.

وعن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر أخذ عطاءه ، فانطلق مع الخادم ليشتري حوائجه من السوق ، ثم ابتاع بما بقي فلوسا ، فتصدق بها ، ثم قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من أوكى^(١) ، على ذهب أو فضة ، لم ينفقه في سبيل الله كان جمرًا يوم القيامة يكوى به^(٢).

ومن إعجاز الآية من جهة الصلة بين أول وآخر الآية أنها ابتدأت بأمور :

الأول : سماع الله عز وجل لقول الجاحدين .

الثاني : وقوع هذا القول في الحياة الدنيا وأيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : ذكر قول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾.

الرابع : ذكر الآية لسماع الله لهذا القول بصيغة الوعيد . وأختتمت آية البحث بأمور :

الأول : صدور قول وخطاب من عند الله عز وجل يوم القيامة لكل طائفة من الناس.

الثاني : توجه قول وخطاب الله لخصوص الكفار الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌّ أَعْنِيَاءُ﴾ .

الثالث : مجئ موضوع خطاب الله عز وجل للذين كفروا يوم القيامة بصيغة النص الجلي الخالي من التردد أو الإجمال .

الرابع : الوعيد بشدة عذاب الذين ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾.

(١) أوكى يوكي إيكاء : أي جمع في وعاء وجراب إشارة إلى الإدخار.

(٢) الطبراني / المعجم الأوسط ٢٠٦/١٢.

جمع الآية بين قول ان الله فقير وقتل الأنبياء

بعد أن أخبرت آية البحث عن كتابة وتدوين الله عز وجل لأقوال الجاحدين أخبرت عن قبيح فعل صادر من طائفة وهو قتل الأنبياء ولا يختص هذا الأمر بأيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه يبين قيام الذين كفروا بفعل أشد قبحاً وظلماً وتعدياً على أشرف الناس الذين بعثهم الله عز وجل وسائط بينه وبين الناس وهم الأنبياء ، إذ قتلهم مع صفة النبوة التي يتصفون بها ، لا لشئ إلا لأنهم دعوا الناس إلى الهدى والإيمان.

ولا يختص هذا الفعل بطائفة وأهل ملة مخصوصة لتعاقب بعثة الأنبياء على مر الدهور .

لقد صدر قول (ان الله فقير) من طائفة من الذين كفروا أيام نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكذا فان قتل الأنبياء صدر من طائفة من الذين كفروا ولكن في الأجيال السابقة ، ومن معاني الجمع بينهما في آية البحث وجوه :

الأول : رضا الذي قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) بقتل الأنبياء .

الثاني : الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) على ذات نهج الذين قتلوا الأنبياء.

الثالث : إتحاد سنخية الفعل ، ولكنه جرى على السنة الجاحدين و(قالوا ان الله فقير) أما الذين كفروا في الأمم السابقة فقد بان وظهر

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

كفرهم بقتل الأنبياء ، قال تعالى ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

الرابع : قتل الكفار للأنبياء سبب ومقدمة لقول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌ أَغْنِيَاءُ﴾.

الخامس : وهل يدل تقييد القرآن قتل الكفار للأنبياء بغير حق على عصمة الأنبياء ، الجواب لا ، والمختار هو عصمتهم من المعصية إلا أن هذه الآية لا تدل عليه ، نعم تفيد تنزيه الأنبياء مطلقاً وأن أي إيذاء واحترار بالأنبياء هو ظلم وتعد ، ومنه بخصوص قسمة الصدقات قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾^(٢)، وعن داود بن أبي عاصم قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسما ههنا وههنا حتى ذهبت ، ورآه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل ، فنزلت هذه الآية^(٣).

السادس : من أظهر أسباب قتل الكفار للأنبياء دعوتهم لدفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله عز وجل ، وهل لقول الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌ أَغْنِيَاءُ﴾ موضوعية في محاولات قريش ونحوهم لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الجواب نعم ، لذا فمن إعجاز آية البحث أمور : الأول : إنذار المشركين على عزمهم على إغتيال أو قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة المائدة ٣٢.

(٢) سورة التوبة ٥٨.

(٣) الدر المنثور ٩٧/٥.

الثاني : منع المشركين من السعي الحثيث لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : جعل المشركين يترددون في إنفاق المال لغايات منها قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : إصابة خطط المشركين لقتل النبي بالنقص .

الخامس : زجر المنافقين عن تحريض وإعانة المشركين لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(١).

السادس : بعث اليأس والقنوط في قلوب المشركين .

السابع : صيرورة رؤساء المشركين في حال عجز عن إيجاد الأفراد الذين ينفذون أوامرهم لإغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وهل يمكن القول بقانون وهو أن كل آية من القرآن واقية دون اغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الجواب نعم ، وهو من الإعجاز الغيري للقرآن ، لإدراك الناس صدق نزولها من عند الله ، للتدبر في معانيها وتشغلهم دلائلها وأثرها عن المكر والكيد .

الثامن : بيان مسألة وهي السبق الزماني لمعصية الجاحدين قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

التاسع : تبين آية البحث مسألة وهي أن قول (إن الله فقير) معصية كبيرة وأنها ستكتب في نظم قتل الكفار الأنبياء ، لبيان أن الإفتراء والتعدي

(١) سورة النساء ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران ٢٠ .

على مقام الربوبية بالقول أو الفعل من الكبائر ويتوعد عليه الله عز وجل النار.

لقد أنقرضت ومضت أيام الأمم الخالية التي قتل بعض أفرادها الأنبياء ، ومع هذا ذكر الله عز وجل هذه المعصية لعظيم منزلة الأنبياء والإخبار عن غضب الله عز وجل على الذين قتلوهم ، وأن هذا القتل حاضر عنده سبحانه ، وعندما قالت طائفة من الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) لأنه سبحانه سألهم إعطاء الفقراء مما تفضل به عليهم ، ورغبهم بأن هذا العطاء دين وقرض عليه سبحانه جمعوا بين الإستكبار والإستهزاء والتحدي وقالوا (إن الله فقير ونحن أغنياء) .

ويدل قولهم هذا على إقرارهم بصدق نزول القرآن من عند الله ، إلا أن يراد انكار التنزيل لأن الله ليس بفقير ، ولكن آية البحث تنفي هذا المعنى والقصد لإفادتها غضب الله عز وجل على (الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) وأن الله عز وجل سيذيقهم العذاب على القول وما فيه من الجحود بعد العلم والإقرار قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢).

من غايات الآية

الأولى : بيان قانون وهو سماع الله لكل ما يقوله الناس مجتمعين ومتفرقين ، وقد ورد في التنزيل ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٣) .

ترى ما هي النسبة بين العلم والسمع ، الجواب العموم والخصوص المطلق ، فالسمع فرع العلم ، وينفرد الله بخصوصية سماع كل الأصوات

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة النمل ١٤.

(٣) سورة طه ٧

التي تصدر من الخلائق في كل آن ، وكلها حاضرة عنده ، وهو سبحانه يعلم بها قبل أن يخلق أصحابها .

وهل من هذا العلم الجمع في آية البحث بين قول الجاحدين ﴿إِنْ
اللَّهُ فَقِيرٌ﴾ وبين قتل أسلافهم من قبل للأنبياء الجواب نعم.

الثانية : من عظيم قدرة الله عز وجل أنه يميز بين الأصوات فلا تختلط عنده ، ويسمع من في المغرب ومن في المشرق في آن واحد ، ويدل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١) ، على أن الله عز وجل يسمع كل الأصوات ومدى الجهر أو الإخفات بها وأنه سبحانه لا يرضى برفع الأصوات عند رسوله الكريم فكيف بالذين يتناجون بافتراء وتعد وأن الله عز وجل فقير لأموالهم ليدفعها إلى الفقراء.

الثالثة : لم يرد الله عز وجل على الذين قالوا إن الله فقير ويدفع قولهم بأنه الغني ، إنما أخبر سبحانه بأنه سمع قولهم ، فهل يعني هذا أنه لم يرد عليهم ، الجواب لا ، فكل آية من القرآن هي رد عليهم ، وتتضمن آية البحث الرد من وجوه :

الأول : نزول آية البحث من السماء ، ولا يقدر على هذا الإنزال إلا الله سبحانه.

الثاني : مجئ مضمون آية البحث بلغة التأكيد والقطع بقوله تعالى (لقد) والأصل (قد) ولكن دخلت عليها اللام للتوكيد قال الفراء : (وظن بعض العرب أن اللام أصلية فأدخل عليها لاما أخرى فقال: لَلْقَدْ كانوا لَدَى أزمنا ... لَصَنِيعِينَ لِبَاسٍ وَتَقَاءِ)^(٢).

(١) تهذيب اللغة ٣/ ١٨٨.

(٢) سورة الحجرات ٢.

ولم يثبت قول الفراء هذا ، ولو دار الأمر في بيت الشعر أعلاه بين
للقد ، وفقد ، فهل يكون هو الثاني ، الجواب لا ، إنما يحمل قول الفراء
على التوثيق ببيت الشعر هذا .

الثالث : إخبار آية البحث عن سماع الله لقول الذين كفروا (إن الله
فقيير) فضح من السماء لهم ، ومانع من تماديهم في الغي والتعدي والظلم.
الرابع : من الرد على الجاحدين قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ وهل
يكون قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(١) سبياً بكتابة الله عز وجل والملائكة لكل ما
يقولون أو تعجيل كتابة معاصيهم وما يرتكبون من الآثام .

الجواب نعم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ الوعيد
بخصوص القول الصادر منهم ، وكل أقوالهم في المعاصي والجحود والكفر
وهل يمكن صدور قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٢) من المنافقين أو بعضهم الجواب
نعم ، فمن خصائص المنافق أنه يظهر الإيمان في ذات الوقت الذي يضمّر
فيه الكفر والجحود.

الخامس : تذكير الجاحدين بأنهم قتلوا الأنبياء ، صحيح أن القتل لم
يقع على أيدي الكفار أيام إنما كانوا راضين بهذا القتل الذي جرى في
الأزمان السالفة ، ولأنهم أرادوا قتل النبي محمد ليان وحدة سنخية وسمو
رتبة النبوة ، في خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال الله
تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الأنبياء ٢٥.

الرابعة : من غايات آية البحث جعل برزخ بين الذين كفروا وبين القول الباطل إذ تدخل مضامين هذه الآية الى البيوت ، وتكون حاضرة في الوجود الذهني ، ولها موضوعية في المنتديات.

الخامسة : تحذير المؤمنين من الميل والركون إلى الذين قالوا ﴿إِنْ أَلَّ اللَّهُ فَعِيرٌ﴾ ويشمل هذا التحذير فقراء المسلمين ، قال تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾^(١).

السادسة : تأكيد الآية على قانون قبح القتل بغير حق ، فصحيح أن الآية ذكرت قتل الأنبياء وأنه بغير حق ، ولكن المراد مؤاخذه الذين كفروا على مطلق القتل وسفك الدماء.

وهل تشمل الآية هجوم وغزو المشركين للمدينة في معركة أحد والخندق وغاراتهم على أطراف المدينة وحرقتهم نخيل الأنصار من حولها . الجواب إنما تتضمن الآية بالدلالة الإلزامية ذم المشركين على هذا الغزو خاصة وأنهم أرادوه مقدمة لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه بيان لمعجزة سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مقدمات القتل ، وفيه إنذار للمشركين ، قال تعالى ﴿وَكَاذِبٌ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلُكُنَّاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ﴾^(٢).

وهل قتل المشركين لسمية أم عمار وقتلهم للشهداء الذين سقطوا في معركة بدر وأحد والخندق من مصاديق الآية الجواب نعم ، وهو من أسرار جمع آية البحث بين قول الذين كفروا (ان الله فقير) وبين الإخبار عن

(١) سورة النساء ١٤٠.

(٢) سورة محمد ١٣.

قتلهم الأنبياء والأولياء وكتابة هذا القتل أيضاً ، قال تعالى ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾^(١).

السابعة : بيان آية البحث لقانون وهو وقوف الناس بين يدي الله وترتب العقاب على القول القبيح والمنكر.

التفسير

قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾

يحتمل قوله تعالى (قد سمع) وجوهاً :

الأول : إنه إنذار للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

الثاني : إنه إخبار وبلغ ، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾^(٢).

الثالث : إنه دعوة للتوبة والإنابة .

الرابع : فيه عقوبة عاجلة لهم .

الخامسة : إقامة للحجة ، ومقدمة للعقوبة.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، فإن الآية جامعة .

وصحيح أن الآية وردت بصيغة الجملة الخبرية إلا أنها تتضمن صيغة الإنشاء والتحذير والإنذار ، وتقديرها على وجوه :

الأول : يا أيها الناس قد سمع الله قول الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ

وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وتترشح عن هذا النداء مسائل :

الأولى : الموعظة للناس جميعاً .

الثانية : تأديب الناس ، ومنعهم من اتباع خطى الذين كفروا .

(١) سورة الرعد ٤٢.

(٢) سورة النازعات ٤٥.

الثالثة : بيان غضب الله عز وجل من قول بعضهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

الرابعة : بعث الناس على أداء الحقوق الشرعية .

الخامسة : لقد ذكرت آيات القرآن قانون غنى الله عز وجل ، وأن ملك

السموات الأرض له وحده ، كما ذكرت الآية السابقة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، وجاءت آية البحث لتؤكد غنى الله عز وجل في مفهومها

ودلالاتها وما تتضمنه من التوبيخ للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

السادسة : بيان قانون وهو أن الله عز وجل يدافع عن نفسه ، ويؤكد

صفاته الحسنى ، ويجعل الناس يسلمون بها ، ويتزهون عن القول

المخالف.

السابعة : تنمية ملكة الهدى عند الناس وتقريبهم من منازل الإيمان .

وبينما تواصل قريش إرسال التهديد والوعيد للنبي صلى الله عليه وآله

وسلم وأصحابه وتجهز الجيوش العظيمة لقتاله فإن القرآن ينزل بدم الذين

يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) ، لبيان قانون وهو أن الله عز وجل أصلح

النفوس بقواعد وأسس المجتمعات الخالية من الافتراء على الله عز وجل

والتعدي على مقام الربوبية وزجرهم عن منكر القول والفعل ، وبعث

السكينة في نفوس المؤمنين ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَنَبِئِضْرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٤).

لقد أخبر الله عز وجل أنه سمع قولهم ، ولم يسكت عنه بل ذكره في

كتابه المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والباقي إلى يوم

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١٧٦.

القيامة ليستأصل هذا القول من الأرض ، ولا يجادل الذي يمتنع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية بالتعدي والتجاوز على مقام الربوبية ، وهذا الإمتناع رحمة به ، وباب لهدايته ، والتدبر في حاله ، واستحضار يوم القيامة.

فمن إعجاز القرآن مجيؤه بالإخبار عن عواقب الأقوال والأفعال ، لذا وردت الآية السابقة بقانون وهو تطويق عنق الذي يمتنع عن الزكاة والحقوق الشرعية يوم القيامة بشجاع أفعى مع بيان علة ومادة هذا الطوق وهو البخل بالحقوق الشرعية لقوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

الثاني : يا أيها الذين آمنوا قد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ، لبيان قانون وهو أن الآية القرآنية مدد وعون للمؤمنين وقد قال تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢)، إذ أمر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بجدال الذين كفروا ، وإقامة الحجة عليهم ، وتتضمن آية البحث إحتجاج الله نفسه على الذين كفروا ، وفيه بالنسبة للذين آمنوا منافع من جهات :

الأولى : تنمية ملكة الجدال عند المسلمين .

الثانية : بيان القرآن للمسائل التي يجادلون فيها.

الثالثة : إرادة سلامة دين المسلمين ، وتثبيت أقدامهم في مقامات الهداية والإيمان.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

الرابعة : صيانة وعصمة السنة المسلمين من القول الزور والبهتان ، قال تعالى ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾^(١).

الخامسة : بيان قانون وهو جهاد المسلمين في الكلمة وإصلاح الألسن والمفاهيم ، لتدل آية البحث في مفهومها على قانون (لم يغز النبي (ص) أحداً) ، ومن إعجاز الآية أنها لا تدعو للانتقام والبطش بالذين يتصدون على مقام الربوبية ، فمن باب الأولوية الصبر على الذين يتعدون عليهم بالقول.

السادسة : لقد أخبر الله بأنه سمع (قول الذين قالوا انه فقير) فأخبر الله المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة بهذا القول وما فيه من الظلم والتعدي.

الثالث : يا أيها الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء قد سمع الله قولكم من فوق سبع سموات ، وهو من الشواهد على أنه الغني الذي تكون الأشياء والأعيان والأقوال حاضرة عنده فهذا الحضور شاهد على غناه سبحانه .

ومن إعجاز القرآن بيان الآية القرآنية صفة حسن يختص من رحمة الله عز وجل تؤكد بطلان قول الكفار والمنافقين.

وكان الآية تقول لهم إن الذي يسمع من فوق سبع سماوات كلامكم هو الغني وليس بفقير ، وتبين الآية أنهم هم الفقراء إلى الله الذي يسمع مناجاتهم وأحاديثهم ، إن الله عز وجل يعلم أن هؤلاء سيقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ولو شاء لرماهم بالفقر والفاقة ، وما كانت عندهم أموال تتعلق بها الزكاة والحقوق الشرعية ، ولكنه سبحانه ابتلاهم بالمال وفرض الزكاة فآفكروا الفسوق والإفتراء ، فأخبرهم الله القرآن وبواسطة

رسوله أنه سمع قولهم ، وقول الذي سيقولون هذا القول (في قادم الأيام) وإن كانت الآية تقطع هذا القول ، ومن أسرار هذا القطع انك لا تسمع من يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١).

ليكون من إعجاز القرآن تصحيح المفاهيم وتهذيب المنطق ، وإرشاد الناس إلى القول الحسن ، قال تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَى الطِّيبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾^(٢) ، وتدل الآية في مفهومها على إن الله عز وجل يسمع كل قول ، وأنه يثيب المؤمنين على القول الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهل تلاوة المسلم للقرآن من القول الذي يسمعه الله ، الجواب نعم ، فهو سبحانه سامع كل قول ، ومن أسمائه الحسنی (السميع) وليس من قول أو هفيف أو حركة رياح وأصوات الجن ، والإنس وأصوات الحيوانات ، إلا ويسمعه الله عز وجل ، وهو سبحانه يسمع تسييح الخلائق كلها ، وهو خالقها وأصواتها ، قال تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٣) ، يصل منهم إلا سمع الله عز وجل حرص الناس على الإجتهد بالتسييح والذكر فلا إلا ما يدل على شكرهم لله عز وجل على نعمة الخلافة في الأرض ، وتفضله بغناهم وكثرة الأموال التي في أيديهم نوع طريق لعبادتهم له ، وتسييحهم بذكره ، وفيه استدامة للنعم وزيادتها ، قال تعالى ﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٤) ، أما قول

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة الحج ٢٤.

(٣) سورة الجمعة ١.

(٤) سورة ابراهيم ٧.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فهو من الجحود والكفر بالنعم ، ويحتمل سماع الله عز وجل قولهم وجوهاً :

الأول : بواسطة الملائكة كما في نزول الكتب السماوية على الأنبياء بواسطة الملائكة ، ولقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١).

الثاني : سماع الله عز وجل نفسه لقولهم من غير واسطة ملك .

الثالث : سماع الله عز وجل لقولهم ، وسماع ملائكته ، وقيام الملائكة بتدوين هذا القول ، أما الله عز وجل فانه أخبر بكتابة قولهم لاحقاً وهو سبحانه أرفأ بالناس.

والمختار هو الثالث ، لبعث الطمأنينة في نفوس الملائكة والمؤمنين بأن الله عز وجل لم يخلق الناس ويتركهم سدى ولم يفوض أمورهم للملائكة والأنبياء ، إنما خلقهم وهو يتفضل بسماع ما يقولون ويكتب أقوالهم.

ولما احتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، بأن الإنسان ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣) ، يحتمل قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخَنٌ أَعْيَاءٌ﴾ وجوهاً :

الأول : إنه من الفساد في الأرض .

الثاني : إنه من الفساد الخاص بذات الشخص الذي يقول هذا القول.

الثالث : إنه ليس من الفساد.

الرابع : إنه من مقدمات سفك الدماء .

والمختار هو الأول والثاني والرابع أعلاه ، فان قلت كيف يكون هذا القول مقدمة لسفك الدماء ، الجواب إنه جحود بالربوبية وكفر بالنبوة ،

(١) سورة ق ١٨.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

والأوامر الإلهية بدفع الزكاة والحقوق الشرعية ، وفيه تحريض على النبوة والتنزيل ، وفي الغل من الغنائم قال تعالى ﴿وَمَنْ يُغْلُلْ يُاتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

فمن باب الأولوية أن الذي يبخل بالحق الشرعي ولا يكتفي بهذا البخل إنما يذهب إلى التعدي على مقام الربوبية ، وقد يكون أشد قبحاً وسوءاً من الإفتراء والكذب على الله عز وجل ، لذا نزل القرآن بالإخبار عن سماع الله هذا القول مع الذم والإنذار لقائله.

إن إخبار آية البحث عن سماع الله لقولهم برزخ دون سفك الدماء ، ومانع من التحريق على النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه ، ولم يخش الله عز وجل تأليب الذين كفروا عليهم لأن الله عز وجل فضحهم وأخبر عن سوء قولهم وفعلهم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

إن نزول آية البحث شاهد على المدد من عند الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنع تحريض المشركين عليه بالمفاهيم الخاطئة ، والمغالطة لتبعث آية البحث فضح الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَمَحْنٌ أَغْنِيَاءُ﴾ ولا يتعلق هذا التحريض منهم بخصوص القرآن أعلاه بدليل أن آية البحث لم تقل (لقد سمع الله قول الذين جحدوا إن الله فقير).

(١) سورة آل عمران ١٦١.

(٢) سورة البقرة ٢٦.

أو تقول لقد سمع الله قول الذين كفروا أو قول الفاسقين أو قول الذين نافقوا) إنما ذكرت آية البحث بخصوص القول أمرين :
الأول : مطلق أقوال الذين كفروا والجاحدين بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾^(١)، فهذا القول مطلق .

الثاني : القول الخاص (إن الله فقير ونحن أغنياء) .
 لبيان معجزة في آية البحث وهي ذكرها لقولين عام وخاص ، والعام هو (قول) في قوله تعالى (لقد سمع الله قول) .
 ومن الإعجاز فيه أنه ورد بصيغة اسم الجنس لبيان أن الله عز وجل سمع كل أقوال الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٢)، وأنه سبحانه غير راض عنهم .

وهل يمكن القول أن فيه آية وهي لو كان في أقوالهم أمر حسن ، وذكر ودعوة للصالح لما ورد التوبيخ بذكر قولهم الخاص ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٣)، الجواب نعم .

وأنت ترى مع شدة إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن القرآن لم ينزل بذكر أسمائهم لبيان أنهم أعلنوا الإسلام ظاهراً ، وأدوا صلاة الجماعة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنهم رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول وأكثرهم في معرض التوبة والإنابة .
 بينما ورد ذكر أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاسم وبلغه الذم والوعيد بقوله تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمَانُ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٤)، ونزلت سورة

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة المسد ١ .

اللهب في أيام حياة أبي لهب ، وفيه إعجاز بأنه يموت على الكفر من غير توبة .

ونزلت آية البحث في المدينة بعد فرض الزكاة والذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ، يسمعون هذه الآية القرآنية ، فلماذا لم تذكرهم الآية بالأسماء ، فيه وجوه :

الأول : كثرة عدد الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) .

الثاني : إنهم في طريق التوبة والإنابة ، وعلم الله عز وجل بأنهم سيتوبون ، فإن قلت إن قول الله عز وجل ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾^(٣) دليل على إدراك التوبة لهم ، وسعيهم لها .

والجواب لا دليل على هذا القول إنما هو إنذار ، وكتابة هذا القول لا تعني ثباته واستدامته ، فقد يكتب الله عز وجل والملائكة المعصية على العبد ولكنه يتوب ويمحو الله عز وجل عنه الذنب لذا ذكرت آية البحث قتلهم الأنبياء لبيان أن هذا الذنب مما لا يمحي إلا أن يشاء الله عز وجل .

الثالث : نزلت الآية بخصوص قول مذموم ليحترز المسلمون منه وعن أهله .

وفيه شاهد بأن القرآن يزيح الموانع التي تحول دون الإمتثال للأوامر الإلهية .

لقد ذكرت آية البحث بالصفة ، ولا ملازمة بين المعصية المخصوصة وبين ذكر أسماء الفاعلين لها أو الذين يرتكبونها ، وجاءت آية البحث

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

بذكر العذاب الأليم الذي ينتظرهم وبلغه القول أو نقول ﴿وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١).

وهل قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ﴾^(٢) يستلزم العذاب بالنار ، يوم القيامة ، جاءت آية البحث بما يدل عليه وعُطف هذا القول معصية أكبر وهي قتل الأنبياء ، وأن هذا القتل بغير حق ، في دفاع عن الأنبياء وذم للذين قتلوهم ، وبيان غضب الله عز وجل على الذين قتلوهم .

فمع مرور مئات السنين على قتل عدد من الأنبياء فان الله عز وجل يذكرهم ويتوعد من قتلهم ، لبيان قانون وهو : قتل الأنبياء شاهد على عدم غزوهم لغيرهم ليكون فيه زاجراً للمشركين من السعي الدؤوب لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيان لمعجزة حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي سلامته من القتل مع أن الأنبياء الذين قتلوا لم يأتوا بمثل ما جاء به من حرب شاملة على الكفر ومفاهيمه ، ودعوة لإقامة شعائر الله عز وجل وأداء الصلاة خمس مرات في اليوم جماعة وفردا واتيان الزكاة وأداء الصيام .

وهو من مختصات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآية إعجازية له ، ودعوة للناس للإيمان بنبوته ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة المائدة ٦٧.

ومصدق الآية أعلاه العلمي شاهد على نزول القرآن من عند الله عز وجل ، فلم يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن تم تبليغ الأحكام ، ونزول آيات وسور القرآن كلها من غير أن تصل يد الإغتيال والقتل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إن ذكر الآية أعلاه للتبليغ كوظيفة وعمل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على أنه لم يغز أحداً ولم تنتشر أحكام الإسلام بالسيف كما يدعي بعضهم ، إنما كانت الكفاية بتبليغ آيات القرآن ، وأحكام الشريعة وأن هذا التبليغ سبب لإمتلاء قلوب الذين كفروا بالغيظ ، وتجهيزهم الجيوش لمحاربة النبوة والتزليل فقال تعالى ﴿مُوتُوا بَغِظِكُمْ﴾^(١).

وتبين الآية قانوناً وهو أن الله عز وجل يسمع من فوق سبع سماوات أقوال الناس وأحاديثهم ورغائبهم وآمانهم ، وفيه دعوة للمسلمين والناس جميعاً للإحتراز في القول ، وإدراك قانون وهو أن الله يعلم مكانهم ويسمع قولهم ، وتدل على أن الله عز وجل سمع قولهم من غير واسطة ملك أو نبي.

وهل يحتمل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اشتكى عند الله من قول الجاحدين ، الجواب لا دليل عليه إذ تبين الآية أن الله عز وجل هو الذي سمع قولهم .

وهل يدل أول آية البحث على قانون (لم يغز النبي أحداً) أم أنه اجنبي عن موضوع الغزو .

الجواب هو الأول ، إذ تبين الآية كفاية الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بخصوص الذين يمتنعون عن دفع الزكاة إلا أن ترد آية أخرى تفيد الأمر بمؤاخذتهم وإكراههم على دفع الزكاة أو يرد حديث وسنة نبوية شاهداً على إنتزاع الحق الشرعي منهم ، وتقدير الآية :

لقد كفاكم الله إذ سمع قول الذين قالوا إن الله فقير، وتدل آية البحث على هذه الكفاية ، إذ أختتمت بالوعيد لهم ﴿وَقُولُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١) وتقدير الآية بحسب هذا اللحاظ على وجوه :

الأول : لقد سمع الله قول الذين ﴿قَالُوا إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) ، وهو الذي يحاسبهم .

الثاني : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ، وهو الذي يمهلهم ، ومن أسماء الله ﴿العليم﴾ .

الثالث : لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ، فأخبر عن هذا القول الله عز وجل لتسمعه ، وتأملوا بالمعروف وتنبهوا عن المنكر .

الرابع : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ، ولم يضره هذا القول ، وهو من الشواهد على غناه سبحانه ، إذ أن الضرر يدخل على المحتاج والفقير .

الخامس : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير من سبع سماوات ، وكذا يسمع أقوال ومناجاة الذين يريدون غزو المدينة فيخبر رسوله الكريم بالوحي لتفريقهم وتشتيت جمعهم كما في توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ألف من أصحابه إلى دومة الجندل .

السادس : لقد سمع الله قولهم ﴿إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) وسيكتب الله عز وجل هذا القول ، وهذه الكتابة ، ومجئ التنزيل بها أشد ضرراً وعقاباً عليهم من محاربتهم .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

لذا وردت الآية بصيغة الماضي ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ فكما أخبر الله عز وجل بأنه يقبض الصدقات إذ تصل الصدقة من يد الغني إلى يد الله قبل أن يقبضها الفقير ، فإن الله عز وجل يسمع كلام الجاحدين قبل أن يسمعه الناس ، وفيه إنذار لهم ، وشاهد بأن الله هو الغني .

ويحتمل سماع الله عز وجل للأقوال وجوهاً :

الأول : يسمع الله عز وجل أقوال الناس من غير واسطة .

الثاني : يرفع الملائكة لله عز وجل ما يقوله الناس ، وفي التنزيل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) .

الثالث : الفرد الجامع للوجهين أعلاه .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها صحيحة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) كما ورد قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٣) لبيان أن علمه تعالى بأقوال وأفعال الناس مقترن بسعة مغفرته ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) ندبهم إلى التوبة ، وهل تكفي التوبة والكف عن هذا القول ، الجواب لا ، فلا بد من التوبة عن أصل هذا القول وهو الكفر والجحود .

ومن الإعجاز في نظم هذه الآيات (١٨٠-١٨٤) أنها وردت في ذم الذين كفروا من غير أن ترد فيها مادة (كفر).

(١) سورة ق ١٨ .

(٢) سورة البقرة ١١٥ .

(٣) سورة النجم ٣٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

فلم تذكر هذه الآيات الذين كفروا ، ولكنها ذكرت قبيح القول والفعل الذي يصدر منهم لبيان أن المدار على الأفعال التي تكون على مراتب متعددة في المبرز الخارجي ، فجاءت هذه الآيات لذكر صفحة سوداء من هذه الأفعال ، مع بيان ما يترتب عليها من العقوبة الأخروية ومن أفراد هذه العقوبة :

الأولى : قوله تعالى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾^(١).

الثانية : قوله تعالى ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾^(٢).

الثالثة : قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴾^(٣).

الرابعة : قوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَلْتَمِسُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٤).

ثم جاءت آية بالتذكير بالأجل المحتوم الذي ينتظر كل إنسان ، وبه يغادر الدنيا طوعاً وقهراً سواء كان مؤمناً أو كافراً .

ثم جاءت البشارة للمؤمنين بالأجر والثواب يوم القيامة ، وكذا تشمل هذه النعمة الذين يتوبون من أولئك الذين ذكرتهم آية البحث ، لبيان خسارة من لا يتدارك نفسه بالتوبة من المعصية ، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨٢.

(٤) سورة آل عمران ١٨٣.

(٥) سورة الإسراء ٤٦.

ليكون من إعجاز هذه الآيات أنها تذكر الفعل وعاقبته ، وتذكر باليوم الآخر ، وكلها تدل على ان الله هو الحي القيوم وهو الإله في الدنيا والإله في الآخرة .

وبدأت آية البحث بالإخبار عن قانون من الإرادة التكوينية ، وهو سماع الله عز وجل لأصوات وأقوال الناس عامة ، والذين كفروا خاصة ، وهل يختص المقصود بآية البحث من الأصوات المسموعة خصوص قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَسَخٍ﴾ أغنياء ﴿الجواب لا ، إنما المقصود كل ما قاله ويقوله الذين كفروا لأن ﴿قَوْلٌ﴾ الوارد في الآية اسم جنس ، وتكون النسبة بينه وبين ﴿قَالُوا﴾ في الآية ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ عموماً وخصوصاً مطلقاً. فكلمة ﴿قَوْلٌ﴾ أعم وأكثر من كلمة ﴿قَالُوا﴾ لبيان أن الله عز وجل يؤاخذ الذين كفروا على كل ما قالوه ويقولونه ، وكأن قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ سبب لزيادة سخط الله عز وجل عليهم ، والإخبار السماوي عن العذاب الأليم الذي ينتظرهم ، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَبْغَوْا مَا اسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١). وتقدير الآية على وجوه :

الأول : لقد سمع الله كل قول جحود وكفر ومعصية قاله الذين كفروا.

الثاني : لقد سمع الله قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

الثالث : سيسمع الله عز وجل ما يقوله الذين كفروا والجاحدين.

الرابع : لقد سمع الله قول كل فرد من الذين كفروا ذكراً كان أو أنثى.

ومن الإعجاز في الآية القرآنية أنها تزجر الذين كفروا عن التعدي في القول على النبوة والتنزيل ، كما يقوم المسلمون بالإمتثال للأوامر والنواهي الواردة في القرآن بما يكون موعظة للناس جميعاً ، وفي التنزيل ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

ومن خصائص آية البحث أنها تدعو المسلمين والمسلمات الى تعاهد الزكاة والمبادرة إلى إخراجها والخمس ، وأن الله عز وجل يسمع تبادرهم في الإسراع الى دفعها وإيصالها الى المستحقين ، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الخصوص ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

علم المناسبة

ورد لفظ ﴿سَمِعَ﴾ في القرآن مرتين ، إحداهما في آية البحث والأخرى في قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٣) لبيان العموم الإستغراقي في الأصوات التي يسمعها الله عز وجل ، وأن موضوع سمعه لها لا يختص بتعلق الحساب والعقاب عليها ، إنما يشمل بيان السنن وأفراد التشريع السماوي فيما يخص العبادات والمعاملات والأحكام .

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

(٣) سورة المجادلة ١.

ولم يرد لفظ ﴿تَجَادُلْ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، ومن الإعجاز في المقام عدم ورود لفظ (يجادل) بصيغة المفرد المذكور ، نعم ورد بصيغة الجمع مرتين في الكافرين والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١) وقال تعالى ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(٢) .

إذ جاءت خولة بنت ثعلبة (تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها } وهو أوس بن الصامت)^(٣) .

عندما اشتكت خولة عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مظاهره زوجها لها لم يكن عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم حكم بخصوصه وكان الظهار في الجاهلية ينشر الحرمة بين الزوجين ، فاذا قال الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي حرمت عليه .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها ، يا خولة ما أمرنا في أمرك بشئ فانزل الله عز وجل الآية .

(١) سورة الأنعام ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال ٦ .

(٣) الدر المنثور ٤٢٨/٩ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يا خولة ابشري قالت : خيراً قال : خيراً فأنزل الله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليها { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها { الآيات (١) .

ليان قانون وهو أن الله عز وجل يسمع الشكوى والتظلم ، وينزل القرآن بالحكم الذي يكون منهاجاً وضيئاً ، وهل حكم الظهار هذا من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) الجواب نعم ، لقد سمع الله عز وجل قول الذين كفروا ويتوعدهم عليه بالنار ، قال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٣) ، وسمع قول المرأة وشكواها من زوجها .

بحث أصولي

من صيغة العموم جهات :

الأولى : أسماء الشرط مثل (مَنْ) كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٤) .

الثانية : أسماء الإستفهام مثل : كيف ، هل ، ماذا ، كم ، متى ، أنى بمعنى كيف .

الثالثة : الموصولات : مثل : الذي ، التي ، الذين ، ما ، كما في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ (٥) .

(١) الدر المنثور ٩/٤٢٩ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

(٣) سورة البقرة ٧ .

(٤) سورة البقرة ٩٧ .

(٥) سورة البقرة ١٧ .

إذ يأتي ما للجهات الثلاثة أعلاه بحسب موقعه في الجملة ، وتكون حرفاً مصدرياً.

الرابعة : الجمع المعرف بألف ولام الجنس.

الخامسة : لفظ سور الموجبة الكلية (كل) (جميع) نعم قد يرد دليل أو أمارة أو قرينة على التخصيص.

السادسة : من الفاظ العموم النكرة في سياق النفي ، وفي التنزيل ﴿قَالُوا

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾^(١)، فقد ورد لفظ (بشر) في الآية أعلاه بصيغة النكرة في سياق النفي ، فاحتج الله عليهم بآيات عديدة.

وهل لفظ (بشراً) في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا

مِّنْ طِينٍ﴾^(٢)، من النكرة ، الجواب لا ، إذ أن المراد هو آدم عليه

السلام ، وكذا بالنسبة لجدال الكافرين بخصوص أنبياء زمانهم أو الرسل

مطلقاً ، كما في قول قوم شعيب له ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ

الكَاذِبِينَ﴾^(٣) ، ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ﴾^(٤).

ومن الإعجاز في آية البحث ورود صيغة العموم بالاسم الموصول

(الذين) ليشمل كل الذين قالوا (إن الله فقير ونحن أغنياء) ليكون تقدير

خاتمة آية البحث : ونقول للذين كفروا الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء

ذوقوا عذاب الحريق .

(١) سورة الأنعام ٩١.

(٢) سورة ص ٧١.

(٣) سورة الشعراء ١٨٦.

(٤) سورة يس ١٥.

وهل تشمل الآية الذين امتنعوا عن دفع الزكاة الذين ذكرتهم الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

الجواب بين الممتنعين عن الزكاة وبين القائلين (إن الله فقير) عموم وخصوص مطلق ، فالذين قالوا هذا القول طائفة من هؤلاء الممتنعين. ولو قالت طائفة من الكفار الفقراء (إن الله فقير) عندما سمعوا قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) ، فهل تشملهم آية البحث وما فيها من التوبيخ والإنذار أم يكون الجمود والحصر بالنص وقيد (ونحن أغنياء) والفقراء لم يكونوا أغنياء فلا يشملهم التعريض والذم الوارد في آية البحث ، المختار هو الأول ، وأن آية البحث تشمل عموم الذين كفروا ممن قال (إن الله فقير) وما في معنى هذا القول ودلالته من الخبث والمكر .

والمراد من قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أعم من أن يختص بهؤلاء الأغنياء من الكفار ، وبخصوص الزكاة ، وفي التنزيل ﴿انْظُرْ كَيْفُ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(٣).

ليكون تقدير الآية على وجهين :

الأول : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير) وهؤلاء من أغنياء وفقراء الكفار.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة الحديد ١١.

(٣) سورة الأنعام ٦٥.

الثاني : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء .
فجاءت آية البحث بالمعنى الأعم .

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾

من إعجاز القرآن مجئ الهم والإنذار فيه على وجوه :

الأول : ذم الفعل القبيح وحده دون التعرض للقائلين به .

الثاني : توبيخ الذين يقومون بالفعل السيئ .

الثالث : توبيخ الذين يقومون بالفعل السيئ وذم ذات الفعل .

الرابع : ذكر اسم أو صفة الذات المذمومة .

وجاءت آية البحث من الوجه الثالث أعلاه إذ ذكرت القول السيئ وكذا القائلين به وبصيغة جلية فلم تقل آية البحث عند قول (قد سمع الله قول إن الله قير) مع التنكير في جهة صدور هذا القول ، وعدم الإشارة إليه إنما ذكرتهم الآية بلفظ (الذين) للدلالة على وجود قوم قالوا هذا القول وقد سمعهم بعض الناس سواء من المسلمين أو من أهل الكتاب أو غيرهم من الناس ، وفيه منع من تكذيب التنزيل أو التشكيك به ، أو القول بعدم وجود قائل لهذا القول .

وتؤكد الآية أن القائلين بهذا القول جماعة وليس فرداً واحداً ، ولو قالت الآية (لقد سمع الله قول الذي قال : لجاء بعضهم وقال هل تنزل آية على قول شخص واحد، خاصة وأنه لا عبرة بالقليل النادر ، فوردت الآية بصيغة الجمع لتعدد القائلين بهذا القول وأن قولهم شر ويضر بهم وبغيرهم من الناس .

وتدل الآية بالدلالة التضمنية على اقرارهم بالربوبية لله عز وجل ، ولكن الله عز وجل أمرهم بالزكاة والصدقة وإعانة الفقراء ، وأعطى الله الناس جميعاً عهداً بأن التصديق على الفقراء قرض له سبحانه وأنه

يضعاف قضاءه بقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١).

لقد وعد الله عز وجل الناس بمضاعفة الصدقة والقرض أضعافاً مضاعفة في أشد حاجات الناس إلى رحمة الله في عالم الآخرة ، إذ أنها دار حساب بلا عمل ، ولكن العهد الإلهي للمتصدقين يغني عن العمل ، ويجعل الذين عملوا الصالحات يدركون أن الثواب الزائد والأضعاف المضاعفة على فعل الصالحات أكثر وأعظم مما لو اجتهدوا في الصالحات أضعاف ما فعلوا منها في الدنيا ، بمعنى أن مضاعفة الله عز وجل للصالحات في الآخرة لا ينحصر بمضاعفة الكم والمقدار من عمل الصالحات ، إنما هو أعم وأوسع كماً وكيفاً ونفعاً ، وهل من المضاعفة المذكورة أعلاه محو السيئات أم ذات المضاعفة للحسنات تأتي على محو السيئات ، الظاهر هو الثاني .

ليكون من معاني آية البحث أمور :

الأول : حث الأغنياء على دفع الزكاة .

الثاني : ترغيب الناس بالإنفاق في سبيل الله .

الثالث : التسليم بأن الله عز وجل هو الغني ، وهو الذي يشيب دافع

الزكاة في الآخرة بأن ييسر له العبور على الصراط ، قال تعالى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿٢﴾ .

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٢) سورة البلد ١١-١٢ .

لا يصح رد الفقير الزكاة هدية لصاحب المال

من خصال المسلمين المناجاة بدفع الزكاة والتحريض عليها ومنع حبسها ، ومن أسمى مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أداء الفرائض والحث عليها ، والتعاون في أدائها ولو اتفق الغني مع أحد الفقراء بأن يقبض الفقير منه الزكاة الخاصة بماله ثم يعيدها له الفقير على نحو الهدية أو يرضى بجزء قليل منها لشدة حاجته فهل يجزي هذا الفعل وتبرأ ذمة الغني ، الجواب لا ، لوجوه :

الأول : الزكاة في مال الغني حق لله عز وجل ، وقد بين الله عز وجل هذا القانون لتجراً للجاحدين قالوا **إِنْ أَلَّ اللَّهُ فُقِيرٌ** ^(١).

الثاني : الزكاة في مال العبد الغني حق للفقراء جميعاً ، الأقرب فالأقرب من جهة الرحم والفاقة .

الثالث : مع تعدد وكثرة الفقراء يجب توزيع زكاة الفرد عليهم بالتساوي أو بلحاظ درجة وشدة الحاجة ، فلا يصح دفع الزكاة إلى فرد واحد ، وقد تسبب الظغائن .

الرابع : من مصاديق الزكاة أنها نعمة تظهر على الفقير في مؤونته وطعامه وكسوته ، ولوردها الفقير إلى الغني لم تتحقق الغبطة عند الفقير وعائلته .

الخامس : لقد أمر الله عز وجل أرباب الأموال بدفع الزكاة ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾ ^(٢) وعن ابن عباس أن النبي بعث معاذاً إلى اليمن فقال : إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة البقرة ٤٣.

أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب^(١).

السادس : في اخراج مال الزكاة والخمس أجر عظيم يحرم منه الذي يسترده من الفقير على نحو الهدية والهبة ونحوها .

السابع : إخراج مال الزكاة سبيل للنماء والبركة وكثرة المال .

الثامن : من مصاديق قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُرْضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَاعِفَهُ لَهْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢) ، تسليم الصدقات إلى الفقراء وفيه أجر وثواب أعظم من استرداد مال الزكاة.

التاسع : الزكاة إحسان محض فاذا دفع العبد الزكاة فقد أحسن من جهات :

الأولى : إكرام الذات .

الثانية : الرأفة بالعيال والذرية ، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٣) .

الثالثة : الرأفة بالفقراء والمساكين .

الرابعة : الإحسان للحكام والأمراء وإعانتهم في ضبط الأمن لما في دفع الزكاة من إشاعة للصلاح ، ولما احتجت الملائكة على جعل الإنسان

(١) الدر المنثور ٢/٩٣.

(٢) سورة البقرة ٢٤٥.

(٣) سورة النساء ٩.

﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، ولم يهبط آدم إلى الأرض بعد ، أجابهم الله عز وجل بالحجة والبرهان ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

ومن علم الله عز وجل في المقام انتهاج المؤمنين سبل الصراط المستقيم ، والقيام بدفع الزكاة مقروناً بأداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى بما يجعل ضابطة في السلوك وتهذيب الأخلاق .

العاشر : لا يصح إعادة الفقير مال الزكاة أو الغني على نحو الهبة أو الهدية ونحوها لأن التسليم إلى فقير مخصوص كالواجب الكفائي بخصوص الجهة التي تستلم الزكاة فإذا استلمها شخص أو أكثر من الفقراء وفق القواعد صح ، وكأن الفقراء جميعاً استلموا الزكاة ، أما إذا لم يستلمه بعض الفقراء فلا تبرأ الذمة إلا أن يكون اتفاقها في أصناف المستحقين الأخرى التي ذكرتها آية الصدقات ، إذ لا يجب البسط على الأصناف كلها.

ومن الإعجاز في آية الصدقات ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣) ورود الآية باسم الصدقات لإرادة الواجب والمستحب منها ، مع تقديم الفقراء في الآية .

وقد اختلف في واو العطف هل تفيد الترتيب أم لا ، والمختار أنها قد تفيد الترتيب أو لا تفيده بحسب القرائن ، للمندوحة والسعة لأرباب الأموال في كيفية وجهة الصرف .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة التوبة ٦٠.

وهل يختص قول الذين جحدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بخصوص ما يدفع إلى الفقراء أم يشمل أصناف وموارد الزكاة الأخرى ، الجواب هو الثاني .

قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

وردت الآية بصيغة المبتدأ والخبر ، وكان الجاحدين بفضل الله يؤسسون لمدرسة ويعلنون عن حال وهو غناهم ، ولكنه إعلان زائف لا أصل له ، فليس من عبد غني إنما هم مجتمعين ومتفرقين فقراء ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١) ، لبيان التضاد بين الخالق والمخلوق ، فالله هو الغني ، وما سواه فقير يحتاج إلى رحمته .

ويحتمل مرادهم من قول (ونحن أغنياء) وجوهاً :

الأول : كل فرد منهم غني .

الثاني : إرادة غنى الجماعة والشركاء منهم .

الثالث : المراد المجموع كطائفة أو أمة بأنهم أغنياء .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، لتمادي الذين كفروا بالعتو ، لقد تباهى الذين أبوا التصديق واخراج الزكاة بأموالهم ، وصيورتهم أغنياء وهم يعلمون أن غناهم من عند الله عز وجل ، وهو القادر على سلبه منهم .

والجهالة غشاوة على البصيرة ، ومانع من التدبر في حقائق الأشياء ، وحينما أمرهم الله عز وجل بالصدقة فإنه سبحانه أراد لهم استدامة حال الغنى التي يتصفون بها ومنه اشتق اسم (الزكاة) لما فيه من معاني النماء والزيادة ، فالملؤم ينظر إلى ما يأتي من الفضل بسبب دفع الزكاة ، أما الجاحد فهو ينظر إلى خروج مال الزكاة من يده ، وإصابة خزينته أو خزائنه بالنقص ساعة دفع الزكاة والترغيب بها ، واحتمال مجئ رزق كريم وزيادة

من المال في ذات الوقت الذي يدفع فيه الإنسان زكاته من منافع إخراج الزكاة والخمس محو وصرف الأذى والضرر عن صاحبه من جهات :

الأولى : منع الخسارة في المال والمكاسب ، ولا يقدر على هذا المنع إلا الله عز وجل ، ومن اللطف الإلهي بالناس الترغيب بالعبادات ، وتجلي بعض الشواهد لهذا المنع بما يكون ظاهراً للعيان ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

الجواب نعم لتعلق هذا المنع بالأموال وعناية وحرص أصحابها عليها ، وخشيتهم من ضياعها وحزنهم على فقدانها ، فجاء الأمر بالزكاة لدفع الحزن عن الناس ، لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إبتلاء وإختبار وامتحان ، ومنه حال الغنى والفقر ، والله سبحانه أعلم بمن يصلحه الغنى ومن يفسده .

وتبين آية البحث أن طائفة من الناس رزقهم الله عز وجل من فضله ، وآتاهم من النعم ، فجحدوا بها ، وامتنعوا عن دفع الزكاة الذي هو الحصانة لها .

ونزلت آية البحث لدم واستئصال قول قبيح من ثلاث جهات :

الأولى : القول إن الله عز وجل فقير .

الثانية : إدعاء قوم أنهم أغنياء وليس من غني إلا الله عز وجل وحده .

الثالثة : المغالطة بالمقارنة الخاطئة ، فالأصل أن يقال جميع الناس : الله

الغني ونحن الفقراء ، وهذا القول واجب على كل إنسان ، وهو باب للرزق والسعة ، ولو زاد الله عز وجل على الناس من فضله أضعافاً مضاعفة مما في أيديهم فهل تبقى صفة الفقر ملازمة لهم أم لا .

الجواب هو الأول وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١)، فمن خصائص عالم الإمكان الفقر والحاجة ، وهو وفق القياس الإقتراني :

الكبرى : كل ممكن فقير .

الصغرى : الإنسان ممكن .

النتيجة : الإنسان فقير .

فإن قلت يطلق الغني على الإنسان ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا﴾^(٢)، وتقول هذا الشخص غني وهذا فقير ، كما ورد في السنة النبوية ما يفيد هذا المعنى منه (عن قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور . فقال : رأيت لو عمد إلى متاع الدنيا ، فركب بعضها إلى بعض ، أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟

تقول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة . فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء)^(٣) .

ورود في السنة النبوية لفظ الأغنياء بصيغة الجمع كما في قوله ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَنْفِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٤) .

(١) سورة فاطر ١٥ .

(٢) سورة النساء ٦ .

(٣) الدر المنثور ٤٧/٦ .

(٤) سورة الحشر ٧ .

فكيف يكون ذم الذين قالوا ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١)، الوارد في آية البحث ، الجواب لأنهم نسبوا الغنى لأنفسهم في ذات الوقت الذي افتروا على مقام الربوبية قالوا إن الله عز وجل فقير ، إذ أمرهم الله سبحانه بدفع الصدقة وإخراج حق الفقراء من أموالهم ، فنعت الإنسان بأنه غني مقيد بخصوص الحال المالية في الدنيا وبلحاظ التفاوت بين الناس في كثرة أو قلة الرزق والمال ، بآية معجزة من عند الله عز وجل قال تعالى ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾^(٢) .

ولو لم يقولوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) ، واكتفوا بالقول ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) ، من غير أن يخرجوا الحقوق الشرعية ، فهو ضلالة أيضاً ، وهل فيه إثم .

الجواب فيه تفصيل فإذا كانوا يذكرون غناهم كنعمة وفضل من عند الله عز وجل فلا ضير فيه ، كما لو قالوا : نحن أغنياء بفضل الله عز وجل ، أو لولا الفضل من الله عز وجل .

أو لقد رزقنا الله عز وجل ما جعلنا أغنياء أو نحن أغنياء بفضل الله فيجب علينا دفع الزكاة ، أما إذا كان قولهم شعبة من الكفر والجحود فهو ضلالة ، وفيه إثم عظيم ، كما في قول قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٥) .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة الرعد ٢٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

(٥) سورة القصص ٧٨ .

لذا فمن معاني آية البحث لزوم التطامن والخشوع لله عز وجل ،
وبيان فضله عند ذكر الحال الحسنة عند الإنسان ، مع بيان أنها بفضل الله
عز وجل ونعمة من عنده ، فلا بد من قرينة أو أمانة ظاهرة بالمنطوق أو
المفهوم تستقرأ من الكلام بالتسليم بنعمة الله عز وجل ، وسيأتي قانون
(الغنى إبتلاء) .

وهو لا يتعارض مع كون الغنى رحمة بالإنسان وغيره فمن يرزقه الله
عز وجل الغنى فهو في نعمة وسعة من عند الله عز وجل فيجب الشكر لله
عز وجل على النعمة ، ومنه التسليم بأن الله عز وجل هو الغني الذي بيده
خزائن السموات والأرض ، ينفق منها في الليل والنهار ، ولا ينقص منها
شيء .

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ، تفضل
الله سبحانه بحياة كريمة للناس في الأرض ، وهل يشترط فيه إقرارهم
بالعبودية لله عز وجل .

الجواب نعم ، فتقيم أمة من الناس على أداء الفرائض والعبادات
فتستديم الحياة على الأرض ، لذا فمن منافع قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
وَتَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، عصمة المسلمين من مفاهيم الضلالة ، وجعلهم في حال
حال إحتراز من الزهو والغي (عن شداد بن أوس : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أخاف على أمتي الشرك والشهوة الخفية
. قلت : أتشرك أمتك من بعدك؟ قال : نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً
ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم . قلت : يا

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

رسول الله ، فالشهوة الخفية؟ قال : يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته^(١).

ومن وجوه تقدير آية البحث : قالوا إن الله فقير فنزلت هذه الآية وما فيها من الإخبار ، والإخبار بصيغة الذم عن قولهم هذا لغايات حميدة منها بيان قانون :

الأول : قانون التوثيق السماوي لأقوال الناس.

الثاني : قانون حضور هذه الأقوال يوم القيامة ، ومن معاني هذا الحضور قوله تعالى (سنكتب).

الثالث : قانون عصمة المسلمين من الإفتاء.

لقد ذكرت الآية السابقة شح وبخل الجاحدين بامتناعهم عن إخراج الزكاة من أموالهم مع أن ما في أيديهم من فضل الله عز وجل وقال سبحانه ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾^(٢)، ترى هل تدل آية البحث على أن هذا البخل شر لهم الجواب نعم من جهات :

الأولى : النظر للأمر من جهة المال وإدخاره ، وليس من جهة التكليف والواجبات.

الثانية : تعاهد البخل بالظلم والتعدي والتجراً وقول غير الحق .

الثالثة : من الشر نسبة الفقر إلى الله عز وجل وإعلان الجاحدين بأنهم أغنياء .

(١) الدر المنثور ٦/٤٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

الرابعة : إصابة الجاحدين بالغفلة ، ولم يلتفتوا إلى أنهم محتاجون في كل ساعة من أيام عمرهم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿سَنَكُوبُ مَا قَالُوا﴾^(١) ، الوعيد والتهديد لهم بحجب أسباب من الرحمة عنهم .

ومن خصائص الحياة الدنيا تجدد حاجة الإنسان فيها ، وهذه الحاجة على أقسام ، ومنها ما هو ظاهر وشديد ، وأني وحال ، فيتليهم الله عز وجل بما يجعلهم يدركون الحاجة إلى الله عز وجل ، ويكتشفون أنهم فقراء ضعفاء عاجزين عن الدفع عن أنفسهم ، وأن اللجوء إلى الله عز وجل حاجة لهم ، والله عز وجل غني عن الناس فهو لم يبتلهم للإنتقام منهم ، إنما ابتلاهم ليهتدوا إلى طريق التوبة ، ولوقاية الناس من شرورهم ، ولو تركوا يفترقون ويتمادون في الغي لازداد عددهم ، فليس كل الأغنياء الكفار قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، إنما هم طائفة وعدد منهم ، وربما التحق بهم بعض الفقراء منهم ،

وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) ، فمنع الله عز وجل هذا القول وشبهه ، وما تركز عليه من المفاهيم الخاطئة بأن ذكر في القرآن قول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) ، ويحتمل حالهم عند قولهم هذا وجوهاً :

الأول : الإجهار المتكرر بهذا القول .

الثاني : مناجاة أهل العناد في متدياتهم بهذا القول .

الثالث : إحتجاج المعاندين بهذا القول عندما يطلب منهم دفع الزكاة .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية الكريمة ،
ليكون من معاني قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌّ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) ، استئصال
العناد والطغيان ، وورد ذات اللفظ في قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(٢).

وأخبرت آية البحث عن قول الجاحدين وأهل الضلالة بأن الله عز
وجل فقير وأنهم أغنياء فاحتاج إلى أموالهم كي يعطوا الفقراء ، فيقوم
الفقراء بذكره سبحانه والثناء عليه ، كأنهم قالوا نحن الذين ندفع الزكاة
ويتوجه الشكر لله عز وجل ، وتعمر الأرض بالعبادة والذكر .

ليبان مسألة وهي أن قولهم ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ليس مجردا من الغاية
والقصد بل له غايات خبيثة ، فنزلت آية البحث للتصدي لهم ، وقطع
الطريق عليهم ، ترى ماذا أراد هؤلاء من قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌّ
أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) ، الجواب من وجوه :

الأول : بيان المائز الذي يتصف به الأغنياء .

الثاني : حبس الحقوق الشرعية ، والظن بأن هذا الحبس سبب لبقائهم
في منازل الغنى والثروة .

الثالث : دعوة الناس للجوء إليهم ، والإقرار بسيادتهم بسبب ما
عندهم من الأموال .

الرابع : نيل مرتبة الغنى وجمع الأموال بجهدهم وكسبهم ، والوراثة
عن آبائهم .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة المجادلة ١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

الخامس : حجب الناس عن ذكر الله عز وجل وعن عبادته .
السادس : إمتناع الجاحدين عن التدبر في الخلائق وبدائع صنع الله سبحانه .

لقد خلق الله عز وجل الناس ليعبدوه ويعمروا الأرض بذكره ، ومن أظهر مصاديق العبادة الصلاة والصوم ، ولكن طائفة من الناس لما نزل التكليف بالزكاة بخلوا بأموالهم ، وحبسوا الزكاة وقبل أن يأتيهم اللوم بأنهم عصوا أمر الله ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(١) ، أي كيف يريد منا الله عز وجل الأموال إذن هو محتاج ، وتناسوا مسألة وهي أن الحق الشرعي الذي يدفعونه إنما يأخذه الفقراء ، زاداً وطعاماً وايناساً لهم وسكينة لنفوسهم فذمهم الله على هذا التناسي لأن الفقراء ليسوا بحاجة إليهم إنما الزكاة نفع وخير محض لذات الأغنياء ، ورحمة لهم في النشاطين ، ومن مصاديق هذه الرحمة إخبار الله للناس بانه هو الذي يقبض الصدقات بيده وليس لله عز وجل يد ، وفيه مسائل :

الأولى : الدلالة على القدرة المطلقة لله عز وجل .

الثانية : قرب الله سبحانه من كل إنسان .

الثالثة : الترغيب بدفع الزكاة والخمس والحقوق الشرعية .

الرابعة : البشارة والوعد الكريم بالبدل والعوض على ما ينفق في

سبيل الله ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة سبأ ٣٩ .

الخامسة : التحذير والإنذار من الإمتناع عن دفع الزكاة ، والحقوق الشرعية والإنفاق اللازم في سبيل الله ، ولكن الذين كفروا لم يتعظوا من هذا الإنذار.

لقد جعل الله عز وجل الحجر الأسود يمينه في الأرض فمن لمسه وقبله كأنه قبل يمين الله سبحانه ، إذ ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قبيس له لسان وشفتان ، يتكلم عمن استلمه بالنية ، وهو يمين الله التي يصفح بها خلقه^(١).

أما في الزكاة فقد نزل القرآن بأن الله عز وجل هو الذي يقبضها لبيان حبه سبحانه للذي يجمع الزكاة والذي يقبضها ولكن الذين جحدوا بالزكاة حرموا أنفسهم من هذه النعمة ، وصاروا يسخرون ويتعدون باللفظ وقالوا أنهم أغنياء وما هم باغنياء إنما هم الفقراء حقاً. إذ المدار في الغنى والفقير على عالم الآخرة ، فالغني الذي يفوز بالأجر والثواب واللبث الدائم في الجنة.

أما الفقير البائس في الآخرة فهو الذي يكفر بما أنزل الله عز وجل ، ومنهم الذين يحددون بالأحكام الشرعية ويمتنعون عن الإمتثال لها. ومن بديع صنع الله أن السعادة والفقير في الآخرة ينسحب رجعيّاً على الحياة الدنيا وهو ليس من الإستصحاب القهقري ، ولكنه باعث للناس جميعاً على عمل الصالحات ، وأداء العبادات فليس الذين يمتنعون عن دفع الزكاة هم الأغنياء وإن ادّعوا هذه الصفة ، إنما الأغنياء الذين يؤمنون بالله والملائكة والنبين واليوم الآخر ، ويطيعون الصلاة ويؤتون الزكاة ، فهم أغنياء من جهات :

الأولى : الإيمان.

الثانية : الرضا بما قسم الله.

الثالثة : تلقي البشارة من عند الله عز وجل بالسعادة الأبدية في الآخرة.

الرابعة : امتلاء النفس بالسكينة والطمأنينة لحسن العاقبة ، وذات الطمأنينة غنى للنفس ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

ومن المعاني التي تتجلى وتترشح عن آية البحث إخبار الذين جحدوا بانهم الفقراء ، ليكون تقدير الآية على وجوه :
الأول : إن الله غني وأنتم الفقراء.

الثاني : إن المؤمنين أغنياء بما رزقهم الله من أسباب الهدى والصلاح.
الثالث : يغني الله الفقراء ، وأنتم بقيتم على حال الفقر ، وهناك ملازمة بين الإيمان والغنى ، وبين الكفر والفقر ، وفي التنزيل ﴿الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(٢) ، وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والطمع فإنه هو الفقر ، وإياكم وما يعتذر منه.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الزهد عن سعد بن أبي وقاص قال « أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، أوصني وأوجز . فقال : عليك بالأياس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وإياك وما يعتذر منه.

وأخرج البيهقي في الزهد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القناعة كنز لا يفنى^(٣).

(١) سورة الرعد ٢٨.

(٢) سورة البقرة ٢٦٨.

(٣) الدر المنثور ٢/٢٣٢.

لقد استقبل جماعة من الأغنياء الأمر النازل في القرآن باخراج الزكاة بالقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وكأنهم يقولون لماذا لا يرزق الله الفقراء ويجعلهم أغنياء مثلنا ، ولم يعلموا أن كلاً من الغنى والفقر ابتلاء وامتحان من جهات:

الأولى : ابتلاء الأغنياء بالغنى وكثرة المال ، ووجوب إخراج الحقوق الشرعية منه .

الثانية : ابتلاء وامتحان الفقراء بالفقر والفاقة .

الثالثة : إختبار الأغنياء بلزوم حسن التصرف في أموالهم والشكر لله على نعمة الغنى ، ويتجلى هذا الشكر بالإتفاق في سبيل الله ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١).

الرابعة : امتحان الفقراء بالصبر والتحمل واللجوء إلى الدعاء لسؤال الزيادة في الرزق ، وعدم الإفتتان بأموال الأغنياء.

ومن إعجاز القرآن في نزول آياته ، أن كل آية منه تدرء الفتنة وتمنع من نشوبها وحدوثها ، فحينما نزلت آية البحث لم يستنفر الفقراء أنفسهم ، ولم يجتمعوا لينقضوا على أصحاب الأموال ، أو يأخذوا حقهم الذي كتب الله لهم من أموالهم مقاصة ، خاصة وأن الزكاة في المال الخاص لم تعين لفرد مخصوص إنما عين القرآن أصناف المستحقين بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة لقمان ١٢.

(٢) سورة التوبة ٦٠.

لقد زادت الآية من صبر الفقراء وجعلتهم يستأنسون بهذا الصبر ، ويرضون به خاصة وأن آية البحث دفاع عنهم وتويخ للذي يحجب عنهم حقهم ، ونزل القرآن برضا الله عز وجل عن المؤمنين أغنياء وفقراء في صلح الحديبية كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١) .

وصحيح أن أسباب نزول الآية الكريمة تتعلق بمقدمات ووقائع صلح الحديبية إلا أن مسألة رضا الله عز وجل عن المؤمنين أعم ، إذ أنه يحمل صفة الإطلاق في الرضا ، وليس خصوص البيعة ومنه رضا الله عن أغنيائهم في دفعهم الحقوق الشرعية وأنفاقهم في سبيل الله ، ورضاه عن الفقراء بتحليلهم بالصبر وتقيدهم بسنن التقوى .

ويلتقي الأغنياء والفقراء في الجامع الإيماني المشترك بينهم وهو التقوى ، وعن أبي ذر قال (عن قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور . فقال : رأيت لو عمد إلى متاع الدنيا ، فركب بعضها إلى بعض ، أكان يبلغ السماء؟ . . . أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟ .

تقول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة . فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء) (٢) .
إن انقطاع الأغنياء المؤمنين إلى الذكر والتسبيح مع دفع الزكاة والخمس حجة على الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وشاهد على أن هذا القول لا يضر إلا أهله ، فحينما نزلت فريضة الصلاة والزكاة فان أمة

(١) سورة الفتح ١٨ .

(٢) الدر المنثور ٤٧/٦ .

صالحة امتثلت لأمر الله ، وتلقت الأحكام الشرعية بالرضا والعمل بمضامينها ، وفيه دعوة للذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، للتوبة والإنابة.

ترى لماذا لم يتل الله الأغنياء الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وقالوا إن الله فقير بالفقر ، ويرميهم بالفاقة والحاجة والمسكنة ، الجواب لأن الله عز وجل هو الغني الحليم الذي لا يعجل للناس العقوبة ولا يخشى الفوت ، فحتى كتابة وتدوين قولهم لم يتعجل به الله ، إنما أرجأه ، وأمهلهم وأخبر عن قولهم في هذه الآية لتكون فرصة ومناسبة لتداركهم ، قال تعالى ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

ويحتمل قولهم ﴿ وَخَسُفٌ أَغْنِيَاءُ ﴾ وجوهاً :

الأول : كل فرد منهم قال (أنا غني).

الثاني : قالوا مجتمعين ﴿ وَخَسُفٌ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

الثالث : الفرد الجامع للوجهين أعلاه .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية الكريمة ، وجاءت صيغة الجمع ﴿ وَخَسُفٌ أَغْنِيَاءُ ﴾ لبيان إتفاقهم وتوازرهم في الباطل والتعدي ، وتحدي التنزيل ، وفيه أمانة على تقريب البلاء منهم ، قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ (٢).

لتكون آية البحث إنذاراً لهم للتدارك وصرف البلاء بالتوبة والإنابة .

(١) سورة الزمر ٥٣.

(٢) سورة الروم ٤٢.

بحث كلامي

لقد بينت آية البحث إقرار الجاحدين بالأمر بالزكاة والصدقات بوجود الله عز وجل وأنه رب العالمين ولكنهم نسبوا إليه الفقر ، لقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(١) وفيه شاهد بتسليمهم بنزول القرآن من عند الله إلا أن يكون قصدهم الإحتجاج كيف يطلب الله القرض من الناس وهو ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، وإرادتهم التشكيك بنزول الآية من عند الله ، ولكن ذات الآية تتضمن إقرارهم ظاهرا بنزول القرآن من عند الله لوقوع جدالهم بخصوص موضوع ودلالة الآية الكريمة ، ومن إعجاز القرآن لزوم استقراء معنى الآية بلحاظ صلتها مع الآيات القرآنية الأخرى .

وتقدير الآية : كيف يقولون إن الله فقير ويقولون نحن أغنياء والله عز وجل هو الغني الكريم .

وما تشريع الزكاة إلا لحاجة الغني والفقير ، وفيها مصلحة لكل واحد منهما ، وصرف للبلاء عنهما وعن الناس والله عز وجل غني عن كل شئ ، وما من شئ إلا وهو محتاج إليه سبحانه مما يستلزم الشكر لله سبحانه لذا ورد قوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغِنَى الْحَمِيدُ﴾^(٣)، أي هو المحمود بنعمته والذي يستحق الحمد ، ولأن نعمه تعالى على كل عبد غير متناهية ، وهو سبحانه غني عن حمد الحامدين وما تسمية الله الناس بالفقراء بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٤)، إلا تشريفاً لهم في مقامات العبودية ،

(١) سورة الحديد ١١.

(٢) سورة الفرقان ٢.

(٣) سورة الحج ٦٤.

(٤) سورة فاطر ١٥.

وليس في هذا الوصف تحقير ، وهو زاجر عن التعدي والظلم والغرور ، وفيه دعوة للهداية والرشاد ، وأخرج عبد بن حميد عن الفضيل : أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت قول الله {من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} ^(١) .

فكيف الشرح ، قال : إذا أراد الله بعبد خيراً قذف في قلبه النور فانفسح لذلك صدره ، فقال : يا رسول الله هل لذلك من آية يعرف بها؟ قال : نعم .

قال : فما آية ذلك .

قال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، وحسن الإستعداد للموت قبل نزول الموت ^(٢) .

ومن خصائص الحياة الدنيا أنها دار الموعظة ، فيتعظ الإنسان من نفسه وسيرته وقوله وفعله ، ومن سيرة الآخرين وما يلاقونه لتسمو نفسه وترقى إلى المناجاة والدعاء .

لذا فان قول الكافرين (ونحن أغنياء) استكبار وغرور ، ومن فضل الله أن إظهار العبد الفقر له سبحانه غنى ، إذ أن الفقر لله استغناء بالله عز وجل ، وقد يفتقر الإنسان لغيره أو حاجة ما ، ولكن هذا الغير لا يغنيه بل تبقى الحاجة مصاحبة له ، أما الإفتقار إلى الله فهو غنى واستغناء .

قال تعالى ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ^(٣) ، وهل قول الجاحدين (إن الله فقير ونحن أغنياء) من الكفر أو التولي المذكورين في الآية أعلاه ، الجواب إنه منهما معاً .

(١) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٢) الدر المنثور ٤/١٣٠ .

(٣) سورة التغابن ٦ .

ترى لماذا قدموا القول بأن الله فقير على القول نحن أغنياء ، الجواب لإرادة الإدعاء بأن كسبهم وجمعهم الأموال بسعيهم وجهدهم ، وأن الله عز وجل إحتاج إليهم ولكن واجب الوجود غني غير محتاج ، والله سبحانه المحمود بكل لسان ، وليس من أهل ملة إلا ويكون لهم الحمد لله منهاجاً.

ولم تقف آية البحث عند الإخبار عن سماع الله لقول الجاحدين بالنعمة الذين امتنعوا عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية بل تعقبه الإنذار في الدنيا والوعيد في الآخرة ، أما الإنذار في الدنيا فيتعلق بكتابة وتدوين الله عز وجل وملائكته لما قاله الجاحدون أي أن هذه الكتابة ستكون مصاحبة لهم ، وقد تكون برزخاً يمنع مجئ فضل الله عز وجل لهم ، ولا يتعارض هذا المنع مع ما كتب الله سبحانه لهم ، فهذه الكتابة تصاحبهم في الدنيا ، وصحيح أنها مقدمة لحسابهم يوم القيامة إلا أنه لا يمنع من ترتب الأثر عليها في الحياة الدنيا ليكون من معاني سنكتب : وجوب المبادرة إلى التوبة والإنابة ، ترى كيف تكون التوبة فيه وجوه :

الأول : الإمتناع عن قول إن الله فقير .

الثاني : إجتنب القول نحن أغنياء .

الثالث : لا ضير في قول الإنسان أنني غني ، مع الإقرار بأن الغنى نعمة

من عند الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(١).

الرابع : إخراج الحق الشرعي الذي جعله الله عز وجل في أموالهم

للفقراء .

الخامس : قول استغفر الله ، قال تعالى ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ

يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾^(٢) ،

لقد جعل الله عز وجل الإقلاع عن المعصية ، والندم على ارتكابها ، والعزم على عدم العودة إليها توبة وهل تمحى حينئذ كتابة قولهم (ان الله فقير ونحن أغنياء) المختار نعم ، ويبقى لا يعلمها إلا الله ومن يشاء سبحانه. وهل يمكن القول بقانون الملازمة بين ما يقوله العباد وكتابة هذه الأقوال من عند الله .

الجواب نعم ، وهو من مصاديق الربوبية المطلقة لله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴿٢﴾.

لقد جاءت الآية بالحجة على الذين جحدوا وظلموا فقرنت بين التعدي بقول (ان الله فقير) وبالتعدي بالفعل وعمل الجوارح بقتل الأنبياء بغير حق ، وفيه زجر للكافرين عن محاولات اغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسعي لقتله في ميادين القتال ، ولا يعلم ما أتفق المشركون في سبيل قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا الله عز وجل.

قانون دلالة القرآن على أن الله هو الغني

لقد جعل الله تبياناً لكل شئ ، وبين الله عز وجل صفاته الحسنی في القرآن .

الأولى : نزول كلام الله عز وجل من السماء إلى الأرض .

الثانية : نزول آيات القرآن بواسطة الملك جبرئيل ، إذ تولى مسؤولية

تبليغ كلام الله إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ ^(١).

(١) سورة الفرقان ٧١.

(٢) سورة يونس ٣-٤.

الثالثة : تلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن من عند الله وتبليغ آياته للناس من غير خشية أو خوف من الآخرين ، وهو من الشواهد على غنى الله لأنه سبحانه هو الذي حفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعله قادراً على التبليغ ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

الرابعة : حفظ آيات القرآن من التحريف أو التبديل والتغيير .
الخامسة : إرادة النفع في نزول الكتب السماوية ، ولكنه تعالى أراد إعانة العباد على طاعته ، وهدايتهم إلى الطيب من القول والفعل والتميز بين المؤمن والكافر ، قال تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ (٣) وتدل آية البحث على أن الله عز وجل هو الغني من جهات :

الأولى : سماع الله لأقوال الناس في متدياتهم ومجالسهم وبيوتهم .
الثانية : نزول الفرائض من عند الله عز وجل وهو يعلم أن شطراً من الناس يمتنعون عنها ، ومن يمتنع ينزل القرآن بذهمه ، وهذا الذم مقدمة لعذابه في الآخرة ، لذا أختتمت آية البحث بقانون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٤).
الثالثة : من غنى وحلم الله عز وجل عدم مؤاخذه الذين كفروا وتعجيل العقوبة لهم ، إنما أمهلهم حتى في تدوين هذه المعصية ، ونزلت آية

(١) سورة الشعراء ١٩٣.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

(٣) سورة الحج ٢٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

البحث بعد قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ومع هذا ورد قوله تعالى ﴿سَنَكْبُ مَا مَا قَالُوا﴾^(٢).

فالله هو الغني الذي لا يعجل بالعقوبة ، ولا يخاف الفوت ، فقد يستطيع الجاني والذي يطلبه السلطان الهروب منه والانتقال إلى بلاد أخرى لا تصل إليه يد السلطان ويتوارى عن الأنظار ، ولكن الإنسان لا يقدر على الإختباء أو الإختفاء من الله عز وجل ، ولا يقدر على إتيان فعل لا يعلمه الله ، إذ أن الله عز وجل يعلم كل أفعال بني آدم ، وهذا العلم من الشواهد على غنى الله عز وجل المطلق ، ومن غناه أنه سبحانه يعلم ما يقوله الظالمون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

وأنزل الله آيات القرآن ، كل آية على نحو الإستقلال ، والشواهد التي تتضمنها مما يدل على أن الله غني ، فمثلاً يبدأ القرآن بسورة الفاتحة والتي تبدأ بالبسملة وهي شاهد بأن الناس جميعاً يحتاجون الله عز وجل عند شروعهم بفعل وعند الإقدام على أمر ذي بال ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر^(٤).

ثم تأتي بعد البسملة آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥) ولا بد من موضوع للحمد والشكر لله ، فالله عز وجل هو المنعم الذي يشكره الناس ، ومن إعجاز القرآن إبتدأه بالحمد لله وانه سبحانه رب العالمين لبيان الحاجة المستديمة والمتكررة له سبحانه .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) الكشف ١/١.

(٥) سورة الفاتحة ٢.

ولم تذكر الآية موضوع الآية وسبب الحمد ليكون هذا الموضوع من اللامتناهي من جهة النعم التي تفضل الله عز وجل بها ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) ، ويكون من معاني الآية وجوه :

الأول : الحمد لله على الخلق والإنشاء .

الثاني : الحمد لله الذي هو الغني وغناه مطلق ، لذا حينما قال الجاحدون بأنهم أغنياء ، ويقصدون أن غناهم ذاتي بما كسبوه بسعيهم وصبرهم وفطنتهم وتديبيرهم ، ونزلت آية البحث في أمور :

أولاً : ذكر قول الجاحدين .

ثانياً : ذم الجاحدين الذين تعدوا بهذا القول .

ثالثاً : كفاية وتدوين الله عز وجل لأقوال الجاحدين بقوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وإفادة هذا القول القطع والجزم ، فلا أحد يمنع الله عز وجل من هذه الكتابة ، وهو من الشواهد على أنه هو الغني .

الثالث : الحمد لله على إنزال آية البحث والإخبار عن سماعه لأقوال الجاحدين .

الرابع : الحمد لله الذي خفف عن المؤمنين ، بأن تولى بنفسه ذم الذين قالوا (إن الله فقير) وتوعدهم بالعذاب الأخروي ، ولا يقدر على هذا الوعيد إلا هو سبحانه .

الخامس : الحمد لله الذي أكرم الأنبياء في القرآن وأخبر بأن بعضهم قتل وضحى بنفسه في سبيله ، وأن هذا القتل ظلماً وجوراً لقانون وهو وجوب إكرام الناس للأنبياء ، وقانون : الصدور عما جاء به الأنبياء من عند الله سبحانه .

وقد يهيم الإنسان بالفعل ويقدم عليه ولكنه يفاجئ بعوائق عديدة منها ما كان متوقعاً ومحتملاً ، ومنها ما يكون طارئاً ومفاجئاً ، ولكن الله عز وجل اذا أراد شيئاً فليس له مانع ، وهو من الشواهد على أن الله هو الغني الذي يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره ، ولا يفعل للناس إلا ما هو خير لهم ، فاغناهم الله من فضله ثم أمرهم بدفع الزكاة من هذه الأموال ليكون هذا الدفع من الحمد والشكر لله سبحانه .

ولكن الذين كفروا عصوا وتعدوا ، بينما يقول المسلم سبع عشرة مرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وفيه باعث لكل مسلم على الإمثال لأوامر الله في الواجبات ، فمن خصائص المؤمنين تعاهد الحمد لله ولجوئهم إليه في حال الرخاء والضراء .

قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾

وتحتمل الكتابة من الله للأقوال والأفعال وجوهاً :

الأول : كتابة خصوص قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ .

الثاني : كتابة أقوال الذين ظلموا مطلقاً .

الثالث : كتابة أقوال الناس جميعاً .

والصحيح هو الثالث فان الله عز وجل يسمع أقوال الناس جميعاً ، ولا تختلف أو تتداخل عند الله عز وجل الأصوات والكلمات ، وفي التنزيل ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٢) .

ومن مفاهيم الآية قوله تعالى في الخطاب للمؤمنين ﴿سَنَكْتُبُ مَا قُلْتُمْ﴾ وفيه بشارة لهم ، ودعوة لذكر الله عز وجل ، وهل تلاوة القرآن من القول الذي يكتب الله عز وجل أم أن القدر المتيقن هو الأقوال بين الناس ،

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الكهف ٤٩.

الجواب هو الأول فان التلاوة من أحسن القول لذا فان الذي يقرأ القرآن يفوز بهذه النعمة بكتابة الله لقراءته للقرآن ، وهو من لطف الله باصلاح الألسن ، وتقريب الناس إلى منازل الهدى واكتناز الصالحات بتلاوة آيات القرآن .

وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين وجعل كل واحد منهم ذكراً أو أنثى يتلو آيات القرآن سبع عشرة مرة ليكتب لهم النطق والقول الحسن ، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١).

وجاءت الآية بصيغة الجمع في القائلين ، وتقديرها على وجوه :

الأول : سنكتب قول الذي قال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

الثاني : سنكتب قول التي قالت ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣).

الثالث : سنكتب قول الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤) سواء قالوه

مجمعين أو متفرقين.

الرابع : سنكتب قول اللائي قلن ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٥).

الخامس : سنكتب قول الذكور والأنثى من الجاحدين الذين اجتمعوا

على قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١).

(١) سورة الزمر ٢٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة آل عمران ١٨١.

السادس : سنكتب أقوالهم الأخرى ، ذات صبغة الظلم للذات والتعدي لأنهم باءوا بسخط وغضب من الله.

ويحتمل القول الذي يكتبه الله عز وجل وجوهاً :

الأول : إرادة قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) وقولهم ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢).

الثاني : كل قول قاله الجاحدون ، وإصرارهم على عدم دفع الزكاة والحقوق الشرعية.

الثالث : ملاقاتهم النبوة والتنزيل والدعوة إلى الإيمان بالوجود.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق آية البحث ، ويدل على إرادة عموم القول الصادر من الجاحدين ، مع ذكر وكتابة أشد معصية وذنب ارتكبهوه وهو قتلهم الأنبياء بغير حق .

وهل الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) ، هم أنفسهم الذين قتلوا الأنبياء الجواب بينهما عموم وخصوص مطلق ، إذ أن هذا القتل متقدم زماناً على نزول الآية بأكثر من ستمائة سنة مدة الفترة بين الأنبياء السابقين وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بينما ذكرت آية البحث خصوص الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤) ، عندما نزلت آية الزكاة وحث النبي محمد الناس على دفعها وإعطائها للفقراء.

ومن معاني الجمع بين قول (إن الله فقير ونحن أغنياء) وبين قتل الأنبياء أن أقواماً من الذين كفروا من الأمم السابقة (قالوا إن الله فقير ونحن

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة آل عمران ١٨١.

أغنياء) وقاموا بقتل الأنبياء ، أما الذين قالوا إن الله فقير في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانهم امتنعوا عن الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، وسخروا من آيات التنزيل وفيه تحريض للمشركين على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ففضحت آية البحث عملهم ، وقطعت عليهم طريق الكيد والمكر ، وما يسمى في هذا الزمان بالمؤامرة.

ومن معاني الآية الكريمة بعث السكينة في نفوس الناس جميعاً إذ أن تأخير كتابة المعصية وقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) شاهد على إمهال الله عز وجل للناس وعدم مؤاخذتهم إذ يأتي العقاب على الذنب بعد كتابته وتدوينه ، والشهادة عليه يوم القيامة إلا أنه لا يتعارض مع البلاء في الدنيا للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) ونسبوا إلى أنفسهم الغنى وجمع الأموال ، وظنوا أنها لا تغادرهم وأنهم أعلى مرتبة من الفقراء والعبيد الذين دخلوا الإسلام ، لتكون آية البحث من البشارات للمؤمنين ومصاديق قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آئِةً وَيَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾^(٣).

ويحتمل موضوع الكتابة وجوهاً :

الأول : كتابة الله لقول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخُنُّوا أَعْيَاءُ﴾.

الثاني : التوثيق السماوي لأقوال المنكرين للتنزيل.

الثالث : كتابة امتناعهم عن الصدقات والإنفاق وكلامهم الذي يدل على هذا الإمتناع .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة القصص ٥.

الرابع : تدوين إنفاق المشركين أموالهم في الحرب على النبوة والتنزيل
قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُخْشَرُونَ﴾^(١).

ومن خصائص آية البحث أنها إنذار ووعيد للذين كفروا ، فصحيح
أنها أخبرت بصيغة الإنكار والذم عن قول (الذين قالوا ان الله فقير) إلا
أنها عامة تشمل أقوال الذين كفروا عامة وتقدير الآية على وجوه:

الأول : سنكتب ما قال الذين كفروا.

الثاني : سنكتب ما قال مشركوا قريش.

الثالث : سنكتب قول الجاحدين (إن الله فقير)

الرابع : سنكتب استهزاء وسخرية الذين كفروا من القرآن.

الخامس : سنكتب قولهم ان النبي مجنون وأنه ساحر ، كما ورد في

التنزيل ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ﴾^(٢).

إنما تعرض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للسحر ، إذ ألح
جماعة على خادم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واسمه ليبيد بن
الأعصم وهو يهودي حتى حصلوا منه على مشط رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم وبعض شعرات وألقوها في بئر ، وأخبر جبرئيل النبي
صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم عقدوا له عقداً ، وتلا عليه المعوذتين ،
فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي عليه السلام فاستخرجها
وفيها احدى عشرة عقدة .

(١) سورة الأنفال ٣٦.

(٢) سورة الذاريات ٥٢.

وكلما حل الإمام علي عليه السلام عقدة يقرأ آية ، فيخف الألم والثقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن حلها كلها ، وقيل أن لييد بن عاصم هو الذي سحر النبي محمد وليس خادمه ، ومن الآيات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يحاسب أو يعاتب الذي سحره ، عندما يراه وحتى موته .

السادس : سنكتب سعي المشركين لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن هذا السعي على نحو القضية الشخصية إنما هو إرهاب من مقامات الرياسة والأمرة ، التي كانت قریش تتمتع بها ، ليكون من غضب الله عز وجل عليهم الإخبار السماوي عن عدم اهليتهم للولاية على المسجد الحرام ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

لقد عطف آية البحث قتل الأنبياء على قول الجاحدين ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾^(٢) من جهة الكتابة ، ويحتمل تقدير الآية وجوهاً :

الأول : سنكتب ما قالوا وسنكتب قتلهم الأنبياء وأن قتل أسلافهم للأنبياء لم يكتبه الله عز وجل بعد .

الثاني : سنكتب ما قالوا ونكرر كتابة قتلهم الأنبياء .

الثالث : سنكتب ما قالوا كما كتبنا قتل أسلافهم للأنبياء .

الرابع : سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء عندما تنتفي أسباب محو هذه الكتابة ، فلعل من يخرج من ذريتهم يستغفر لهم ، وفي قوله تعالى ﴿وَأَمَّا

(١) سورة الأنفال ٣٤ .

(٢) سورة القصص ٥ .

الْجِدَارُ فَكَانَ لِفُلَانَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾.

ومن أسرار الجمع بين قول الذين كفروا عند دعوتهم لدفع الزكاة (ان الله فقير) وبين قتلهم الأنبياء في آية البحث مع وقوع هذا القتل قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنحو ستمائة سنة وأكثر منها بلحاظ التعاقب في بعثة الأنبياء بدليل قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، ليكون من وجوه تقدير الآية :

الأول : سنكتب ما قالوا وقتلهم سمية بنت خياط أم عمار.

الثاني : سنكتب ما قالوا وقتلهم شهداء بدر الأربعة عشر.

الثالث : سنكتب ما قالوا وقتلهم شهداء أحد.

الرابع : سنكتب ما قالوا وقتلهم أفراد سرية الرجيع^(٣)، وعددهم عشرة على قول ولم يخرجوا للقتال.

الخامس : سنكتب ما قالوا وقتلهم أفراد سرية التبليغ وتسمى سرية بئر معونة وعددهم ثمانية وثلاثون صحابياً .

وهكذا بالنسبة لتعدد تعدي الذين كفروا بالقتل وسفك الدماء وهو

من مصاديق احتجاج الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٤)،

(١) سورة الكهف ٨٢.

(٢) سورة البقرة ٩١.

(٣) أنظر الجزء الخامس والثمانين بعد المائة / سرية الرجيع .

(٤) سورة البقرة ٣٠.

ليكون من مصاديق رد الله عز وجل عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، نزول آية البحث بدم الذين كفروا وتوثيق قولهم وفعلهم ، وتلاوة أجيال المسلمين والمسلمات الى يوم القيامة آية البحث.

ولأن قتل الأنبياء تم في أزمنة غابرة ، ولم يقع في أيام نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الوجود فترة نحو ستمائة سنة بينه وبين عيسى عليه السلام فيها نبي ، فيكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : سنكتب ما قال الذين كفروا وقتلهم الأنبياء .

الثاني : سنكتب ما قال الجاحدون بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعدي وجور الذين كفروا بقتلهم الأنبياء .

وفي إخبار الله عن قتلهم الأنبياء وصبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليهم معجزة حسية له ، فمع أن الله عز وجل نسب إلى الذين جحدوا قتلهم الأنبياء وما يدل عليه من رضاهم بهذا الفعل فان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يثار لهم .

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : نحن معاشر الأنبياء أولاد علات^(٢).

وابناء العلات هم الأخوة لأب واحد من أمهات شتى ودينهم هو عبادة الله وحده ونبذ الشريك ، وأولاد علات استعارة والمراد تعدد شرائع الأنبياء مع الإتحاد في صفة نزولها من عند الله .

ويطلق في هذا الزمان على الأخ الشقيق : إذا كان لأب وأم ، والأخ غير الشقيق إذا كانت الأخوة من طرف الأب وحده أو الأم وحدها .
كان العرب يسمون الأخوة لأم واحدة وآباء شتى : الأخياف^(٣).

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤.

(٣) أنظر جمهرة اللغة ١/٢٣٧.

فالأخوة من الأب وحده أقرب من الأخوة من الأم ، حتى في الميراث عند غياب الورثة من المرتبة الأولى .

وقد يتبادر إلى الذهن الإتحاد في الدلالة بين واو الجماعة في ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ وبين الضمير هم في قوله تعالى ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ لموضوعية العطف في المقام ، ولكن لأن هذا القتل تم في أزمنة سابقة وأجيال متقدمة فان الآية تدل على أن الله عز وجل سيكتب قول الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ وكل قول فيه جحود وضلالة صدر منهم ، كما في استهزائهم بالتزويل وتكذيبهم للرسالة .

فيكون المعنى الجامع المشترك بين الذين كفروا ، وذكر قتل الأنبياء الدلالة على أن الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ مستعدون لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لو استطاعوا ، ولكن الله عز وجل أحبط عملهم ، ونزلت آية البحث لإشغالهم بأنفسهم ، ومنعهم من مواصلة الكيد والمكر لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١) ، ومن معاني الجمع بينهما بيان شدة قبح قولهم (إن الله فقير) .

وقيل ذكرت الآية خصوص قتل الأنبياء ، ولم تقل قتل الرسل لأن الرسل لا يسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف للحكمة ووظيفة الرسل في التبليغ ، واستدل بقوله تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة غافر ٥١.

مِنْ النَّاسِ^(١) ويرفع عيسى عليه السلام ، قال تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوْهُ^(٢)﴾ ومن ردنا على هذا القول مسائل :

الأولى : كل نبي يقوم بالتبليغ ، وهو قانون يتغشى عمل وجهاد الأنبياء .

الثانية : جاء لفظ الأنبياء والمراد منه جميع الأنبياء والرسل لأصالة العموم .

الثالثة : قد يقتل الرسول أو يدس له السم بعد أن يتم تبليغ رسالته . وقد صالح النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أهل فدك وطلبهم على أن يحقن دماءهم وعلى النصف في أموالهم فاستجاب لهم ، ولم يجلب المسلمون على فدك بخيل أو ركاب .

ولما سمع أهل خيبر سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعطيهم الأموال على النصف .

وقيل لما اطمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهدت له امرأة تسمى زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم (شاة مصلية ، وقد سألت ،

أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ؟

ف قيل لها : الذراع ،

فأكثرت فيها السم ،

وسمّت سائر الشاة ،

ثم جاءت بها ،

فلما وضعتها بين يدي رسول الله ،

(١) سورة المائدة ٦٧ .

(٢) سورة النساء ١٥٧ .

تناول الذراع،

فأخذها،

فلاك منها مضغعة،

فلم يسغها،

ومعه بشر بن البراء بن معرور،

وقد أخذ منها كما أخذ منها رسول الله،

فأما بشر فأساغها،

وأما رسول الله فلفظها،

ثم قال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعاها،

فاعترفت،

فقال : ما حملك على ذلك؟

قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك،

فقلت : إن كان نبياً فسيخبر،

وإن كان ملكاً استرحت منه. قال : فتجاوز عنها رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

قال : ودخلت أم بشر بن البراء على رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم تَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ،

فقال : يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك

تعادني،

فهذا أوان انقطاع أبهري.

وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله تعالى

به من النبوة^(١).

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٢١/١٢.

والظاهر أن عمل المرأة هذا فردي ليس بتدبير من الرجال ، وجاءت آية البحث بصيغة الجمع من الطرفين :

الأول : القاتل .

الثاني : المقتول .

والمراد من الجمع في طرف القاتل طائفة من الذين كفروا ، وأما الأنبياء فالمراد قتل عدد من الأنبياء ، وأيهما أكثر الأنبياء الذين ماتوا أم الذين قتلوا ، المختار هو الأول .

فالذي مات على الفراش من الأنبياء ، ويبلغ عددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبى أكثر بكثير من عدد الأنبياء الذين قتلهم الكفار من قومهم وأعدائهم ، وليان قانون وهو أن الأنبياء الذين قاتلوا لم ينج كلهم من القتل ، قال تعالى ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبُّنَا كَثِيرٌ فَمَا هُنَا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وتقييد قتل الأنبياء بأنه ﴿ بَغْيٍ حَقٍّ ﴾ شاهد على أن الأنبياء كانوا يقاتلون دفاعاً ، ويدبون عن الحق ، وأنهم كانوا يريدون التبليغ والإصلاح ، وفي قصة النبي شعيب عليه السلام وخطاباته لقومه ورد في التنزيل ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢) .

(١) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٢) سورة هود ٨٨ .

بحث بلاغي

من وجوه البديع في القرآن الإندماج وهو قيام المتكلم بدمج غرض في غرض ، أو بديع في بديع ، ومن إعجاز القرآن إنفراده بمصاديق من الإدماج من جهات :

الأولى : تعدد وجوه الإدماج في الموضوع المتحد .

الثانية : من خصائص الآية القرآنية أن صدرها في شئ ، ووسطها في شئ وآخرها في شئ آخر .

الثالثة : مجئ الآية القرآنية بمنطوق ، ولكن مفاهيمها متعددة .

الرابعة : بيان مضامين الآية القرآنية لأحوال الناس في الدنيا والآخرة بلحاظ أعمالهم وعواقبها ، ومن المتعارف أن ما سبق يؤثر في التالي وصيغة العاقبة ، ولا تؤثر العاقبة في السوابق ، ولكن آيات القرآن تبين قانوناً وهو تأثير سُنخية العاقبة بذات أقوال وأفعال بني آدم ، وهي باب للتوبة والإنابة ومناسبة لتثبيت أقدام المسلمين في مقامات الهدى ، وسبب للمبادرة لإخراج الزكاة والخمس ، والتنزه عن حبس الحقوق الشرعية ، فمن خصائص المؤمن إستحضار العذاب الذي تحتتم به آية البحث في الوجود الذهني وانقذحت في قلبه الخشية من الله ، فيزداد حذراً واحتراساً ، وهو باعث للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي التنزيل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١).

ومنه آية البحث إذ أخبرت عن إتخاذ طائفة من الذين كفروا من ترغيب الله باعانة الفقراء سبباً للإستهزاء والسخرية والتشكيك بالتنزيل ، والمغالطة ، فقالوا ما دام الله عز وجل قد احتاج أموالنا لمساعدة الفقراء

وأنه يجعل هذه المساعدة قرضاً له إذن هو محتاج وفقير لأن الإقتراض لا يكون إلا عن حاجة وفاقة فأخبرت آية البحث أن الله سمع قولهم هذا. وأنه سبحانه سيحاسبهم عليه يوم القيامة ، ويحاسبهم على قتل الأنبياء بغير حق لبيان مسألة وهي التذكير باليوم الآخر وأن الناس يبعثون من قبورهم ، وتحضر معهم أقوالهم وأفعالهم ، ولا يقدر على هذا الإحضار إلا الله عز وجل.

من الغايات الحميدة لآية البحث إصلاح الناس للإنفاق في سبيل الله ، وزجرهم عن منع الذي يريد التصدق من ماله ، وفي وصف وذم المنافقين ورد قوله تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بُعِثُوا مِنْ بَعْضِ يَمُرُونِ بِالْمُنْكَرِ وَيَتَهَوَّنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَقُولُوا عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾

أخبرت آية البحث عن صدور هذا الوعيد من عند الله ، وهل يحتمل أن القائل هم الملائكة ، ونسب الله عز وجل القول الى نفسه الجواب نعم ، والمختار التعدد ، فان هذا القول يصدر من عند الله عز وجل ، ومن الملائكة ، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾^(٢) ، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويحتمل أوان صدور هذا القول من الله وجوهاً :

الأول : إنه في أيام التنزيل وأن الله عز وجل أنزل آية البحث وهي ذاتها وعيد للذين يقولون (إن الله فقير).

(١) سورة التوبة ٦٧.

(٢) سورة الزمر ٧١.

الثاني : مجئ هذا القول في عالم البرزخ فحالما يموت الذي يقول (إن الله فقير) فإن قبره يضيق عليه ويأتيه مصداق من الوعيد بواسطة منكر ونكير.

الثالث : صدور هذا القول يوم القيامة.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، ومن مصاديق تعدد معاني الآية عطف (ونقول) على سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء لتتداخل الأزمنة في عالم الحساب ، وما يكون بعيداً يصير قريباً ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَيَرَاهُ قَرِيبًا﴾^(١).

ولم تقل الآية (فذوقوا عذاب الحريق) لأن الفاء تفيد التعقيب والتوالي وعدم وجود فترة ، إنما أشارت الآية إلى أن هذا العذاب في الآخرة ، بحرف خصائص الحريق في الحياة الدنيا أنه ينقطع بانقطاع مادته وصيرورتها رماداً ، أو عند إطفاء هذا الحريق ، أما نار الآخرة فإن نارها فمادتها متجددة ، وهي لا تنطفئ إلا أن يشاء الله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢) ، أي أن وقودها ذاتي ومستمر.

وصحيح أن قوله تعالى (ونقول) معطوف على ﴿سَنَكْتُبُ﴾ ولكن هل من ملازمة زمانية بينهما وأنه في ذات الوقت الذي يكتب الله عز وجل قولهم وافترأهم بأن الله فقير وهم أغنياء يقول لهم ذوقوا عذاب الحريق ، والمختار أن هذه الكتابة في الدنيا وقبل أن يغادروها ، إنما أمهلهم الله للتوبة ، وطرد عنهم ببركة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الغفلة ببيانه لقبح قولهم هذا وما يترتب عليه من العقاب الأخروي ، وهو من مصاديق قوله

(١) سورة المعارج ٦-٧.

(٢) سورة التحريم ٦.

تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، فذات موضوع الزكاة يتضمن البشارة لمن يخرج الحقوق الشرعية من ماله ، والإنذار لمن يخل ويمتنع منها.
عن الحسن البصري أنه قال : بلغني أنه يحرق أحدهم في اليوم سبعين ألف مرة^(٢).

ويحتمل أوان هذا القول :

الأول : عند دخول الكافر الذي قال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ القبر وعالم البرزخ .

الثاني : أوان صدور هذا القول من الله عز وجل عند البعث والنشور .

الثالث : في بعض مواطن الحساب .

الرابع : عند سوق الذين كفروا إلى النار ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

الخامس : عند العرض على النار ، كما في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدُّهْتُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ

(١) سورة الاسراء ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٧/٣.

(٣) سورة الزمر ٧٣.

تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْكُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١﴾.

السادس : اثناء العذاب في النار ، وعند دعاء الذين كفروا بتخفيف العذاب عنهم .

السابع : إرادة التعدد في مواطن صدور هذا القول من الله عز وجل ومن الملائكة ، وهو الذي يدل عليه الجمع بين آيات القرآن منها :

الأولى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢).

الثانية : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٣).

الثالثة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا تَضَجَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٤).

الرابعة : ﴿وَكُلَّ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٥).

الخامسة : ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمُ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (١).

(١) سورة الأحقاف ٢٠.

(٢) سورة آل عمران ١٠٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة النساء ٥٦.

(٥) سورة الأنعام ٣٠.

السادسة : ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ تَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٢).

السابعة : ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٣).

الثامنة : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٤).

التاسعة : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا عَلَيْهِمْ ذَرْأَهُمْ فَأُولَئِكَ فِي عَذَابٍ الْحَمِيمِ * ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٥).

العاشرة : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (٦).

الحادي عشرة : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٧).

والمتسالم عند المسلمين والمليين جميعاً على أن عذاب الحريق في الآخرة ، والمراد شدة عذاب النار ، وعلى ظاهر الآية كأن ذوق الكفار وعذاب الحريق في الحال وفي الحياة الدنيا .

(١) سورة الأعراف ٣٩.

(٢) سورة التوبة ٣٥.

(٣) سورة الحج ٢٢.

(٤) سورة السجدة ٢٠.

(٥) سورة الدخان ٤٧-٤٩.

(٦) سورة القمر ٣٧.

(٧) سورة القمر ٤٨.

وبالنسبة للفظ ﴿وَقُولُ﴾ الوارد في آية البحث في زمانه وأوانه وجوه :

الأول : المراد أوان نزول آية البحث ، وتقدير الآية : ونقول الآن ذوقوا عذاب الحريق .

الثاني : ونقول كل يوم للذين كفروا ذوقوا عذاب الحريق (ليكون عدد الذين يتوجه الخطاب لهم غير ثابت أو مستقر ، فمنهم من تاب وآمن وأصلح نفسه ، ومنهم من مات في أجله ، ومن الناس من بلغ سن البلوغ واختار الكفر ، وجاءت الآية بصيغة الماضي ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ لبيان تحقق صدور هذا القول وإنقطاعه ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : ونقول عند دخول الذين كفروا القبر ذوقوا عذاب الحريق .
الرابع : الوعيد للذين كفروا وهم في عالم البرزخ بأن يذوقوا يوم القيامة عذاب الحريق .

الخامس : إخبار الذين كفروا عند البعث والنشور بما ينتظرهم من العذاب بالنار .

السادس : عندما يساق الذين كفروا إلى النار يقول لهم الله عز وجل والملائكة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ في النار التي تساقون إليها .

السابع : عندما يدخل الذين كفروا النار يقال لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

الثامن : تجدد هذا القول وتوجه الخطاب إلى الذين كفروا وهم في النار خاصة عندما يسألون التخفيف .

إذ يشكو الذين في النار من شدة العذاب ، فقد ورد في التنزيل ﴿وَأَدَّوْا يَامَا لِك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ مَكْرُوفِينَ﴾^(١) فلا ينحصر قول الله للذين كفروا وقالوا ان الله فقير ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ بمرة واحدة .

وحتى في الحياة الدنيا يتكرر هذا القول عدة مرات في اليوم بتلاوة المسلمين لآية البحث وليكونوا شهوداً على الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ في مواطن القيامة ويرون يومئذ الذين امتنعوا عن الزكاة وقد طوق عنق كل واحد منهم أفعى يضيق معه نفسه .

علم المناسبة ﴿وَقُلْ ذُوقُوا﴾

يتعلق الذوق باللسان ووجود طعم الزاد ونحوه في الفم وأصله في القليل مما يتناول لأن الكثير يطلق عليه الأكل ، وقد يكون التذوق مقدمة للأكل أو عدمه ، كما يستعمل في الكثير أيضاً .

والتذوق نعمة عظيمة في خلق الإنسان ودعوة له للشكر لله عز وجل عليها وعلى نعمة الأكل ، ولكن الذين كفروا جحدوا بهذه النعمة فجاءهم الإنذار والوعيد في آية البحث ، إذ كثر ذكر التذوق في القرآن بخصوص العذاب كما في خاتمة آية البحث ، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢) وقيل لهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣) .
﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٤) .

(١) سورة الزخرف ٧٧ .

(٢) سورة النساء ٥٦ .

(٣) سورة السجدة ٢٠ .

(٤) سورة الأنفال ٣٥ .

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١).

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾^(٢).

﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣).

بحث طبي فقهي

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مرآة للآخرة ، وتذكيراً بضروب الثواب أو العقاب فيها ، فمثلاً ورد بخصوص أهل الجنة قوله تعالى ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾^(٤) لبيان استحضارهم للنعم التي رزقهم الله في الدنيا وأنها لم تصل إليهم لولا فضل الله ، ومن وجوه العقاب في الآخرة إخبار آية البحث عن العذاب بالحريق . ويقع الحريق في الدنيا كمصيبة تنزل على الإنسان في بدنه أو في ماله وبيته ، ويصرف دفع الزكاة والخمس ألواناً من هذا البلاء .

وقد يتلى الإنسان ويتعرض للحرق في حياته وهو على درجات :
الأولى : حرق الدرجة الأولى ، وهو الحرق البسيط وأخف أنواع الحروق ، وقد يأتي من ملامسة شئ ساخن فيلامس البشرة والجلد الخارجي دون ما تحته ، ويسبب إحمراراً والمأ الحساسية الطبقة الأولى من الجلد ، ودية هذا الحرق إذا صدر من شخص آخر خطأ أو عمداً مع الرضا بالدية ٥.٠٪ أي نصف الواحد من المائة من مجموع الدية ، وهو ٥ دنانير من أصل مجموع الدية وهي ألف دينار ، وكل دينار مثقال ذهب عيار ثمان عشرة حبة أو بما يعادلها من أصناف الدية الخمسة الأخرى .

(١) سورة الدخان ٤٩.

(٢) سورة الصافات ٣٨.

(٣) سورة السجدة ٢١.

(٤) سورة البقرة ٢٥.

وليس في يوم القيامة من دية أو عوض للذين اشتروا الكفر بالإيمان لأنه عقوبة بعد وعيد التنزيل وإنذارات الأنبياء والآيات الكونية والبراهين العامة ، قال تعالى ﴿وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُرَوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١).

ومن الآيات في خلق الناس أن العقوبة والتعدي بالحرق أقل ضروب التعدي ، وورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وإن النار لا يعذب بها إلا الله)^(٢).

(عن عبد الرحمن بن عبد الله كوفي عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمررنا بقرية نمل قد أحرقت قال فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال إنه لا ينبغي لبشر أن يعذب بعذاب الله)^(٣).

الثانية : حروق الدرجة الثانية : وهي التي تصيب البشرة والطبقة التي تليها من الجلد ، وتسبب بالإضافة إلى الإحمرار والألم تورم موضع الحرق ، ويصير في حالة رطوبة مع إزدياد في مرتبة وشدة الألم وقد يسبب البثور والندب.

الثالثة : حروق الدرجة الثالثة : وهي التي تخترق الجلد تحت الأدمة وتصل إلى الطبقة الدهنية ، وقد يصبح الجلد بحالة التيبس ، وقد يؤدي إلى تلف الأعصاب فيسبب التمثل.

الرابعة : حروق الدرجة الرابعة : وهو أشد أنواع الحروق لتسببه بتلف شديد للأعصاب ، وإضراره بالعضلات والعظام ، ويكون الجلد بلون أسود ، وقد لا يشعر المصاب بالألم وقد يلزم عمل ترقيع للجلد ، وهو

(١) سورة يوسف ١٠٥.

(٢) البيهقي / السنن الكبرى ٧١/٩.

(٣) النسائي / السنن الكبرى ١٨٣/٥.

الذي أشار إليه القرآن باعجاز ﴿كَلَّمَافَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

وهذا النضج لا يتم كل دقيقة فلا بد أن كيفية شدة حرارة النار أمر خاص ، وكذا بالنسبة لتحمل بدن الإنسان تلك النار وفي الدرجة الرابعة من الحرق قد يموت الإنسان ولكن بالنسبة لأصحاب نار جهنم لا يموتون مع أن نارها أشد عليهم ، إذ أنهم يسمعون خطاب الله عز وجل لهم بالتوبيخ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، قال تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾^(٣).

وفي الآية أعلاه ترغيب بالتوبة والإنابة ، وهل الذي يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ مجرم وتشمله أحكام الآية أعلاه إن لم يتب الجواب نعم .

ومنهم من يجعل مراتب الحروق ثلاثة وفق اصطلاح علماء الأبدان. وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَقُلْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٤) ، ويحتمل هذا الحريق بلحاظ مراتب الحريق أعلاه وجوهاً :

الأول : إنه من أحد المراتب أعلاه الثلاثة الأولى أعلاه.

الثاني : إنه من المرتبة الرابعة أعلاه بلحاظ أنها أشد مراتب الحريق ، وتصيب الناس كابتلاء في الدنيا ، وفيه تذكير بنار الآخرة ، ولزوم السعي للنجاة منها وأخذ الحائطة من طي صحيفة العمل قبل بلوغ أوان الرحيل بقارب الأمان ومن مفاجأة الأجل قبل التدارك واصلاح الخلل بالإستغفار

(١) سورة النساء ٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة طه ٧٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

والعمل الصالح ، قال تعالى ﴿إِلَٰمْنُ تَابْ وَأَمْنُ وَعَمِلْ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١).

الثالث : إنه اشد من مراتب الإحترق بنار الدنيا.

والمختار هو الأخير ، وإذا كان ألم الحرق من المرتبة الرابعة وقتياً مع وصوله إلى العضلات وله في كل زمان علاج ، وصاحبه في هذا الزمان مسكنات الألم ونحوها ، فإن الحريق بنار الآخرة ألمه متجدد ، لذا قال سبحانه ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢) ، لأن الألم في المستقبلات الحسية فعند تلفها ثم إرجاعها إلى مواضعها يتجدد الشعور بالألم ، وتذوقه ، ليكون هذا التذوق في مقابل تذوق الفقراء الجوع من حبس الأغنياء الزكاة والحقوق الشرعية.

وتقدير الآية من جهة العلة والسبب على وجوه :

الأول : وذوقوا عذاب الحريق لمغادرتكم الدنيا على الكفر .

الثاني : وذوقوا عذاب الحريق لقانون خلود الذين كفروا في النار .

الثالث : وذوقوا عذاب الحريق لإمتناعكم عن التوبة والإنابة .

الرابع : وذوقوا عذاب الحريق لمناجاتكم بالكفر .

الخامسة : وذوقوا عذاب حريق نار جهنم الحاطمة .

السادسة : وذوقوا عذاب الحريق لقولكم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) .

(١) سورة الفرقان ٧٠.

(٢) سورة النساء ٥٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

ومن خصائص الإنسان الغني في الدنيا أنه يسعى لطلب سلامته بأمواله ، ومع هذا فإن هناك شواهد كثيرة تدل على تخلف الأموال الكثيرة عن دفع المرض والبلاء عن صاحبها ، وتدفع كثيرا منها الزكاة والصدقة .
السابع : ونقول ذوقوا عذاب الحريق كما جاء به الأنبياء من البشارة والإنذار .

الثامن : ونقول ذوقوا عذاب الحريق كما ورد في هذه الآية ، وفي التنزيل ﴿وَعَذَابُ الْمُتَافِقِينَ وَالْمُتَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَنَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾^(١).

التاسع : وذوقوا عذاب الحريق جزاء وعقوبة على الكفر بالله والنبوة واليوم الآخر.

العاشر : ذوقوا عذاب الحريق في النار التي خلقها الله قبل أن يخلق آدم.

(عن أنس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية { وقودها الناس والحجارة }^(٢) فقال : أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها)^(٣).

وتجري للمصاب بالحروق اسعافات أولية في المنزل ، ويتصل بالطبيب وتوالي المؤسسات الصحية عناية بالمصاب بالحروق ، ولكن يوم القيامة ليس من عون أو مساعدة لأصحاب النار .

وفي الآية دلالة على رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً يوم القيامة ، إذ أن التذوق أدنى وأخف رتبة من اشتغال البدن بالحريق .

(١) سورة التوبة ٦٨ .

(٢) سورة التحريم ٦ .

(٣) الدر المنثور ٤٧/١ .

ولقد أنعم الله عز وجل على الإنسان بحاسة التذوق للتمييز بين أفراد وخصائص الأطعمة من جهة الحلاوة والحموضة ، والملوحة ونحوها ، وتتواجد خلايا وبراعم الذوق حول اللسان .

وحاسة الذوق من أكثر الحواس سلامة عند الناس فنادرًا ما تجد إنساناً يفقد حاسة التذوق ، لتكون هذه الحاسة حجة على الناس في الدنيا والآخرة ، أما المؤمن فحينما يتذوق طعاماً يشكر الله عز وجل ويسأله الزيادة ، وفي التنزيل ﴿لَنْ شَكْرُنْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) وأما الكافر فانه يطغى ويمتنع عن الزكاة خشية الفاقة والحرمان من حصول هذا التذوق له ولعياله ، فجاءت كل من آية السياق والبحث بالحث على المبادرة إلى دفع الزكاة ، وجعل الفقير يتذوق وعياله الطيبات ، قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٢) .

وليختار عموم الناس لعوائلهم وأولادهم ما ينجيهم من تذوق النار في الآخرة .

ومن أسرار إخبار آية البحث بأن الله عز وجل هو الذي يأمر المشركين بتذوق عذاب الحريق قوله تعالى ﴿وَقُولُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٣) .

وفيه شاهد على التخفيف عنهم يوم القيامة فالتذوق أدنى مرتبة من تلبس تمام البدن بالحريق .

(عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال أعرابي يا رسول الله من يحاسب الخلق يوم القيامة ، أي سأل الأعرابي مستفهماً مستبسراً . قال : الله .

(١) سورة ابراهيم ٧ .

(٢) سورة الأعراف ٣٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

قال : الله ؟ قال : الله قال نجونا ورب الكعبة ! قال : وكيف يا أعرابي أي سأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسمع الصحابة ، ويعلم الناس موضوعية الفطرة في حسن اللجوء والاستجارة بالله عز وجل ؟ قال : لأن الكريم إذا قدر عفا^(١).

وفي قوله تعالى ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٢)

الأول : إنه النوافل بعد الفروض قاله ابن زيد .

الثاني : قول سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

الثالث : النفقة على الأهل ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : النفقة في سبيل الله .

الخامس : فعل جميع الطاعات التي يستحق عليها الثواب^(٣) .

المختار هو الزكاة والصدقة المستحبة ، والإنفاق في سبيل الله ، ولما ذكر بعد الزكاة فإنه يعمل على الصدقات المستحبة .

أما إذا ورد مستقلاً فإنه يحمل على الزكاة الواجبة أو على المعنى الأعم .

وهو في المقام من عطف العام على الخاص ، ومن عطف العنوان الجامع للواجب والمستحب على خصوص الواجب .

(١) شعب الإيمان ١/٢٤٦ .

(٢) سورة الاسراء ١٠٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/٣٤٥ .

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٤- سيادة رئيس المحكمة الاتحادية العليا .
- ٥- سيادة القاضي رئيس الادعاء العام .
- ٦- سيادة القاضي رئيس هيئة الإشراف القضائي.
- ٧- سيادة رئيس مؤسسة الشهداء
- ٨- الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب.
- ٩- كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية/ بيروت.
- ١٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل / المملكة العربية

السعودية

- ١١- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان / الجمهورية السودانية.
- ١٢- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية / المدينة المنورة.
- ١٣- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١٤- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
- ١٥- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ المملكة الأردنية

الهاشمية.

- ١٦- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر/ الجمهورية الجزائرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ / ٢٥
٨ / ٩ / ٢٠

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم. نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان يجعله في ميزان حسناتكم.

وشكر الله لكم حسن عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر

مختصا

(الدكتور) محمد سيد طنطاوي

١١
٢٠

في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس □

بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير
والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،
 فإنه ليسعدني أن أقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير
 والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من الجزء الثاني والثمانين.
 وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
 عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
 شاكرين لكم، ولكم تحياتي

د. علي جمعة
 مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRETARIAT GENERAL



OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،
فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير
القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم
بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام
لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على
جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء
وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.
وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

أحمد القحوي
مستشار الأمين العام



بسم الله الرحمن الرحيم

كو٧ ماري عيراق

داد كاي بالآي ئيتتيجادي

العدد : ٥١ / مكتب / ٢٠١٩

التاريخ: ١٢ / ٥ / ٢٠١٩



جمهورية العراق

المحكمة الاتحادية العليا

مكتب رئيس المحكمة

سماحة الشيخ صالح الطائي المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م/شكر وتقدير

تحية طيبة...

إشارة إلى كتابكم المرقم (١٩/١٠٣٥) المؤرخ ٢٠١٩/٥/٦ .
تسلمنا ببالغ الإعزاز إهدائكم نسخة من كتابكم الموسوم ((معالم
الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية.
مع فائق التقدير

القاضي

مدحت محمود

رئيس المحكمة الاتحادية العليا

٢٠١٩/٥ / ١٢

جمهورية العراق

مجلس القضاء الاعلى

رئاسة الادعاء العام

المكتب

مكتب المرجع الديني

الشيخ صالح الطائي



العدد /

التاريخ / ٢٠١٩ / ٨ / ١٩

م / شكر

تحية طيبة

كتابكم ذي العدد ١٩/٢٣ المؤرخ في ٢٠١٩/١/٢.

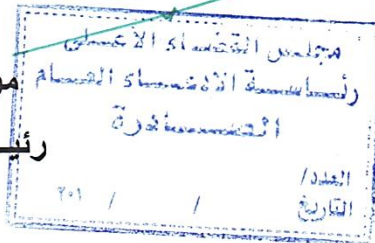
استلمنا هديتكم (الجزء الخامس والسبعين بعد المائة من تفسير القرآن الكريم) ونقدم لكم شكرنا آمليين منكم المزيد من العطاء والتوفيق.
مع التقدير.

القاضي

موفق محمود محمد صالح

رئيس الادعاء العام

٢٠١٩/١/



بسم الله الرحمن الرحيم



جمهورية العراق

مجلس القضاء الأعلى

رئاسة هيئة الإشراف القضائي

مكتب رئيس الإشراف

العدد ٨/مكتب/٢٠١٩/ ١٧٩٣

التاريخ ٢٠١٩/٥/١٢

الى / سماحة الشيخ (صالح الطائي) المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م/ شكر وتقدير

تلقينا ببالغ الإعزاز كتابكم الموسوم ((معالم الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
وكانت الهدية بواسطة السيد ((عبد الله الشيخ صالح الطائي)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية .
مع فائق التقدير .

جاسم محمد عبود
القاضي

رئيس هيئة الإشراف القضائي

٢٠١٨/١٢/١١



كۆماری عێراق
Republic of Iraq
 سه روکایه تی نه نجومه نی وه زیران
Presidency of Ministers
 ده رگای شه هیدان
Foundation of Martyrs



جمهورية العراق
رئاسة الوزراء
مؤسسة الشهداء

العدد: ١٠٠٠ / ٢٠٣

نُورُ الشُّهداء أمانةٌ في أعناقنا

التاريخ: ٢٠١٩ / ٥ / ٢٠

مكتب رئيس المؤسسة

إلى/سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الشيخ (صالح الطائي) "أدام الله
 ظله"

م/ شُكْرٌ وتقدير

تحية طيبة

في الوقت الذي نبارك لكم الإشرقة المنيرة لكتابكم (معالم الإيمان في تفسير
 القرآن الكريم) الجزء الحادي والثمانين بعد المائة الآية (١٧٩) سورة آل عمران.
 فأننا نتقدم بالشكر الجزيل لكم على إتحاقنا بهذا السفر القيم داعين المولى
 تعالى أن يمن عليكم بالسداد والتوفيق.

ناجحة عبد الأمير الشمري
 رئيس مؤسسة الشهداء
 ٢٠١٩/٥/٢٩



Arab League
Union of The Arab
Historians
General Secretary



جامعة الدول العربية
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة

العدد: ١٥٣/ت
التاريخ: ٢٠ رمضان ١٤٣٩ هجرية
الموافق: ٢٠١٨/٦/٥ ميلادية

إلى/ سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :
وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت مع بالغ الشكر وعظيم التقدير والإمتنان هديتكم القيمة والمتمثلة في
الأجزاء (١٦٠-١٦١-١٦٤) من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) ان ولوجكم في
هذا الميدان العلمي من التأليف في تفسير القرآن العظيم يعيد الى الأذهان ذكريات
أولئك المفسرين العظماء الكرماء الذين خلدهم التاريخ بإنجازاتهم العلمية
الوفيرة والنادرة ، وان هذا المؤلف الكبير هو من المؤلفات النادرة حقاً في هذا
الزمن الشحيح في علماء التفسير بحيث اعاد الأمل الى نفوس العلماء وطلاب
العلم ، بان ميدان التأليف في هذا الفن العلمي انما هو رافد عظيم من روافد
الفكر الاسلامي الخالد والذي نفتخر ونعتز به ، وأسأل الله تعالى ان يسبغ عليكم
بوافر الصحة ونعمة العافية من اجل اكمال هذا المشروع العلمي الخالد كي نباهي
به الأجيال وكي نؤكد لكافة المسلمين ان هذا الاسلام يظل منبع للعلم والعلماء
من اجل ديمومة هذا العلم الخالد .

اكرر شكري وتقديري على كرمكم الأصيل باهدائكم هذه الاجزاء لنا ،
وأسأله تعالى ان يستمر عطائكم وتأليفكم بانجاز هذا المشروع التاريخي الخالد .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي
والتراث العلمي للدراسات العليا



بسم الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

بيروت في ٩/ربيع الأول/١٤٤٠هـ

الموافق ٢٤/١١/٢٠١٨م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

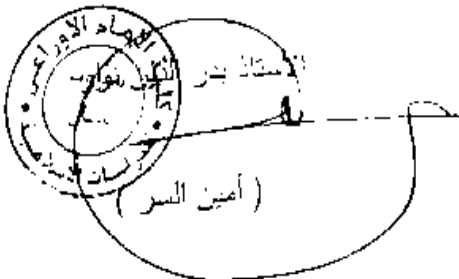
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها،
وتشكركم على الجزء (١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل
على أن النبي (ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.

آملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلاً،
شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا
وإياكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة الإسلامية
وزارة التعليم
جامعة الملك فهد
(٠٣٧)

الموضوع:

الموقر

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي
مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد
تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١
وتأريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.
يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم
المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة
الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلت قدرته للجميع التوفيق
والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين الساعتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

النمرة: ج ك/م م/١٧/ح/٣
التاريخ: 2016/8/16م

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بانتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣م، وذلك إثراءً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعلنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبدالله عجب الدور

مدير الجامعة



الرقم: ١١٤٦ / ١ / ١٣٢
 التاريخ: ١٦ / ٢ / ١٤٣٦ هـ
 الملاحظات:
 الموضوع:



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
 وزارة التعليم العالي
 الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
 مكتب المدير
 (٠٣٢)

سلمه الله

معالي الشيخ/ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالعزيز السند

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد: ٢٩٢ / ١
التاريخ: ٢٠١٦ / ٤ / ١٠
١٤٣٨ /

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Thi- Qar
Bureau of University President



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ذي قار
مكتب رئيس الجامعة

العدد: ٦٨٩٢ / ٥٤ / ٧

التاريخ: ٢٠١٦ / ٦ / ٨

إلى / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

باعتراز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله
العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله
العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣،
١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد،
سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا
والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

أ. د. رياض شنته جبر
رئيس جامعة ذي قار
٢٠١٦ / ٦ / ٨

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref.

Date

الرقم ١١١١:٨١٤ ١٤٢٩

التاريخ ١٢/٥/٢٠٢١ م الموافق ١٢/٥/٢٠٢١

سبادة الأُمّ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر وإعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تأريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعامة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



رئاسة الجامعة

قسنطينة، في: 25/03/2015

جامعة الأمير عبد القادر

للعلم والإسلامية

قسنطينة

رقم 498... / رج / 2014

إلى السيد المحترم / مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي صاحب أحسن تفسير للقرآن
تحية طيبة وبعد :

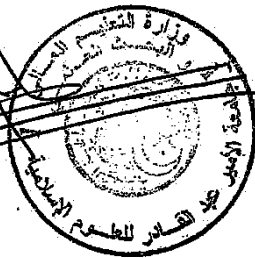
تلقينا نحن أ.د. / عبدالله بوخلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في
تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا
نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٤١	صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
١٥	الآية ١٨١ / الإعراب واللغة	١٥٢	الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا
١٩	في سياق الآيات	١٦٣	إعجاز الآية الذاتي
٣٨	صلة آية السياق مع الفاتحة	١٦٧	إعجاز الآية الغيري
٨٤	صلة قوله تعالى ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بآية البحث	١٧٦	قانون الزكاة تجارة مع الله
٩٠	قانون الأجر العظيم	١٨٢	الآية سلاح
٩١	قانون كل آية قرآنية تميز وفصل للخبيث عن الطيب	١٨٥	مفهوم الآية
٩٤	قانون الآية فيصل بين الخبيث والطيب	١٩١	افاضات الآية
٩٥	آية الحمد	١٩٧	الآية لطف
٩٧	آية الرحمن	٢٠١	الآية بشارة
١٠٢	آية مالك يوم الدين	٢٠٣	الآية إنذار
١٠٩	آية إياك نعبد	٢٠٧	الآية موعظة
١١٥	بحث كلامي	٢٠٩	الآية رحمة
١٣١	آية أهدنا	٢١٢	الحاجة لآية البحث
١٣٩	آية الصراط المستقيم	٢١٦	الصلة بين أول وآخر الآية
١٤٠	آية صراط الذين	٢٢٢	جمع الآية بين قول ان الله فقير وقتل الأنبياء

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٥	من غايات الآية	٢٧١	قانون دلالة القرآن على أن الله هو الغني
٢٢٩	التفسير ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾	٢٧٥	قوله تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾
٢٤٤	علم المناسبة	٢٨٠	قوله ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾
٢٤٦	بحث أصولي	٢٨٧	بحث بلاغي
٢٤٩	قوله ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾	٢٨٨	قوله ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
٢٥١	لا يصح رد الفقير الزكاة هدية لصاحب المال	٢٩٤	علم المناسبة
٢٥٤	قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾	٢٩٥	بحث طبي فقهي
٢٦٨	بحث كلامي	٣٠٢	ردود كريمة
		٣١٩	الفهرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٦٩١ لسنة ٢٠١٩